

إيضاح أسرار علوم المقربين

تأليف

السيد الشريف الإمام

جمال الدين محمد بن عبد الله بن شيخ العيدروس باعلوي

رحمه الله تعالى



بهوامش الكتاب حاولت ربط المواضع التي تتناول نفس الفكرة أو بينها تناسب
ورجائي الدعاء للأستاذ أحمد عبد اللطيف بما يفتح الله عليكم به من صالح الدعاء
فقد طلب مني قبل وفاته بأقل من يوم تصوير نسختي هذه ورفعها على النت
رحمه الله رحمة واسعة بفضله وكرمه ورزقه النظر إلى وجهه الكريم
وصحبة نبيه –صلى الله عليه وعلى آله وسلم– في جنات الفردوس العلى

إيضاح أسرار علوم المقربين

تأليف

السيد الشريف الإمام

جمال الدين محمد بن عبد الله بن شيخ العيدروس باعلوي

رحمه الله تعالى

دار السنابل

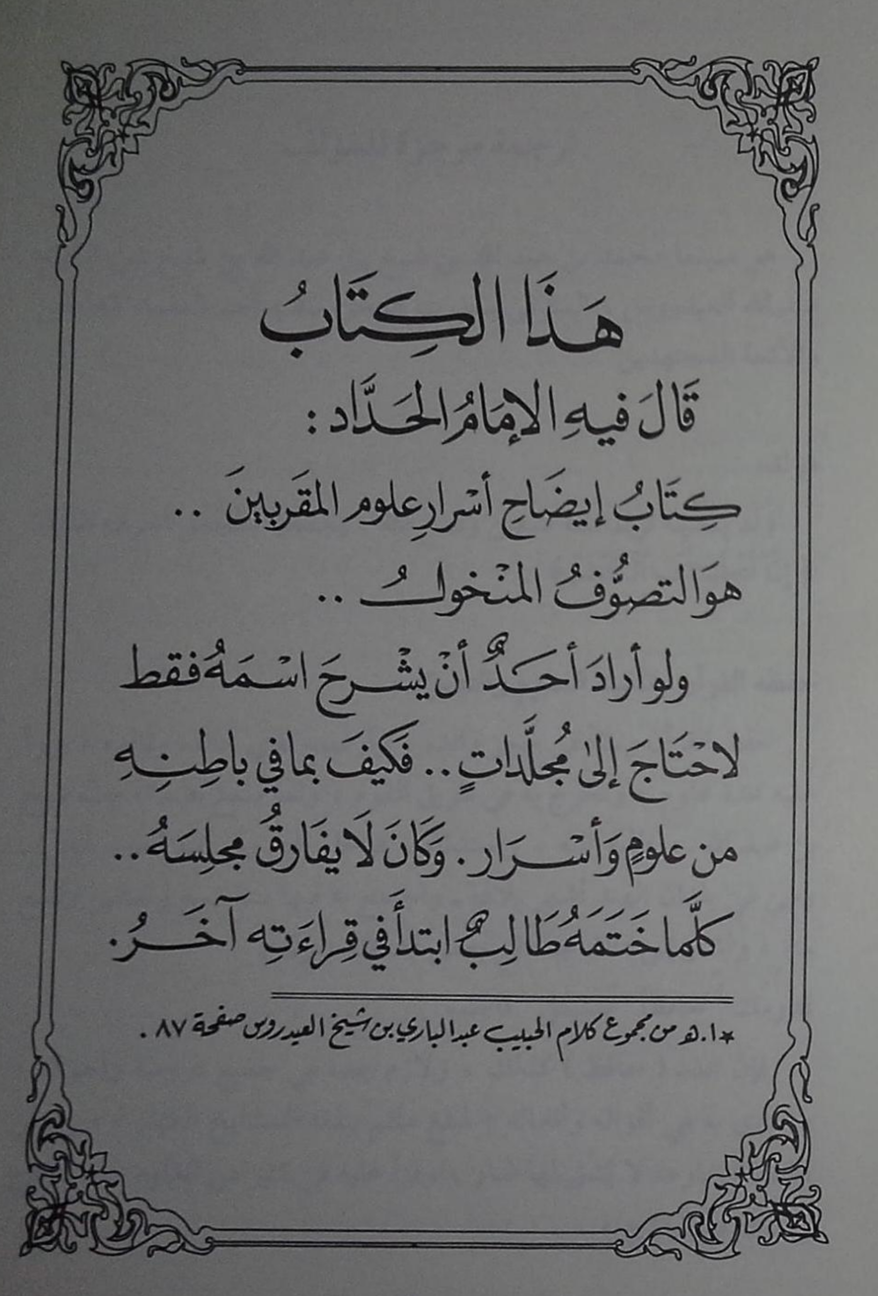
دار الحاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الثالثة
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م
طبعة مصححة ومزيدة

دار الحاوي للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - فاكس (٧٨٦٢٣٠ ١ ٩٦١ +)

دار السنابل
دمشق - سورية - هاتف (٢٢٤٢٧٥٣ ١١ ٩٦٣ +)



هذا الكتاب

قال فيه الإمام الحداد :

كتاب إيضاح أسرار علوم المقربين ..
هو التصوف المنخول ..
ولو أراد أحدٌ أن يشرح اسمهُ فقط
لاحتاج إلى مجلداتٍ .. فكيف بما في باطنِهِ
من علومٍ وأسرار. وكان لا يفارق مجلسهُ ..
كلما ختمهُ طالبٌ ابتدأ في قراءتِه آخر.

*ا.هـ من مجموع كلام الحبيب عبد الباري بن شيخ العيدروس صفحة ٨٧ .

ترجمة موجزة للمؤلف

هو سيدنا محمد بن عبد الله بن شيخ بن عبد الله بن شيخ ابن الشيخ عبد الله العيدروس ، المتوفىٰ بسورت المحروسة ، أحد العلماء العارفين والأئمة المجتهدين .

مولده :

ولد بمدينة تريم سنة سبعين وتسع مئة ، يجمعها بالجُمَّل أحرف عديدة ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ .

حفظه القرآن وتلقينه العلوم والتصوّف :

حفظ القرآن ونشأ في حجر والده ، وأرضعه ثدي خالده وتالده ، وقرأ عليه عدة علوم ، وتخرج به في طريق القوم ، ولما سمع بصفاته جدّه شيخ بن عبد الله . . طلبه إليه ، واستدناه ، فرحل إليه وهو بـ(أحمد أباد) ـ وهي في بلدان الهند أشهر بلاده ـ واجتمع به فيها سنة تسع وثمانين وتسع مئة ، وأشار إلى ذلك جدّه في بعض قصائده بقوله :

قدومك حافظاً للشمل فاجمع . . . .

فإن عدد (حافظ) كذلك ، ولازم جده في جميع دروسه وأحواله ، واقتدى به في أقواله وأفعاله ؛ فبلغ مالم يبلغه المشايخ الكبار ، وبرع في الفضائل بارعة لا يُشَق لها غبار ، وقرأ عليه في كثير من العلوم عدة شروح ومتون ، وتخرَّج به .

لبسه الخرقة الشريفة :

وألبسه الخرقة الشريفة ، وصافحه المصافحة الشهيرة المنيفة ، وحكَّمه التحكيم التام ، وأذن له في الإلباس والتحكيم الإذن العام ، وجعله وليّ عهده ، والقائم مقامه من بعده ، ثم انتقل جدّه شيخ المذكور سنة تسعين وتسع مئة ، فقام بمنصبهم الكريم أتمّ قيام ، من إطعام الطعام ، والنفع العام للخواص والعوام ، وأنفق ما كان يمونه جدّه من أهل الهند وأهل حضرموت ، وأجرى المواصلة لما كان يواصله جدّه ولو مرة قبل الموت .

ولما سأل عنه والده عبد الله السيد الولي أحمد بن علوي باجحدب . . أجابه بقوله : الذي أعتقده فيه أنه أحسن من أبيه ، فسجد والده شكراً ، وقال : هذا الذي أودّه وأتمناه ، ولا يودّ أحد أن يكون أحد أحسن منه إلا البارّ من بنيه ، ولو كان ذلك الغير أباه ، وناهيك بها شهادة بفضله واعترافاً بسموّ مقداره .

ومما كتبه عمه الشيخ عبد القادر إلى أبيه الشيخ عبد الله رضيَ الله عنهما قوله : يكفيك فخراً يا عبد الله خروج هذا الولد من صلبك!

مؤلفاته :

ومن مؤلفاته كتاب « إيضاح أسرار علوم المقربين » هذا ، ومن وقف عليه . . دلَّه على جلالة قدر مؤلفه ، فهو كتاب نفيس في علوم المعاملة وأسرارها ، فجزاه الله تعالىٰ عن سالكي الطريق خيراً .

تلامذته :

وممن تخرج به : الشيخ جعفر الصادق ، والسيد الجليل عمر باشيبان وغيرهما قدس الله سره ونفع به وبعلومه آمين ، وبعد انتقال والده أجرىٰ

ما كان يجريه والده من نفقة وكسوة وغيرهما ، وكان الوارث لأبيه وجدّه ، وحامل راية المفاخر من بعده ، ثم ارتحل من (أحمد أباد) إلى (بندر سورت) ، واستوطنه ، فاشتهر كل الاشتهار ، وظهر ظهور الشمس في رابعة النهار ، واعتقده أهل تلك الديار ، المسلمون منهم والكفار ، وكان سلطان الهند يعرف قدره ومحله ومكانه ، ويرجحه على سائر أهل زمانه ، وكان مع كثرة مدخوله لا يفي ذلك بنفقته ، وربما زاد عليها ضعفين ، وأكثر ذلك بالدَّين .

نفع الأمة بعلومه وبطريقته :

وكان قطب الشريعة وأساسها ، وقلب الحقيقة ، إذا صلح . . صلحت رؤوسها ، وكانت الطلبة ترحل من الشرق والغرب إليه ، وتتمثل بين يديه ، فشيد دروس العلم بعد درسها ، وأحيا مواتها حتىٰ لاح نور شموسها ، فانتفع به كثير من الطالبين ، المقيمون منهم والوافدون .

زهده وورعه :

وكان مواظباً علىٰ سنة سيد المرسلين ، وطريقة سلفه الصالحين ، وكان من أكابر الزاهدين والعلماء الورعين ، حافظاً للسانه ، موزعاً لأوقاته وأزمانه ، ولا يختلف فيه اثنان .

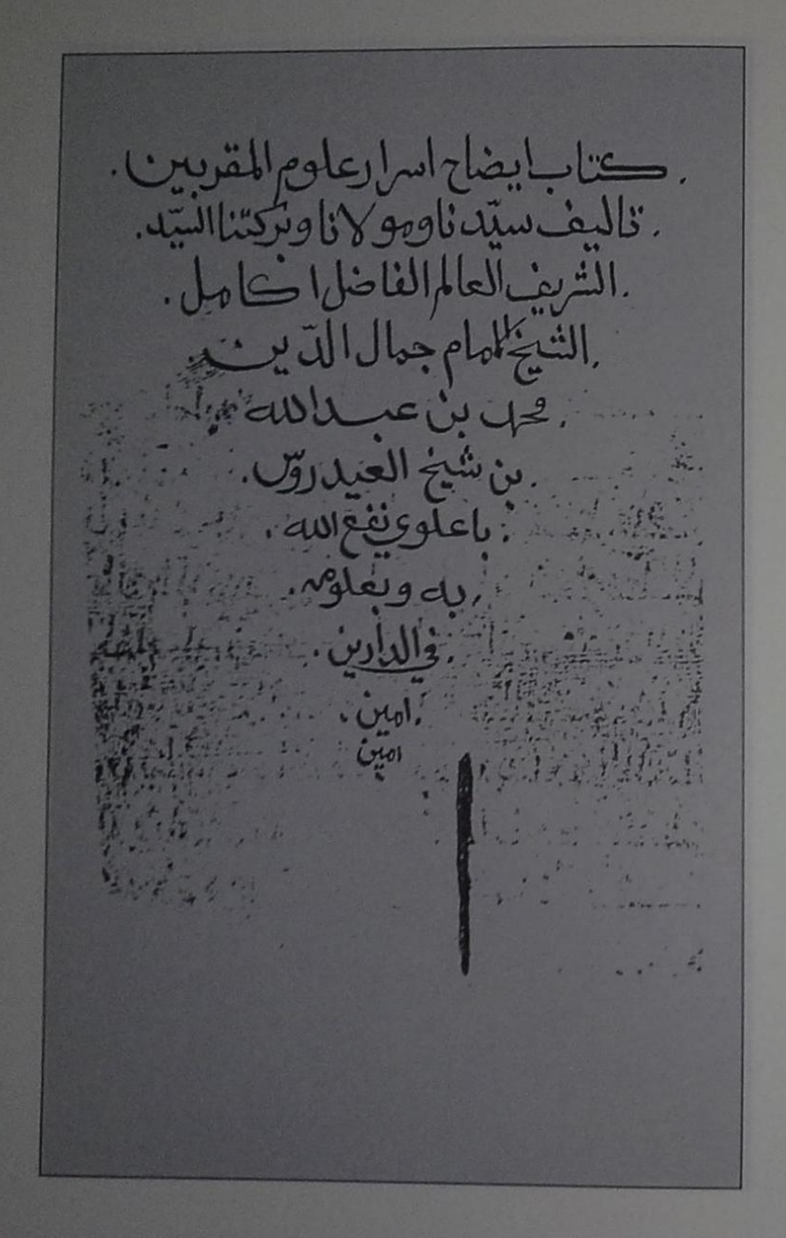
وفاته رضي الله عنه :

توفي إلى رحمة الله سنة إحدىٰ وثلاثين وألف ، يضبطه عدد (لاح بالهند طيباً) سنة (١٠٣١هـ) ، ودفن بـ (بندر سورت) ، وبنىٰ عليه الخواجا زانيق قبة عظيمة ، وبنىٰ عندها مسجداً وبركة ماء ، وأجرىٰ لمن

يقرأ عليه أجرة ، وأوقف علىٰ ذلك ضياعاً وأرضاً ورباعاً ، وقبره فيها
معروف كالشمس في رابعة النهار ، وأشهر من علم علىٰ رأسه نار ، وتأتي
إليه الأنذر من جميع الأقطار ، ومن زاره بحسن نية وسلامة طوية..
أُعطِي سؤله ، ونال مأموله ونواله إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

صورة عينات من المخطوطات
المستعان بها في طبع الكتاب


كتاب ايضاح اسرار علوم المقربين. تاليف سيدنا ومولانا وبركتنا السيد. الشريف العالم الفاضل الكامل. الشيخ الامام جمال الدين. محمد بن عبد الله بن شيخ العيدروس. باعلوي نفع الله به وبعلومه. في الدارين. امين. امين

صورة الغلاف من المخطوطة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد النبي الامي واله وصحبه
وسلم اجمعين اما بعد فهذا كتاب جليل الموقع عزيز الماخذ
الغناء لذوي البصاير والفهوم الذين اهلوا للنظر في حقايق العلوم
وكتابنا هذا مشتمل على ايضاح طريق الحق تعالى المسالك وذكر طرق
من اسرار علوم المقربين ويصلح كتابنا هذا لاصحاب الهمم العاليه
والانفس الفاضله وكنت متوقفا عن تاليفه لكون الوقت لهذا
الفن غير مناسب حتى استنهض عزمي له ما ارجوه من الاجر فيه عسى
يعثر عليه من يناسب حاله فيفهم ما اودعناه هذا الكتاب من الاسرار
العجيبة ولولا الذي قد اختص به كتابنا هذا من العلوم التي قد
استنبطتها فكرتي وقل ان توجد في الكتب لم يكن لتاليفه معنى
لكثرة التصانيف وانتشار العلوم وهذه المعاني كما قيل شعرا

يقول من يطرق اسماعه كم ترك الاول للاخر

ومن كانت له انسة بالكتب وما الفه الناس قبلنا عرف ما اختص به
هذا الكتاب من المعاني الغريبة والعلوم الغامضة والله تعالى ينفع به
ويا جرني فيه بمنه وسعة طوله واعلم ايها الاخ انا قد منحناك في هذا الكتاب

صورة الصفحة الأولى من المخطوطة الأولى

فاجعل كل شيء علمتك تحت التراب عن الحسن رحمه الله قال وضع دين الله دون الغلو وفوق التقصير
عن اسما بنت عيسى رضي الله عنها قالت علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات اقولهن عند الكرب
الله الله ربي لا اشرك به شيا عن سفيان رحمه الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار قال ابو حازم ان الرجل ليعمل الذنب ما عمل حسنة
قط اضر عليه منها عن الحسن ان ابا الدردا كان يقول اكثروا من الدعا فانه من يكثر قرع الباب
اوشك ان يفتح له عن عايشة رضي الله عنها قالت لا تديموا اكل اللحم فان له ضراوة كضراوة
الخمر عن داود قال قال الياس بن معاوية من لم يعرف عيب نفسه فهو احمق قيل له ما عيبك
يا ابا واثلة قال كثرة الكلام عن سفيان عن شيخ من الانصار قال اذا احببت رجلا في الله عز
وجل ثم احدث فلم ابغضه فلم اكن احببته في الله عز وجل عن سفيان ان الحسن كان يقول
ان قوما شمروا ثيابهم ثم وضعوا الكبر في قلوبهم فبلغى لاحدهم في كسايه اشد فخرا من صاحب
المطرف في مطرفه وعن ميمون بن مهران قال كان المهاجرون اذا راوا الرجل راكبا يمشي
[illegible]
بن قيس رضي الله عنه هذه اداب وحكم قد اودعناها هذا الكتاب هدينا لك
سبيلها [illegible]
وتقرب الى مولاك بمحاسن مراضيه تفتح لك ابواب الخيرات وتذوق لذة المعاملة [illegible]
تقويمك وتسديدك انه ولي عباده الصالحين واوليايه المقربين والحمد لله
رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد النبي الامي واله وصحبه اجمعين وسلم
تسليما كثيرا طيبا مباركا الى يوم
[illegible] الدين

صورة الصفحة الأخيرة من المخطوطة الأولى

كتاب
إيضاح أسرار علوم المقربين للإمام
سيدنا عبد الله الحداد [illegible] نفعنا الله به
آمين.

صورة الغلاف من المخطوطة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين
وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وآله وصحبه أجمعين
أما بعد فهذا كتاب جليل الموقع عزيز المأخذ لقناة
لذوي البصائر والفهوم الذين أقبلوا للنظر في دقائق
العلوم وكتابنا هذا يشتمل على إيضاح طريق الحق
للسالك وذكر طرف من أسرار علوم المقربين ويصلح
كتابنا هذا لأصحاب الهمم العالية والأنفس الفاضلة

وكنت متوقفا عن تأليفه لكون الوقت لهذا الفن غير مناسب حتى استنهض
عزمي إليه ما أرجوه من الأجر فيه عسى أن يعثر عليه من يناسب حاله
فيفهم ما أودعناه هذا الكتاب من الأسرار العجيبة ولولا الذي قد اختص
به كتابنا هذا من العلوم التي قد استنبطها فكري قبل أن توجد في الكتب
لم يكن لتأليفه معنى لكثرة التصانيف وانتشار العلوم وهذه المعاني كما قيل
شعر يقول من تطرق أسماعه كم ترك الأول للآخر ومن كانت له
أنسة بالكتب وما ألفه الناس قبلنا عرف ما اختص به هذا الكتاب
من المعاني الغريبة والعلوم الغامضة والله تعالى ينفع به وأجرني فيه
بمنه.

صورة الصفحة الأولى من المخطوطة الثانية

كتاب ايضاح اسرار علوم المقربين
لسيد الشيخ العارف بالله
بحر العلوم والاسرار والمعارف
الشيخ محمد بن الشيخ عبدالله
العيدروس نفع الله
به امين اللهم
آمين

صورة الصفحة الأخيرة من المخطوطة الثانية

الله جارا وان اول من مشى معه الرجال وهو راكب
الاشعث بن قيس هذه اداب وحكم اودعناها
هذا الكتاب هديناك سبلها وكشفنا لك
مكنونها فكن زاهدا في العمل بها وعليك بالصدق
والنصيحة وتقرب الى مولاك بمحاسن مواهبه
يفتح لك ابواب الخيرات وتذق لذة المعاملة
ويتولى تقويمك وتسديدك الله ولي عباده
الصالحين واوليائه المقربين والحمد لله رب العالمين
وصلى الله على سيدنا محمد النبي الامي وآله وصحبه
وسلم تمت هذا الكتاب في شهر ربيع الثاني
اربع عشر يوم الجمعة سنة ١٣٢١ في بندر سورباير

صورة الغلاف من المخطوطة الثالثة

عيس رضي الله عنها قال علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات
اقولهن عند الكرب الله الله ربي لا اشرك به شيا عن سفيان رحمه الله
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كذب علي متعمداً فليتبوأ
مقعده من النار وقال ابو حازم ان الرجل ليعمل الذنب ما عمل حسنة قط
اضر عليه منها عن الحسن رحمه الله ان ابا الدردا كان يقول اكثروا
من الدعا فانه من يكثر قرع الباب اوشك ان يفتح له عن عايشة رضي الله عنها
قالت لا تدمنوا اكل اللحم فان له ضراوة كضراوة الخمر عن داود قال
قال اياس بن معاوية من لم يعرف عيب نفسه فهو احمق قيل له ما عيبك
يا ابا وايلة قال كثرة الكلام عن سفيان عن شيخ من الانصار
قال اذا احببت رجلا في الله عز وجل ثم احدث فلم ابغضه فلم اكن احببته
في الله عز وجل عن سفيان ان الحسن كان يقول ان قوماً شمروا [illegible]
ووضعوا الكبر في قلوبهم فيلقى احدهم في كسايه اشد فخراً من صاحب
المطرف في مطرفه وعن ميمون بن مهران قال كان المهاجرون اذا راوا
الرجل راكباً يمشي معه الرجال قالوا قاتله الله من جبار وان اول من مشى
معه الرجال وهو راكب الاشعث بن قيس هذه اداب وحكم قد اودعناها
هذا الكتاب هدينا لك سبلها وكشفنا لك مكنونها فكن ذا همة في العمل بها وعليك
بالصدق والتصميم وتقرب الى مولاك بمحاسن مراضيه يفتح لك ابواب الخيرات
وتذوق لذة المعاملة ويتولى تقويمك وتسديدك انه ولي عباده الصالحين
واوليائه المقربين والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله وصحبه اجمعين تم كتاب ايضاح
اسرار علوم المقربين بحمد الله وعونه وحسن توفيقه وذلك ضحى يوم الخميس [illegible] من شهر القعدة سنة ١٢٥٩
بقلم افقر العباد احمد بن عبد الرحمن بن احمد بن محمد الزاهر بن احمد [illegible] علوي

صورة الصفحة الأخيرة من المخطوطة الثالثة

إيضاح أسرار علوم المقربين

تأليف

السيد الشريف الإمام

جمال الدين محمد بن عبد الله بن شيخ العيدروس باعلوي

رحمه الله تعالى

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَبِهِ نَسْتَعِينُ عَلَى أُمُورِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد النبيِّ الأميِّ وآلهِ وصحبه وسلّم أجمعين .

[أما بعد] : فهذا كتاب جليل الموقع ، عزيز المأخذ ، أَلَّفناه لذوي البصائر والفهوم ، الذين أُهِّلوا للنظر في دقائق العلوم ، وكتابُنا هذا يشتمل علىٰ إيضاح طريق الحق للسالكين ، وذِكْرِ طرفٍ من أسرار علوم المقربين ، ويصلُح كتابُنا هذا لأصحاب الهِمَم العالية ، والأنفس الفاضلة ، وكنتُ متوقفاً عن تأليفه ؛ لكون الوقت لهذا الفن غير مناسب ، حتى استَنْهَضَ عزمي له إلىٰ ما أرجوه من الأجر فيه ، عسىٰ أن يَعثُرَ عليه مَن يناسب حالَهُ فيفهمَ ما أودعناه هذا الكتاب من الأسرار العجيبة ، ولولا الذي قد اختُص به كتابنا هذا من العلوم التي قد استنبطها فكري قبل أن توجد في الكتب . . لم يكن لتأليفهِ معنىٰ ؛ لكثرة التصانيف ، وانتشار العلوم ، وهذه المعاني كما قيل :

يقولُ مَن يطرقُ أسماعَهُ ... كَمْ تركَ الأوَّلُ للآخِرِ

ومن كانت له أُنسة بالكتب ، وما أَلِفَه الناسُ قبلنا . . عَرَف ما اختُص به هذا الكتَاب من المعاني الغريبة ، والعلوم الغامضة ، والله تعالىٰ ينفع به ، ويأْجُرُني فيه بمنِّهِ وسَعةِ طَوْله .

واعلم أيها الأخ : أنَّا قد مَنَحناك في هذا الكتابِ عُلوماً يجبُ التنبُّهُ لها ، والإصغاءُ إليها ، وإذا وُفِّقتَ لِفَهمِ هذه الأسرارِ التي أوردناها . . أرشَدَتكَ إلى الطريقِ الدينيةِ والمصالحِ الدنيويةِ ، لأن كتابَنا هذا مؤسَّسٌ من أسرارِ الحقِّ تعالىٰ علىٰ ما قَضَتْ به العقولُ السليمةُ والآراءُ الصائبةُ ، ومتىٰ وُفِّقَ العبدُ للمعاملة بشيءٍ من هذه الأسرارِ التي قد أورَدْناها . . وجدَ في نفسهِ زيادةَ رغبةٍ وانشراحاً ، ومتىٰ تَمكَّنَ العبدُ أن ينظُرَ بالعقلِ ويَسْلَمَ مِنَ الهوىٰ . . بانَتْ له الأمورُ علىٰ حقائقِها ، ولكنَّ ذلك عزيزٌ ؛ لِغلبةِ الأهواءِ على الأنفُسِ واستيلائِها عليها ، فالتخلُّصُ من الهوىٰ عَسيرٌ جداً ، ولكنْ قد لا يُحِسُّ به الإنسانُ ؛ لخَفائه وغُموضِهِ ، ولا يتمكَّنُ مِن فَهمِ ذلك مِن نفسهِ إلاّ الأبطالُ أصحابُ العقولِ الراجحةِ ؛ لأنَّ الأهواءَ غذاءُ الأنفُسِ ، والأنفُسُ متشبِّثةٌ بها فيَعسُرُ خَلاصُها منها ، فجانبِ الهوىٰ ونزِّهْ نفسك عنه ؛ فإنه يَشِينُك في دينِك ومروءَتك كما قيل :

إذا أنت تابعتَ الهوىٰ قادكَ الهوىٰ إلىٰ كلِّ ما فيهِ عليكَ مقالُ

فإذا نظرتَ في الأشياء وميَّزتَها . . وجدت الهوىٰ أَصْلَ كُلِّ فتنةٍ وبليةٍ على اختلاف أحواله ؛ لأنه مصدرُ الأباطيلِ ، ومنشأُ الأضاليلِ ، وله حالةٌ شبيهةٌ بالسُّكْرِ تعتري الإنسانَ فتمنعه من التمييز ؛ لِمَا قد غَلَبَ علىٰ عقله من نشوَةِ الهوىٰ ، فلْيَتنبَّه له الفَطِنُ ؛ ليَحسُم مادته بمجاهدةٍ ومخالفةٍ .

حقيقةُ الهوىٰ : هو المَيْل إلى الباطِل ، وهو خُلُق النفسِ وسجيتُها ، فجميع ما تميل إليه الأنفسُ من الأباطيلِ فهو الهوىٰ ، وهو علىٰ قسمين :

أحدُ القسمين : ما يَرِدُ على الإنسان من دواعي الشهواتِ كنَحْوِ ما تميلُ إليه النفسُ من هذه الأشياء التي تخلبها[1] وتقهَرها ، ويتهالك

(1) الخلابة : بمعنى السلب والخديعة .

الناس في طلبها من شهوات الأنفُسِ ، وهي أمورٌ مسترذلة مستقبحة ، تشرف أنفسُ ذوي المروءات عنها ؛ حِفظاً لأديانهم ، وتنزيهاً لمروءاتهم ، وصيانةً لأعراضهم ، ومراعاة لعقولهم ، فالعقلاء يَثبتون عند خلابة الأهواء[1] ومنازعة الأنفس ؛ رصانةً وتوقُّراً ونظراً في العواقب ، وأرباب العقول السخيفة والأنفس الضعيفة تقهرهم أنفسهم ، ويعجَزون عن ضبطها ، فتلقيهم أهواؤهم في القبائح والفضائح ، ولعِمَىٰ قلوبهم واستغراقهم في سُكر الهوىٰ لا يحسّون بقبحِ ما يأتونه .

القسم الثاني من الهوىٰ ـ وهو أَردأُ القسمين ـ : وهو ما يعتري الإنسان من الهوىٰ عند الغضب ، فإن تلك الحالة نوع من الهوىٰ أيضاً ، وهذا الهوىٰ ربما كان أشد من الهوى الذي يعتري الإنسان عند دواعي الشهوات ، لأن هذا الهوى الذي يَرِدُ على النفس عند الغضب هوىً قاهر صعبُ المداراة ، لا يثبت له إلا الأبطال أصحاب العقول السليمة[2] .

ومن الهوى أيضاً : ما يعتري الإنسان عند الكِبْرِ والبذخ ، وهذا أيضاً رديءٌ مفسد للدين محبط للأعمال ، إلاّ أن هذا الهوىٰ دون الهوى الذي ينشأ عند الغضب ؛ لأن الهوى الوارد مع الغضب يزلزل النفس ، ويزول معه التمييز ، ويعتري النفس معه الطيش والرعونة ، وهذا أشد الأهواء فاعلم .

وكل هذا التبيان الذي تقدّم ذكره توطئة لحالةٍ أذكرها لك ، وهو أن الخُلَّصَ من الأبدال إنما نالوا المنزلة ، عند ربهم بمجانبة الهوىٰ أصلاً ؛ إذ لا شيء من أقسام الهوىٰ يخرج عن قسم الباطل ، فأصحاب الحق

(1) في نسخة : (غلبة الهوىٰ) .
(2) في نسخة : (الرصينة) .

تعالىٰ ملتزمون بالحق ، والحق مجانب الباطل ، وأصحاب الحق يعلمون يقيناً أنهم متىٰ قاربوا شيئاً من الهوىٰ . . بعدوا عن الحق تعالىٰ بحسب ذلك ، فشأنهم أخذ الضرورة من الأشياء ، وما زاد عن الضرورة . . فهو عندهم من قسم الهوىٰ ، يجري ذلك في الأكل والنوم والكلام ونحوها ، وكذا يحفظون أنفسهم عن الأخلاق الخاصة بالرب تعالىٰ كالتجبر والتكبر ، فليس لأحد من العباد أن يقارب شيئاً منها ، وإن كان ذا سلطان ومقدرة .

أما الغضب . . فهو بلية عامّة شاملة للبشر ، قلَّ أن يخلو أحد منه ، فقد يعتري الإنسانَ ويغلب عليه ، لكن الإنسان مأمور بمجاهدة نفسه عند الغضب ؛ وليس له أن يبطش عند الغضب ؛ فإن ذلك شأن الجبارين ، وقد رُوِيَ أن الرب تعالىٰ قال في خطابه لموسىٰ عليه السلام : ما خلقت خلقاً ينازعني في ملكي غير النفس ، فإن أردتَ رضائي . . فخالفها .

فالهوىٰ بلية عظيمة ابتلى الله تعالىٰ بها خلقه كما شاء ، فهو مخلوق في جبلة الإنسان ، والإنسانُ مقهور له مبتلىً به ، وهو مع ذلك مأمور بمجاهدته والتخلص منه ، هذا على قدر ضعف الإنسان وتسلط الهوىٰ عليه ، فما يستطيع الخلاص من حبائل هذه الفتن إلاّ من عصمه الله تعالى برحمته ، وطائفة من رجال الحق تعالىٰ قد بالغوا في المجاهدات ، فآثروا بضروراتهم ، كما يُحكَىٰ عن بعضهم أنه اشتهىٰ علىٰ أهله ثريدةً ، فلمّا أُحضرت عند إفطاره . . قال : احملوها إلى أيتام فلان ، فآثرهم بها عند الاضطرار لله تعالى .

وكذا مَنْ جاهد نفسه عند الغضب وقد أمكنتهُ القدرة ، فيذكر الله تعالىٰ ، فيؤثره علىٰ هواه معاملةً مع الله تعالىٰ ، فهذه أبلغ الأعمال ، وهي الأعمال التي تخرق الحجب ، وتوصل العبد إلىٰ ربه بسرعة ، فمن أحب

التقرّب إلى الله تعالىٰ . . فلْيؤثره علىٰ نفسه ، ولْيعامله بالفاني اليسير ؛ ليعوّضه عن ذلك بالباقي النفيس ، فإنَّ الربَّ عزَّ وجلَّ يُحِب من العبد أن يؤثره على نفسه ، فالعبد إذا فعل ذلك . . فقد قام مقام العبودية بالحقيقة .

وهذا المقام هو مطلوب الأبدال وعمدة الخُلَّص من الرجال ، حيث لا يبقى للعبد مع ربه إرادة ، فهذا هو العبد حقيقة ، فاعلم واحذر دواخل الهوىٰ ؛ فإنها خفية التعلق بالقلوب ، قد تكون في العابد وهو لا يحسُّ بها ، وقد تُفسد عليه عملَه وهو لا يدري ، وكذا صاحب العلم إن لم يستيقظ لنفسه ، وإلاَّ . . غلب عليه هواه فخبطه وأضله .

والهوى سرّ عجيب ، وهو فنون شتّىٰ ، فمنه شيء يعلق بالإنسان فيُكسبه حالة شبيهة بالجنون ، فترىٰ من هؤلاء المشايخ الشحاح المسنين قد أُغروا بجمع المال ، فترىٰ أحدهم كالمجنون فيما يحاوله ، لأنه يأتي أشياء مستقبحة تُذهِب دينه ومرءته ، ويصير أحدوثة بين الناس وهو لا يحس بذلك ؛ لِمَا قد أسكره من نشوة الهوىٰ .

وكذا هؤلاء الذين يُغَرّون بالصور الحسان وشأنهم التعشق ، وهذا يتولد عليهم من الفراغ ورخاوة النفس ، فقد تَعرِضُ لأحدهم في عشقِهِ حالة تشبه الجنون ، يزول معها تمييزه ، ويفسد معها رأيه فيأتي القبائح ، وهو لا يحسها ؛ لما قد غلب عليه من نشوة الهوى ، فهو كما قيل :

. . . . غطى هواكِ وما ألقىٰ على بصري

نعوذ بالله من مضرة هذه الأمور .

واعلم : أن لهذه الحالة سلطاناً على النفس . . يقهر الأنفس الدَّمثة الضعيفة ، وليس لها سلطان على الأنفس الخصيفة العالية ، وما أحسن ما قيل في هذا المعنى :

إنّـا إذا مـالـت دواعـي الهـوى ... وأنصـت السـامـع للقـائـل

واصطـرع القـوم بـألبـابهـم ... نقضـي بحكـمٍ فـاصـل عـادل

لا نجعـل البـاطـل حقـاً ولا ... نلـظ[1] دون الحـق بـالبـاطـل

نخـاف أن تَسفُـهَ أحـلامنـا ... فنخمُـل الـدهـرَ مـع الخـامـل

والغُلوُّ أيضاً محسوب من قسم الهوى ، وهو قسم رديء ؛ لأنه يتعلق بالأديان فيدنسها ويوحشها ، ويعتري أرباب الغلوّ في الدين نوع طيش فيما يحاولونه من تديُّنهم ؛ فيصير شأنهم الخصام والجدال في الدين ، ويصير دأبهم التعصب والبغض لمن خالفهم في مذهبهم ، ويصير تدين أحدهم التطلع إلى معايب الناس والانتقاص لهم ، والإزراء بهم ، وهذا طريق رديء جداً ، متلف لدين العبد ، ينبغي أن يحذره أشدّ الحذر .

فهؤلاء الغلاة يفرّطون في تعظيم أئمتهم ، ويتهالكون في حبهم ، فيَخرُجون إلى الأمر المنهي عنه ، إذ المأمور به في محبة الأئمة وأهل الدين التوسط ، وترك الغلوّ ، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لا يكن حبُّك كلفاً ، ولا بغضُك تلفاً ، وقال النبيُّ صلّى الله عليه وسلم : « لا تُطـرونـي كمـا أطـرت النصـارى المسيـحَ ابـن مـريـم » ، وقـال علي رضي الله عنه : عليكم بالنمط الأوسط ، يتبعهم التالي ، ويرجع إليهم الغالي .

فعليك أيها الأخ بطريق الخواص ، ودع عنك أمر العموم ؛ إذ ليس في أيدي أكثرهم إلا الرسوم والعادات ، فقصارى أمورهم مراعاة صور الأعمال ، مع إهمال التلمح لأسرارها ، وأما العارفون . . فإنهم معتنون بأسرار الطاعات ومحاسن العبادات ، وأصحاب الحق تعالى هم ذوو

---

(١) في نسخة : (نَلُظُّ) .

العقول التامة والصدور السليمة ، فبالعقول تتبين مراتب الرجال ، وبصحة النظر تتفاوت طبقات العمال .

أصل هذا ما روت عائشة رضي الله عنها : (أن رسول الله ﷺ كان إذا بلغه اجتهادُ رجل . . سأل كيف عقله) .

* * *

فصل ١

واعلم : أن هذا الكتاب مأخوذ بالحقيقة من محاسن معاني السنة ، ودقائق حكم الشريعة ، فهو علم العارفين ، وفقه السالكين أرباب المجاهدات والأعمال ، لا أبناء قيل وقال ، فشأن العارفين الاستنان بالصدر الأول من الصحابة والتابعين ، وعقائدهم عقائد السلف الماضين ، لا انحراف لهم عن سننهم ، ولا مخالفة لهم عن أنحائهم ومقاصدهم ، فالزم السُّنن ، وعض عليها بالنواجذ ، وجانب البدع ، واهجر أهلها ترشد إن شاء الله تعالى .

* * *

مقدمة الكتاب

الفطِنُ ذو التمييز الذي يُحكم أعماله إحكاماً لتستقيم أموره ، وتنصلح شؤونه ، فأوّل ما ينبغي للعبد أن يُعنىٰ به في سلوكه تزكية نفسه وتهذيبها ، وتهذيب أخلاقه ؛ لِكونِ هذا عند السالك مقدَّماً على الإكثار من نوافل العبادات من صلاة وصيامٍ ونحوهما ؛ إذ لا ينبغي للعبد أن يتوجه إلى الله تعالى بقلب دنِسٍ ، ونفسٍ غير زكية ، فإنه يُتعب نفسه في أمور ربما كان عاقبتها أن يرجع القهقرى ؛ لأن الإنسان إذا لم يكن على بصيرة في أموره . . أوشك أن يتحير ، فربما أدّت به الحال إلى الانحطاط والانعكاس .

فينبغي للإنسان أن يراعي سرَّه ، ولا يزال محافظاً على وقته ، فلا يترك قلبه شارداً خالياً عن فِكْرٍ يستخرج به المعارف والعلوم ، وكذا لا يُخلي فعلاً من أفعاله عن نية صادقة ؛ فإن النية روح العمل ، والقلب إذا خلا عن الفكر المستنبطة والنيات الصالحة . . يصير شِبْهُهُ شِبْهَ الدابة الشاردة ، فيصير دأب الإنسان إذ ذاك إضاعة زمانه في البطالة ، ويستَرْوِح إلى مكاثرة ذوي الجهالة ؛ فيتولد عند الإنسان من ذلك أحوال سيئة ، وأخلاق ذميمة . فلينتبه العاقل لذلك ، وليُعن بمراعاة قلبه .

واعلم : أن أعلىٰ أحوال القلوب هو دوام اتصالها بالرب تعالى ، فهذا هو أساس الأعمال ، ومنبع صالح الأحوال .

فعمارة الباطن هو تعلق السر بالله تعالى ، وخرابه دوام غفلته عن الله تعالى ، فإذا غلب على القلب اتصاله بالرب تعالى . . تيسرت على صاحبه أنواع القربات وفنون الطاعات .

واعلم : أن القلب شبهه شبه المرآة ينتقش فيه كل ما يقابله ، فينبغي للإنسان أن يحفظ قلبه كحفظه سواد عينه ، فليجانب العبد المتخصص مقاربة اللئام والسفهاء وأصحاب الشرور ؛ فإن أحوالهم تؤثر في القلب ، وتُطفِىءُ نور بصيرته .

وينبغي لطالب الحق أن يقصد الأشياء التي تُصلِح قلبه ؛ فإن لصلاح القلب أسباباً ، وذلك بإدامة الفكر المستخرِج للحِكَم والأسرار ، وبالإكثار من الذكر يتوطَّن عليه القلب واللسان ، وكذا الهيئات الظاهرة من الزيّ والملبس والمطعم والكلام وسائر الأحوال الظاهرة تؤثر في القلب تأثيراً بيناً ، فلا ينبغي لطالب الحق أن يُهمل شيئاً من أحوال قلبه ، فأنت أيها الأخ إذا أحكمت أمور سلوكك . . بَنَيْتَ على أساس ، وثَبَتَتْ قواعد أعمالك ، فسِرْتَ على هداية ، فلا تزال في سلوكك متزايد الحال ، كلما أتى عليك يوم . . رأيت فيه الزيادة والانتعاش .

وهؤلاء الذين يتخبطون في سلوكهم ، ما سببه إلا إهمالهم قواعد السلوك ، وإغفال الترتيب في المعاملات .

فمن أراد الإقبال على الله تعالى . . فليرتب أعماله ترتيباً ، فليبدأ أوّلاً بالزهد في هذه الدنيا الدنيئة ، ومعنى الزهد : هو التقلل من الأشياء ، وتعلق الزهد بالباطن أكثر من تعلقه بالظاهر ؛ إذ هو قلة الرغبة في الأشياء ، وترك فضولها .

والأصل المعتبر لمن أراد التبتل وحسنَ المعاملة أن يتقلل من المطعم ، ويهجر الشهوات ، ويلازم الخلوة ، ويراعي أحوال قلبه ، فينقِّيه من الوساوس والأخلاق الرديئة ، ثم ليعلِّق قلبه بربه تعالى ، ويجتهد أن يكون حاضر القلب ، لا يغفل عنه طرفة عين ، فهذا أصل السلوك فاعرفه .

ثم ليحذر العبد كل الحذر أن يطمح نظره ، أن ينازع شيئاً من صفات الربوبية كبراً وتجبراً واستطالة على الناس ، فما على الخلق أضر من إهمالهم تمييز حال العبودية عن التساهل في الدخول في شيء من صفات الربوبية ، فلا ينبغي للعبد أن يهوِّن في هذا الأمر ؛ فإنه أصل عظيم ، وهو طريق الخُلَّص من أصحاب الحق تعالى ، فذوو التوفيق لصحة تمييزهم وحسنِ أدبهم مع ربهم يُشفقون أن يقاربوا شيئاً مما اختص به الرب تعالى ؛ لعلمهم أن المولى يحب أن يستبد على خلقه ، وأن يَبِينَ أثر ربوبيته عليهم رفعة وعلواً وتعاظماً وربوبية ، فإذا رام العبدُ في سلوكه الرفعة والعلوّ على الناس ، فأي مزية تبقى للرب على المربوب؟

ومن هٰهنا يقع الغلط لكثير من الناس من سالكي زماننا ؛ حيث أخذوا أمورهم في سلوكهم بالترفع على الناس في العلو على العباد ، والدخول في أمور تشبه أحوال الجبابرة ، ومع ذلك يدَّعون الزهد والتشبه بأحوال الصالحين ، فيتخبَّطون في سلوكهم ، وتفسد أعمالهم من حيث لا يشعرون ، فتلمَّح أيها الأخ هذا السر فإنه أساس طريق الحق تعالى .

رُوي أن الرب تعالى أنزل في بعض الكتب : تفرد الله بالكمال ، وقضى لغيره بالنقصان ، فالعلوّ خاص لله الواحد القهار ، ليس لأحد سبيل إلى شيء منه ، فأنت أيُها الأخ واحد من العباد . . . فإن كنت ذا فضيلة . . فأولىٰ فضائلك أن تعرف قدر نفسك ، وتحل محلك الذي أنزلك به مولاك ، فلْيعتنِ الإنسان بإصلاح نفسه ، وليطرح ما قاله الناس ، فانظر أيُها الأخ إلى أحوال السالكين ذوي المعارف والهمم فاتبعها .

حُكي لنا أن بعض المشايخ المسلِّكين كان إذا أتاه أبناء الأكابر من الشباب الذين يؤثرون الزهد والانقطاع . . أول ما يأمرهم به التعرّض بالكسب من الحمل مع الناس على رؤوسهم في الأسواق ، مثل قدور

الطباخين ، وحزم الحطب ، يأمرهم الشيخ المسلِّك أن يلازموا ذلك برهة ، ويقول لهم : يا بَنِيَّ إنَّ نفوسكم العزيزة لا تصلح للحق تعالى إلاَّ بعد التطهير بنحو هذه المهن ؛ فتصلح نفوسكم بهذه ما لا تصلح بنوافل العبادات ، فإن أردتم الطريق . . فعليكم بهذه الأمور التي تقيمكم مقام صريح العبودية ؛ لأنَّ نفوسكم عزيزة صعبة قد اعتادت العلو والرفعة ، فلا تؤثر فيها الطاعات حتى تذل وتنكسر .

فلا شيء أنفع للإنسان من أن يدرِّب نفسه على الذل ، ويجرعها غصصه ؛ لأن حقيقة الذل لازمة للإنسان لزوماً بيناً ، قال عليُّ بن الحسين زين العابدين رضي الله عنهما : ما أحب أن لي بنصيبي من الذل حمر النعم! وقال علي رضي الله عنه : تجرَّع الغصص ؛ فإني لم أر جرعة أحلى منه عاقبة ، ولا ألذ مغبة!

وأما هذه الأشياء العارضة للإنسان مثل رفعة قدر ، وعلو رتبة . . فذلك شيء لا أصل له ، وهو شبيه بالصبغة الحائلة .

والتواضع هو الفضيلة المتعارفة بين الناس ، فاحذر أيها الأخ الفطن أن تستولي عليك العزة والعادة الباطلة فتعجزك النفس المتوقِّفة في الأشياء ، الحَرون عن العمل بما قدّمنا في هذا الفصل ؛ فيفوتك حظك من الفضيلة بالحقيقة التي تبقى عليك ، وتوصلك إلى مولاك ، ويصعب في نظرك ترك قدرك من وهم لا حقيقة له ، يشاركك فيه كثير من ذوي النقائص ؛ فإن ضعفتَ وعظم في نظرك سقوط منزلتك . . فانظر إلى من هو أعلى قدراً منك من الهداة المهتدين ، وما يؤثر عنهم من التهوين في نفوسهم ؛ فإن ذلك يشجعك على اقتفاء مسالكهم ، وقد قال بعض العارفين : من رأى لنفسه قدراً . . فلا قدر له .

واعلم أيُها الأخ : أنه لا شيء أنفع لك من النظر في هذا الباب من

التهوين في القدر والمنزلة ؛ فإنه يريحك من أشياء متعبة وأهواس مضرة قد قيدك بها العرف الفاسد ، فمن تأمل هذا الفصل ، وأُعِين على العمل بشيء مما فيه . . فقد أراح واستراح ، وكُفِي مُؤَناً كثيرة لا حاصل لها سوى ضياع العمر في طلب أمور إذا حصلت له . . وجدها لا شيء ، فكان عاقبة أمره ندماً وحزناً على فائت العمر ، فمثله كمثل العطشان الذي يتعب نفسه في طلب السراب يظنه ماءً ، حتى إذا جاءه . . لم يجده شيئاً .

فالعاقل الذي يقدّم الفكر في أموره ، فلا يبني إلاَّ على أساس ليَحمَد عاقبة أمره ، وصاحب العزة لا يشعر بنفسه إلاَّ بعد خروج الحبل من يده ، فيندم حين لا ينفعه الندم .

فعليك أيُها الأخ بالجد والاجتهاد ؛ لأن الرياضة تنجع في الأشياء إما وصولاً أو مقاربة ، فانظر إلى هذا التسليك الذي تقدّم ذكره ما أصعبه ، ولكنه نافع ؛ إِذِ المشاق تُنتِج الرغائب ، وإذا أحكمت النظر في هذا الفصل ، وفطنت لأمراض نفسك ، وعنيت في مداواتها . . . فعند ذلك تأمَّل ما في هذا الكتاب من العلوم النافعة ، فاجتهد في العمل بها ، واسمعْ وتعلَّمْ ، وكن ذا همة ، فهذه الطريقة شأن الأبطال من سالكي طريق الحق تعالى .

فالمكاسب على قدر المخاطرات ، فمن خاطر بنفيسٍ . . مَلَكَ نفيساً ، ومَن هوَّن في معاملاته ، وأهمل حسن الاستعداد فيما يقرّبه إلى ربه عز وجل . . كان كمن أهدى إلى المَلِك حَشَفاً ؛ فإنه يندم إذا قُدِّمت هديته بين يدي المَلِك ، ويؤول سعيه إلى الخيبة .

فانتبه لنفسك أيُها الأخ ، واسْمُ بنفسك إلى معاليْ الأمور ، وجانب طريق العجزة أصحاب الدعاوى ، ثم تجنب أيُها الأخ الأحوال الذميمة التي يحاولها أصحاب العيوب والنقائص والدناءات المبهرجة ، والأمورَ

الفاضحة كالرقص والتصفيق ، ومن الدناءات والأمور المسترذلة التي يضعها أهل البطالة مواضع القُرَب كالرقص والتصفيق والتساكر حالة الطرب ، والصياح بين الناس ، والتبذل بين الجمع ، فهذه أحوال تدنس المروءة ، وتذهب الحياء ، وتزيل الوقار عن الإنسان .

قال الله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ أي : بالوقار والسكينة ، فأين الوقار والسكينة من هذه الأمور المستحدثة؟!

وصن مروءتك عما يشينها ؛ فصون المروءة أصل عظيم في الدِّين ، فقد قيل للأحنف بن قيس رضي الله عنه : بم نلت المروءة؟ فقال : لو عاب قومي الماء البارد ما شربته! فاعلم واعمل . . تُصِبْ بعون الله تعالى ومشيئته .

* * *

فصل

فأوّل ما ينبغي أن نبدأ به التنبيه على آداب الخطاب .

اعلم أيُّها الأخ : أن ذوي العقول لا يقدمون على فعل إلاّ بعد الروية التامة ، والفكر الصحيح ، فلا يخلُوَنَّ شيءٌ من أعظم أعمالهم عن قصد ونظر ، عبادة كان ذلك أو غيرها ، فلا يفعلون شيئاً عبثاً ولا عادة ، ويؤسسون أعمالهم على المقاصد الصالحة لا سيما في الكلام ؛ فإن له أسراراً لطيفة ، وحِكماً عجيبة ينبغي لذوي العقول والأفهام أن يتفطنوا لها .

فينبغي للإنسان أن يُعمِل الرأي قبل الكلام ، فيجعل لسانه من وراء قلبه ، فلا يقل شيئاً حتى يزنه بميزان العقل ، فإذا وفق العبد لفهم هذا . . كان هذا مبدأ أمره صلاحاً ، وآخره نجاحاً ، وليرفق الإنسان في كلامه ، ولا يكثر من الكلام وإن كان حسناً ؛ فإن الشيء إذا أُكْثِرَ منه . . سمُج ، وكذا لا يكون مهذاراً ولا صخاباً .

وليقطع الكلام والنفوس تستحليه قبل أن تمجه الأسماع .

والذي ينبغي للإنسان أن يراعيه ولا يغفل عنه أن لا يتكلم بشيء لا فائدة فيه ، كالأشياء القَبَلِيَّة المنقضية التي لا يتعلق بذكرها غرض مطلوب ، وأهل المعرفة يسمّون هذا النحو من الكلام (الكلام الميت) ، وإنَّما يتفانىٰ في هذا أهل الغفلة وأصحاب العقول الضعيفة ، إنما حسب الإنسان من الكلام ما تمس الحاجة إليه ، ومنه قيل : نصر الخطأِ خطآن ، والكلام في الماضي تضييع زمان ، ويَجتنِب من الكلام ما يحرك النفوس

ويثير الشرور ؛ فإن النفوس تطالع النفوس ، وبعضها يحسّ بأحوال البعض ، فمتى صدر عن الإنسان كلام ظاهره حسن لكنه عن نفس ثائرة ودخيلة سيئة . . حرّك نفس المحاذي وأثار شرها .

واعلم : أن الأهواء تحرّك الأهواء ، وتثير شرها ، فالأهواء كامنة في الأنفس كمون النار في الزناد ، إذا قابلت هواء محركاً . . تحركت ، فقد يكون الإنسان قارّاً ساكناً حتى يقابله صاحب هوىً فيتحرك هواه ، وكذا يتنزل الكلام من باطن المخاطب على قدر أحوال الباطن سكوناً وانزعاجاً ؛ لتعلق أحوال الباطن بظواهر الكلمات والألفاظ .

ألا ترى أن الإنسان يلقى صاحبه بكلام ظاهره الخشونة والمساءة ، لكنه عن نفس طيبة فلا يؤثر في نفس المخاطَب ولا يسوؤه ، وهذا الكلام بعينه إذا صدر عن نفس ثائرة وضمير سيِّىء . . أزعج المخاطَب وحرّك شرّه ، فليراع الإنسان ذلك من نفسه ومن غيره إصلاحاً وتسكيناً .

ومن أحسن ما قيل في تبيين سر الكلام قول سيدنا علي كرم الله وجهه : مغرس الكلام القلب ، ومستودعه الفكر ، ومقوّيه العقل ، ومبديه اللسان ، وجسمه الحروف ، وروحه المعنى ، وحليته الإعراب ، ونظامه الصواب !! قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله : كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذي منه برز .

واعلم : أن تأثير الكلام في نفس السامع على قدر إصداره من نفس المتكلم ، فإن كان الكلام صادراً عن قوّة نفس . . أثّر في السامع تأثيراً قوياً ، وإن كان صادراً عن ضعف نفس . . أثّر في السامع تأثيراً ضعيفاً ، فلأجل ذلك ينبغي لكل أحد أن يعتبر حال نفسه قبل إصدار الكلام ؛ ليصدر كلامه عن نفس ساكنة ، يلاطف صاحبه بالكلام ملاطفة ليأخذ به قلبه ، ويَسُرُّه ولا يغضبه ، ويشهد لهذا قوله تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ ، وكذلك قوله

تعالى : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ .

ثم انظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ ، وهذا إشارة إلى تعظيم المنّة على من مُنِحَ هذا الخلق فافهم ، واجهد على التخلق به ؛ فإنه خلق الخواص .

فانظر أيُها الأخ إلى هذه الأخلاق العالية ، فتخلق بها ، ونافس عليها ، فدارِ الناس مداراة ، واحذر ثوران النفوس ؛ فإن النفوس إذا ثارت . . رجعت إلى طباعها فمالت إلى الشرور وإبداء المعايب ، وإذا رضيت . . انبسطت وتهيأت بإصدار الخيرات .

واهجر الخلاف والمنازعة جهدَك وطاقتَك باطناً وظاهراً ، فإن لم تستطع بباطنك . . فليكن بظاهرك ، وحاسن صاحبك محاسنة ؛ فإن الخلاف أصل الشرور والبليات ، وهو كما قيل : الخلاف يهيج العداوة ، والعداوة تستنزل البلاء ، فعليك أيُها الأخ بالوفاق ، وتسكين الأنفس ؛ فإن القلوب إذا اتفقت . . تيسرت الخيرات ، وتنزلت البركات .

قال علي كرم الله وجهه : عوّد نفسك حسن النية ، وجميل المقصد . . تدرك في مساعيك النجاح . فرب نيةٍ أنفع من عمل فافهم ، واهتم بإصلاح أخلاقك تُصِبْ مَراشِدَك في أمرك ؛ فالعلم بالتَّعلُّم ، والحلم بالتَّحلُّم ، كما قيل :

لذي الحِلم قبل اليوم ما يقرع العصا   وما عُلِّم الإنسان إلاَّ ليعلما

وليحفظ الإنسان منطقه ، فليجتنب فاحش الكلام أن ينطق به ، أو يحكيه عن أحد ، فإن عيبه في عاجل الأمر عليه لا له ، وله فيه أوفر القسمين ، ألا ترى إلى قول الشاعر :

عراعر لا ينطقون الخنا   ولا يحفظون الكلام المعيبا

يـروم الفتـى منهـم جهـده   فـإن قـال ، قـال خطيبـاً مصيبـا

وكذا ينبغي للإنسان أن يمسك عن الكلام في حالتي الغيظ والغضب ؛ لأن الكلام حينئذ يكون إلى الزلل أقرب ، لانزعاج النفس وغليانها ، ولكن يصبر حتى يسكن جأشه ، ويذهب انزعاجه .

* * *

فصل ٣

والزم الأدب أيها الأخ عند استماع الكلام ، فلا تقطعن على أحد كلامه ، ولا تجبه بردٍّ بين الجمع ؛ فإن ذلك قبيح ، فإن رأيت من صاحبك خطأً في كلامه ، وكان من الخطأ الذي لا يضر . . فسامحه فيه ، ولا تظهر عيبه بين الناس ، فإن أردت إرشاده . . فاصبر حتى تخلو به ، اللهم إلاّ أن يكون الكلام من الخطأ الذي يجب ردُّه وإظهاره للجماعة ؛ كي لا يرسخ في أذهانهم ، فلا ترد عليه رداً عنيفاً ، ولكن برفق ورحمة ، فإن ناله من ذلك خجل . . فالذنب له ؛ لأنه هو الذي جنى ذلك على نفسه .

فإن كنت رئيس قوم ، ومقدَّماً على جماعة . . فترفق في كلامك ، وسكِّن سورة نفسك ، واحذر العجب والتجبر في محاورتك ؛ فإن ذلك يُطفىء نور علمك ، ويُذهب رونقه ، وإذا أردت دوام الراحة ونيل المحمدة وحيازة الأجر . . فلا تكن مناقشاً لمحاوريك في الكلام ، وتغافل عن سقطات الرجال ، فإن خولفت . . فاثبت ولا تجزع ، وإن لقيت ما تكره . . فاحتمل ولا تجاوب ؛ فإن ذلك شأن ذوي الثبات والرياضة من أقوياء الرجال ، وكما قيل : رب كلام جوابه السكوت ، قال الشاعر :

مـا كـلُّ قـولٍ لـه جـوابٌ   جـوابُ مـا تكـره السكـوتُ

وأنصت للمستضعفين ، وسكِّن انزعاج المرعوبين ، وتثبت عند كلام الملهوفين ، وعاملهم بفضل حلمك ، وجُدْ عليهم بجميل ملاطفتك ،

واشكر نعمة الأمن ودعة الطمأنينة ؛ لأنه قد ورد في الكتب المنزلة مما وصَّى به الربُّ تعالى الأمم السالفة : « أنصت للسائل حتى يقضي كلامه ، ثم اردد عليه برحمة ، وكن لليتيم كالأب الرحيم ، وللمظلوم ناصراً لعلك أن تكون خليفة الله تعالى في أرضه »!

وكذا روي أن الربّ تعالى قال في التوراة مما خاطب به بني إسرائيل : لينصت أهل السماء حتى أتكلم ، وليسمع أهل الأرض ما أقول : اسلك في طاعتي وكن صحيحاً ، فإني أنا الله العدل الصحيح المستقيم ذو الأمانة ، لا جور عندي ، الغريب لا تضطهدوه ؛ فطالما كنتم غرباء في أرض مصر ، والأرامل والأيتام لا تظلموهم ؛ فإنكم إن ظلمتموهم وصرخوا إليّ . . سمعت صراخهم ، فيشتد غضبي عليكم فأقتلكم بالسيف ، وأجعل نساءكم أرامل ، وأولادكم يتامى ، والرِّشا فلا تقبلوها ؛ فإن الرِّشا تعمي البصر ، وتزيف الأمور العادلة ، وإذا رأيت حمار شانئك رابضاً تحت حمله . . فيجب أن تحط معه ، واعلموا أنكم إن قبلتم وصيتي . . عاديت معادِيَكم ، وأبغضت مباغِضَكم .

وكذا إذا سمعتَ إنساناً يورد شيئاً عندك منه سابق علم . . فإياك أن تسلب كلامه استلاباً ، وتغالبه عليه مغالبة ؛ فإن ذلك صِغَر نفس ودناءة ، ولكن استمعه منه كأنك لا تعرفه ؛ فإن ذلك شأن ذوي النبل والثبات ، لا سيما إن كان صاحب الكلام في جمع يحتاج إلى التمييز بينهم ، أو عند رئيس يؤثر التَنَفُّق لديه ؛ فإن من اللؤم كسره ومغالبته على كلامه ، وما أحسن قول الشاعر :

لا ينطقون عن الفحشاء إن نطقوا ... ولا يمارون من مارى بإكثار

من تلق منهم تقل لاقيتُ سيدهم ... مثل النجوم التي يسري بها الساري

واعلم : أن المستمع شريك القائل ، فلا تصغ إلى كلام قبيح ، وجانب استماع الغِيبة والنميمة وكلِّ مَعيب من الكلام ، وكن عند ذلك كما قال الشاعر :

وسمعك صن عن سماع القبيح ... كصون اللسان عن النطق به

فإنك عند استماع القبيح ... شريك لقائله فانتبه

* * *

فصل

انتبه أيُّها الأخ ، وحسِّن أعمالك مهما استطعت ، وتلمَّح الأزمان ؛ فإن فيها ما يغلب فيه الشرور ، ويقلّ فيه السرور ، وتعم فيه الغموم ، وتكثر فيه الهموم ، وتقلّ فيه البركات .

قيل : أوحى الله تعالى إلى بعض الأنبياء عليهم السلام : لا تتخذ المال والأهل في زمن العقوبات .

فلذلك ينبغي للعاقل أن يستيقظ لنفسه ، ويستشعر الحذر في أمره ، ويجتهد في القرب إلى مولاه بكل ممكن استِدْفاعاً للخطوب النازلة بالخليقة ، فما يوقع العباد في هذه المكاره والبليات إلاّ غفلتهم وإهمالهم لجانب المولى العلي ، وإعراضهم عنه ، وطمعهم في إصحابه وقلة اهتمامهم بما يقرّب إليه تعالى ؛ فإذ ذاك يَغْضَبُ الحق تعالى ، ويمنع البركات عن الأرض ، فتتخبط الخليقة ، وتفسد أحوالهم ؛ لأن هذه الأزمان التي تكثر فيها الغفلة ويستظهر بها العصاة تظاهراً وتجاهراً أزمان صعبة ، مَخُوفةُ العواقب ، تدل على إعراض الرب تعالى ، فإذا كان راضياً على العباد . . نظر إليهم نظر رحمة ، فيستنير العالم ، ويكتسي بهجة ، وترتاح الأنفس ، وتحيا القلوب ، ويظهر السرور ، وتصلح أحوال العباد ، وتدرّ البركات ، وتُنمّى الخيرات ، وكما قيل :

ترى الحيَّ مسروراً إذا كان حاضراً بنُعمَىٰ ويغبرُّون حين تغيب

أو كما قيل :

لعمري لئِن قرّتْ بقُربك أعينٌ لقد سخُنت بالبعد عنك عيون

فسِرْ أو أَقِم وقفٌ عليك مودتي ... مكانك من قلبي عليك مصون
فما أوحش الدنيا إذا كنتَ غائباً ... وما أحسن الدنيا بحيث تكون

أو كما قيل :

فَرَوْحي وريحاني إذا كنتَ حاضراً ... وإن غبتَ فالدنيا عليَّ محابسُ
ففيك صحبتُ العيشَ والعيشُ ناعمٌ ... وفيك سكبتُ الدمعَ والربعُ آنسُ
إذا لم أنافس في هواك ولم أَغِرْ ... عليك ففيمن ليت شعري أنافسُ

أو كما قيل :

وأنت الذي حبّبت نجداً وحاجراً ... إلـيّ وأوطـانـي بـلاد سـواهـمـا
حللـتَ بهـذا حِلَّـةً ثـم حِلَّـةً ... بـذاك فطـاب الـواديـان كـلاهمـا

قالوا : وإذا أعرض الله تعالى عن الخليقة . . أظلم العالم ، وذهب أنسه ، وانطفأ نوره ، وانكسرت القلوب ، وساءت أحوال العباد ، وعمت الهموم ، وقلّت الخيرات ، وذهبت الأمانات ، وفسدت المودّات ، وغلت الأسعار ، وتسلطت الأشرار ، وقلّت فوائد أرباب المعاش ، وتحيَّرت العقلاء لما يرون من الأمور المستغربة ، وتوحَّشت الأرض وتنكرت لأهلها كما قيل :

إذا هبطـتُ بـلاداً لا أراك بهـا ... تجهمتْ لي وحالت دونها الظُّلَمُ

كل هذه بذنوب العباد حيث انتهكوا محارمه ، وأهملوا أوامره ؛ لأن للرب تعالى في عباده عقوباتٍ معجلةً ومؤجلةً ، فالمعجلة منها ما تقدَّم ذكره من تخبط أحوال العالم ، وأما المؤجلة . . فما أوعد به من عذاب الآخرة ، فلذلك ينبغي للَّبيب أن ينتبه من رقدته ، ويبذل الجهد في معاملة ربه ؛ لأنه برحمته يُنجي عبده المتخصص بخدمته ، المهتم بطاعته عند إنزال العقوبات ، وإرسال البليات ؛ فإن العقوبات إذا أحاطت بالعباد . .

عمّت الأشرار والأخيار ، لكن يقلُّ نصيب الأخيار منها ، ويكون الذي ينوبهم منها أيسرها وأخفها ، فالصالحون وإن ألمت بهم البأساء وأضرّت بهم مصائب الدنيا صابرون على مُرِّ القضاء ، وألم البلاء احتساباً ، فكأنهم يقولون بلسان حالهم :

وإني لأرضاه مسيئاً ومحسناً ... وأقضي على قلبي له بالذي يقضي

فحتى متى رَوحُ الرضا لا ينالُني ... وحتى متى أيامُ سُخطِك لا تمضي

ويتوفر قسم الغفلة عن تلك البليات والنوازل ، وتعظم مصائب العصاة عند نزولها ؛ لأن لشؤمهم تعدت العقوبات إلى الأخيار ، لأن الله تعالى يقول في كتابه العزيز : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ ، وذُكِر أن الرّب تعالى قال في بعض الكتب المنزلة : بذنب المنافق تحترق المدينة ، بذنب المنافق يحترق المسكين .

فأكثر ما يوقع العباد في هذه البليات غشُّ القلوب ، وشوب الرياء للأعمال ، لا سيما من أصحاب الزهادة والعلم ، لأن الرب تعالى قد قال فيما خاطب به بني إسرائيل : تتفقهون لغير الله ، وتعلمون لغير العمل ، وتنقون القذاةَ من شرابكم وتبتلعون أمثال الجبال من المحارم ، وتلبسون مسوح الضأن وتُخفون أنفس الذئاب ، فبعزتي حلفت! لأضربنكم بفتنة يَضِلّ فيها رأيُ ذوي الرأي وحكمة الحكيم .

فعلى كل حال : الحق تعالى يراعي أصحابه ، ويرفق بهم عند نزول الأقضية ، وإرسال العقوبات ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ، وكذلك قوله تعالى : ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ، وكذلك رُوِي أن الرّب تعالى قال لبعض بني إسرائيل وكان عبداً صالحاً وقد ألمّت به الشدائد ، فأتاه آت من ربه عز وجلّ فقال له : يا هذا ؛ لا تخف فإن الله معك ، وإن الرّب تعالى يقول لك : إن الحبيب لا يُسْلِم حبيبه ،

وإنه لا يهون مَن توكل عليّ ، ولا يضعُف مَن تَقوّىٰ بي . والقصة مذكورة في بعض فصول هذا الكتاب .

فأحضر فهمك أيُّها الأخ ، وتعرّف إلى مولاك في الرخا يعرفك في الشدّة ، فإنه رؤوف بعباده ، رفيق بهم ، رحيم لا ينسى إلاَّ مَن نَسِيَهُ ؛ لأنه قد رُوِي أن الرّب تعالى قال في بعض الكتب : ألاَ مَن ذكرني .. ذكرته ، ومن نسيني .. نسيته ، ومَن آمن بي صادقاً .. فليتوكل عليّ صادقاً ، فكفى بي كافياً ومثيباً .

فالله يجعلنا وإياكم معاشر الإخوان من خواصّ عباده ، ويوفِّر قسمنا من الخيرات ، ويدفع عنا النوازل والبليات برحمته .

* * *

فصل ٥

والكلام مبنيٌّ على الأساس ، وهو النية ، ولنذكر علمها بما تيسر فنقول :

اعلم : أن من الأصول الموصلة والقواعد التي يجب مراعاتها والعمل عليها تأسيسَ الأعمال بإحكام النيات ، وإخلاص الطويات ، والدخول في الطاعات مُخلَّصاً من الشوائب التي تفسدها .

والأصل في ذلك قول النبيِّ صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئٍ ما نوى » فأعمال القلوب هي النيات ، وعنها تصدر الأفعال الظاهرة ، فالأصول هي أعمال القلوب ، والفروع هي أعمال الجوارح ، فإذا أحكمت الأصول . . ثبتت الفروع ، وإذا أهملت القواعد ـ وهي النيات ـ تزلزلت الأعمال الظاهرة ، وهذا عام في جميع الأعمال الدينية والدنيوية معاً ، وإذا أردت النُّجْح وسداد الأمر ، فأَحْكِمْ مقاصدك عامة ـ دقيقة كانت أو جليلة ـ بإعمال الرأي فيها أوّلاً ، ثم بإعطائها من الهمة ما تستحقه ثانياً ، ثم بعد ذلك تفوّضها إلى الله تعالى ، وتلجأ إليه في إتمامها ونجاحها ، فبذلك تزكو الأعمال ، وتصح المطلوبات ، فأَحْضِرْ فهمك أيُّها السامع ، فإن للكلام في هذا الموضع موقعاً غامضاً ينبغي أن نُنَبِّهَ عليه إخواننا السالكين ؛ ليرشُدوا ، والله الموفق ، ومنه المعونة .

واعلم : أن للنيات أفعالاً عجيبة ، تنفعل لها الأشياء إنْ خيراً فخيراً وإن شراً فشراً ، فحُسْن النية هو منبع الخيرات ؛ لأن إعمال الهمم في

الأشياء تفعل فيها فعلاً عاماً بالقدرة الإلهية ، وعلى قدر قوّة العزم وضعفه يترتب المطلوب ، فلذلك ينبغي للإنسان أن يكون هَمّاماً في الأمور ، فلا يتوجه في طلب شيء بغفلة ولا إهمالَ بفعله عادةً ، ولكن يُعمِل الرأي ويقوّي الهمة ، ويصمم في الأمور .

وقد ورد في هذا المعنى كلام عجيب من الحِكم القديمة ، وهو : الحزم : انتهاز الفرصة ، وإمضاء ما ينوي فعله ، وترك التواني فيما يُخشىٰ فوته ، والتفكرُ فيما لا يعلم أيقع أم لا؟ . . مادةُ العجز وسبب الهزيمة ، ويشهد لهذا قوله تعالى : ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾ أي بقوّة عزيمة ، وكذا قوله عليه الصلاة والسلام : « نية المؤمن خير من عمله » ؛ لأن أفعال القلوب تتعدى إلى أشياء لا تتناهى ولا تحيط بها المقاصد ، فقد ينوي الخير فيُغان على قلبه ، وينوي الشرّ فيتيسر على يديه .

ومن عجيب أسرار النية أن بركتها تصل إلى أشياء لا تخطر بالبال ، كما ورد أنه لما وُلِّيَ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الخلافة ، قالت رعاة الشاء : مَنْ هذا العبد الصالح الذي قد قام على الناس؟ قيل لهم : وما علمكم بذلك؟ قالوا : إنه إذا قام على الناس خليفة عدل كفَّت الذئاب عن شائِنا .

فانظر إلى هذه النية المباركة ، كيف أثرت في سباع الفلاة ، وكذا تأثير النِّيات في جانب الشرّ ، فإذا أضمر الإنسان الشر وساءت نيته . . تولدت من ذلك شرور يعم موقعها ، قد لا تكون من قصد الإنسان ، وهذه أمور غامضة يجب التنبه لها ، وإعمال الفكر فيها ؛ فإن المقصود من تأصيل هذه الأصول أن يضبط الإنسان قلبه عن الشرور ، فإذا دخل في شيء من الطاعات صلاة كان ذلك أو تسبيحاً ، أو قراءة قرآن ، أو صدقة ، أو عيادة مريض ، أو شهود جنازة ، أو أيّ عبادة كانت . . فلا يلابس شيئاً من ذلك

ساهياً ولا غافلاً ، فقد قال بعض العارفين رحمه الله : مَن ذكر الله بالغفلة أعرض الله عنه .

هذا للعموم ، وأما الخواص . . فإنهم يلتزمون النيات في كل شيء حتى في المباحات ، فبإحضارهم النية في المباحات تصير من الأعمال التي يرجون فيها الأجر ، كلبس الثوب مثلاً فإنه إذا أُحسنت فيه النية امتثالاً للأمر في قوله تعالى : ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ ، وكذا العمل بقوله ﷺ : « إن الله جميل يحبّ الجمال » ، ثم يضيف العبد إلى ذلك شكرَ الله وحمده على ما رزقه ؛ فإن المباح حينئذ يصير عبادة .

* * *

فصل ٦

إذا أردت أن تُؤْجَر بمجرد النيات . . فاجعل ميلك إلى الخيرات عزماً صادقاً لو قدرت عليها ، أما الذي يميل إلى الخيرات من غير اهتمام بها ، ولا إعمال خاطر في الوصول إليها . . فهذا تمنٍّ كاذبٌ لا أصل له ولا أجر فيه ، وهذا المعنى بعينه هو الذي جاء النهي عنه : إياكم وهذه الأمانيّ ، فإنها أودية النوكى[1] ، هذا قول الحسن البصري رحمة الله عليه .

* * *

أنظره

قال الإمام الحداد بالفصل ١٨ بكتاب الفصول العلمية : وينبغي لك أيضاً أن تساعد أرباب هذه الفضائل والوظائف الدينية بما تقدر عليه ولو بالدعاء لهم والمحبة لما هم عليه وأن تدعوهم وتحثهم وترغبهم في حسن القيام بما هم عليه ... الدال على الخير كفاعله ص٥٦/٥٧

وقال في نهاية الفصل كخلاصة ص٥٩ : فقد عرفت مما تقدم أنه ينبغي لك أن تعمل بكل ما تستطيع من الفضائل والخيرات وتجمع بين ما أمكنك الجمع بينه منها وتختار الأفضل والأكمل حيث لا يمكن الجمع ولا تتعرض لما فيه خطر وإن كان فيه خير ما إلا إن ابتليت به أو أكرهت عليه ولا تقدم على ما هو أولى بك والأصلح لك في دينك شيئاً وإن كان أفضل مما أنت فيه على حسب ما شرحناه في الفصول المتقدمة فإن الكلام فيها مرتبط بعضه ببعض

كالأمور التي يقصد نظر الدين وتجر معها شرور ومحذورات .

---

(١) النوكى : الحمقى .

فصل ٧

العمل الخالص من كل الوجوه[1] عزيز ، وهو قليل الوجود ؛ لأن أكثر أعمال البِرِّ لا تخلو عن شيء مِن الهوى وإن قلّ ، ولكن الإنسان قد لا يحسّ به لخفائه ، فهذا العمل الخالص من سائر الوجوه هو الذي يصل إلى الرب تعالى بسرعة ، وهو الذي يخرق الحجب ؛ لأنه سيد الأعمال وروحها ، وهذا العمل هو الذي قد عُمل بنوع مجاهدة ومشقة ليس للنفس به تعلق بوجه ، وهذا العمل هو عمدة العارفين ومعوَّلهم فافهم .

مثال ذلك : إذا كان العمل صدقة . . يكون مصرفها إلى من لا يرجى مدحه ، ولا يُخشىٰ ذمّه ، ولا يكون بمحبة ولا صداقة ، ولا لسبب من الأسباب التي ترتاح النفس إليه ، هذا محض الإخلاص ، وإن كانت القُربة صلاة . . فمحض الإخلاص فيها إحضار القلب من مبتداها إلى منتهاها ، وهو أن يجمع الإنسان همَّه جملة ، فلا يغفل قلبه في شيء منها ، وهذا عزيز جداً ، فهذا هو العمل الخالص حقيقة فاعلم .

فالعمل إما أن يكون على محض الإخلاص ، وهو ما تقدّم ذكره ، وإما أن يكون من سبيل المعروف ، وإن لم يكن على محض الإخلاص كأعمال يتعاطاها الناس بينهم محاسنة ومجاملة ، واتقاء شرور . . فهذه أيضاً خيرات لكن لا تصل إلى رتبة العمل المتقدّم ذكره .

---

(١) في نسخة : (من كل وجه) .

قال رجل للحسن البصري رحمة الله عليه : يا أبا سعيد إن الرجل يسألني ، وأنا أمقته فأعطيه حياء هل لي في ذلك من أجر؟ قال : إن ذلك من المعروف ، وإن في المعروف لأجراً .

* * *

قال الشريف حاتم العوني في كتاب نصائح منهجية ص ٢٢ ... لأن الأعمال الفاضلة وخاصة التي يتعدى نفعها نفس العامل إذا لم يكن الدافع للقيام بها نية سيئة كالرياء والسمعة ومطامع الدنيا فإن صاحبها سينال مأجوراً بالعمل نفسه إذا كان الدافع للقيام به محبة العمل والتعلق به ... فهو مثاب وإن غفل عن الإخلاص لله تعالى والسهو عن ابتغاء ثوابه وذلك لأن العمل ذاته فاضل صالح لا يخلو من أن ينتفع به غيره وتتعدى فائدته إلى من سواه فيؤجر بالنفع المتعدي وبالمصلحة الحاصلة لغيره . اهـ

وللإمام الغزالي كلام في إخلاص العمل على وجه الكمال في كتاب إحياء علوم الدين كتاب الصدق والإخلاص .

وللإمام الشاطبي في كتاب الموافقات كتاب المقاصد القسم الأول النوع الرابع المسألة السادسة ، كلام يناسب هذه المسألة .

ولهذه المسألة أصول وأدلة أخرى كثيرة .

فصل ٨

اعلم أيُّها الأخ : أنك إذا صدقت في مقاصدك ، وراعيت أعمالك تحسيناً وتلطفاً في حسن المعاملة . . فإن الله تعالى يسبغ عليك طَوْلَهُ ، وتعمك عنايته ، فيذيقك حلاوة المعاملة ، فينشرح صدرك ، ويحصل لك نوع استقامة ترتاح بها ، ويحصل لك من العلم أن ترى الأشياء على حقائقها ، وترى الناس على طبقات أحوالهم ، وتطلع على عجائب الملكوت ، وتعرف سر الخليقة وما جُبِلوا عليه من الأخلاق العجيبة المختلفة ؛ فربما رأيت من الإنسان ما لا يراه من نفسه .

فصدق الإنسان في أعماله بالكلية ، والتزامه طرائق الصحة هو طريق القوم ، إلاَّ أن صاحب هذه الطريقة في وقتنا هذا يتعب ، فينبغي له أن يصبر على الضيم ، ويكظم على المضض ، ويوطن النفس على جفاء الناس له ؛ لأنه يبقى بينهم غريباً وحيداً مطموعاً فيه وفي جانبه ، وربما قُصد بالأذى وذلك لكثرة المخالفين له ، فليصبر هذا العبد وليحمد ربه على ما منحه من صحة الطريق ، فإن العاقبة له .

فإذا عرفت . . فالزم وتأدّب بآداب الرب تعالى ، فاحذر أن تكشف لأحد ستراً أو تُظهر له عيباً اطلعتَ عليه ، ولكن تعجب من سر الحكيم تعالى في خلقه ، واجعل نزهتك النظر في عجائب مصنوعاته فارحم خلقه ، واشكر إلهك على ما منحك ، فهذه الخليقة موضوعة على الأسرار والحِكَم ، فالْحَظِ السرَّ ، واعمل على الحِكَم تر العجائب !

* * *

فصل ٩

أيها الأخ ؛ ناسِب بين أعمالك ، واحذر الخلل فيها من إهمال ترتيبها ووضع شيء منها في غير موضعه ، فذوو التوفيق هم الذين يحسنون المعاملة ، فيرتبون أعمالهم ترتيباً ، ويناسبون بين معاملاتهم مناسبة ، فاحذر أن يدخل عليك الهوى فتُشْغَف ببعض الأعمال دون سائرها ، أو أن تقدّم من الأعمال ما يجب أن يتقدّم عليه غيره ؛ فإنَّ هذا يقع إما من قلة العلم أو تعلق الهوى ببعض الأعمال .

وهذه الأعمال التي يتقرب بها العباد مثالها مثال من أراد أن يبتني داراً . . فإن الحكمة تقتضي أن أوّل ما يبدأ به تأسيس القواعد ، فإذا أحكمها رفع البناء ثم أتبع ذلك ما يناسبه ترتيباً ومناسبة .

فأول ما ينبغي للسالك أن يهتم به طلب الحلال ، أو ما يقاربه إن تعذر الحلال ، ثم الاهتمام بما افترض الله تعالى على العبد من الأعمال الواجبة فيؤديها على أتم الأحوال وأحسن الوجوه ، وليكن تقوى الله نصبَ عينيه ، يدور مع أوامره تعالى ونواهيه كيفما دارت ، لا يحيد عنها ، ثم بعد ذلك يهتم بنوافل الأعمال ورغائب الطاعات ، فيقدّم الأَولىٰ منها فالأَولى .

وليعلم العبد : أن أفضل الطاعات وأقربها إلى مرضاة الرب تعالى الإحسانُ إلى ضعفاء خلقه من إطعام المساكين ، والنظر في أمور المحتاجين ، ونصرة المظلومين ، وجبر المنكسرين ، ثم بعد ذلك يتقرب بنوافل العبادات لا سيما الصلوات ، وأهمها قيام الليل فإنها عبادة جليلة ؛ لأن ساعات الليل ساعات عزيزة ينبغي للعبد أن يغتنم التقرب فيها صلاة

ودعاء وقراءة وتضرعاً وتمسكاً سيما الساعة الحادية عشرة[1] ، فإنها ساعة الإجابة ، فلا يغفل العبد عنها .

هكذا ينبغي أن يكون ترتيب الأعمال ، فليحذر العبد أن يُميلَه الهوى فيرجِّح ما غيره أرجح منه ، فهذا أصل عظيم يجب التنبه له ، وهذا طريق أهل الفهم عن الله تعالى ، يضعون كل عمل في مرتبته بالتمييز الصحيح السليم عن الهوى ، فاقتف آثارهم ، وانحُ مسالكهم تَرشُد إن شاء الله تعالى .

* * *

(١) هذا الوقت باعتبار التوقيت الغروبي ؛ أي : قبل طلوع الفجر بساعة ، فليلاحظ .

فصل ١٠

يا من قد انتصب لهداية العباد إلى مولاهم ؛ ابدأ بنفسك فقوّمها وسددها ، واحذر أن تأمر بشيء قولاً وتخالفه فعلاً ؛ فإن ذلك تخليط قبيح ، وتَعَرُّض فاضح ، فلا يكون أتْباعك حينئذ إلا النوكى الذين لا رَوِيّة لهم ، ولا معوّل على عقولهم ، وما أحسن ما قيل في هذا المعنى :

يا أيُّها الرجلُ المعلِّمُ غيرهُ ... هلاّ لنفسِكَ كانَ ذا التعليمُ

ابدأ بنفسك فانهها عن غيِّها ... فإن انتهت عنه فأنت حكيمُ

تصف الدواء لذي السقام وذي الضنا ... كيما يصح به وأنت سقيمُ

ونراكَ تُصلِحُ بالرشاد عقولنا ... أبداً وأنت من الرشادِ عديمُ

لاتنه عن خُلُقٍ وتأتي مثله ... عارٌ عليك إذا فعلت عظيمُ

فهناك يُسمَع ما تقول ويقتدى ... بالقول منك وينفع التعليمُ

فلا ينبغي أن تكون همتك أيُّها الأخ في علومك تحسين العبارات ، وترصيف الكلام ، وتهمل العمل أو التخلق بما قد دَأَبْتَ في تعلمه ؛ فإن ذلك خسران وحرمان .

قال عليّ كرم الله وجهه : المنافق علمه في لسانه ، والمؤمن علمه في عمله ، ومنه قوله : رب داع إلى الله وهو يفرّ منه ، ورب متقرب إلى الله تعالى بما يمقته عليه ، ورب تالٍ لآيات الله وهو منسلخ منها .

فلا تطمعنّ أيُّها الأخ أن تكون عند الله من العلماء الذين يفضل مدادهم على دم الشهداء حتى يسري العلم إلى باطنك ، ويصير له تعلق ببصيرتك

دعاءً وتضرعاً وخشية من ربك وتخلقاً بأخلاق السلف الماضين رضي الله عنهم أجمعين .

وإذا نظرت نظر العدل والإنصاف . . بانَ لك الفرق بين العلماء الذين شأنهم القيل والقال والإكثار من التصانيف والتشدق بالكلام ، وبين علماء الصدر الأول كالحسن البصري الذي كان شعاره الخوف والجزع ، ومحمد بن واسع ، وابن سيرين الذي رُوِيَ عنه أنه كان إذا استُفتِيَ في شيء من الحلال والحرام تغير لونه خشية من الله تعالى ، وكسفيان بن سعيد الثوري وما يُروىٰ عنه من العلوم والزهد والتواضع ، وصدع الجبابرة بالحق في مواطن الهلكة ، كما رُوِيَ عنه أنه لقي المنصور في الطواف ـ وكان المنصور يحب أن يراه فلا يأتيه ـ فقيل له : يا أمير المؤمنين ؛ هذا سفيان الثوري ، قال : فأتاه المنصور وسلم عليه وأخذ بيده وهش له وخطا به وقال : يا أبا عبد الله ؛ لم لا تأتينا؟ فقال سفيان : لأن الله تعالى نهانا عن ذلك ، فقال المنصور : وكيف؟ فقال سفيان : لأن الله تعالى قال : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ ، ثم جذب يده من يد المنصور وذهب .

فهذه سيرة العلماء الأُوَل ، ما كان شأنهم الإكثار من التصانيف فراراً من العمل ، وعجزاً عن التخلق بأخلاق هؤلاء السعداء الذين هم العلماء بالحقيقة ، فالإنسان يستروح إلى التصانيف والتشدق في الكلام بين أصحابه ، ويكثر الخوض في ذكر مناقب القوم ، فهو مستروح جذلان ؛ الكلام سهل ، لكن العمل به صعب ، فهو في عافية ما لم يُبتَلَ بشيء من أعباء الأعمال التي كان القيام بها شأن القوم من غير كلام ولا قيل ولا قال ، فمثله كمثل الجبان الذي يتشاجع ، ويتزيا بزيّ الأبطال ، ويكثر الهدر في ذكر الحروب ، فهو في عافية ما كان وحده ، فإذا ابتُلي بمقاومة من يقاومه ويبارزه . . افتضح ، فهو كما قيل :

وإذا ما خلا الجبانُ بأرضٍ   طلب الطعنَ عندها والنزالا

فإذا رمت التأديب والتثقيف ، فارفق بالخلق ، وانصح لهم ، ودار عقولهم مداراة ، وقارب أفهامهم مقاربة ؛ لتنقاد لك أنفسهم ، ولتقبل عليك قلوبهم .

واعلم : أن الله تعالى قد نزّل عباده منازلهم في العقول والأنحاء ، فينبغي للفَطِنِ أن يتلمّح حكمته تعالى في خليقته ، ويستنّ بسنته في الرفق بهم ، والمداراة لهم والستر لأحوالهم ، ولا يطمعن العبد في تغيير شيء من جبلاتهم ، فإن نقل الطباع ممتنع ، اللهم إلا ما اقتضاه التأديب والتعليم على طريق الرفق والتلطف مع مراعاة نفوسهم عن التغيير والانزعاج ، فإن النفوس إذا أُزعجت . . نفرت ، فلم يُجْدِ فيها التعليم ولا التأديب .

* * *

فَصْلٌ

قد يكون القلب عاصياً ، والجوارح طائعة ، كما قد يكون الإنسان عالم اللسان ، جاهل القلب ، وهذا فصل عظيم النفع لمن تأمّله ، لأنه أصل من أصول الأعمال ، تنبني عليه أشياء مهمة في السلوك ، فعصيان الجوارح أهون من عصيان القلب ، فلنذكر الآن في هذا الفصل أهمّ الأعمال وأولاها بالتقدم فنقول :

التقرب إلى الله تعالى يكون بفعل الطاعات ، واجتناب المعاصي أهمّ عند العارفين من الإكثار من الطاعات مع التسامح في ارتكاب شيء من المآثم ، قال الله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ﴾ ، وقال بعض العارفين : ليس من عمل بطاعة الله صار قريباً من الله تعالى ، لكن من اجتنب ما نهى الله عنه . . صار قريباً من الله تعالى ؛ لأن الأعمال من البِر ، وفعل الخير يعملها البَرُّ والفاجر ، ولا يجتنب الآثام إلا صدّيق مقرب ، فقد يستكثر الإنسان من أعمال البر ، ونفسه غير زاكية ؛ لأنه يكون قد أهمل تأسيس أعماله على التقوى ، وتساهل في ارتكاب شيء من المحرمات ، فتُفسِدَ عليه قلبه من حيث لا يشعر .

قال كعب الأحبار : تجد الرجل يستكثر من أعمال البر ، ولعله لا يساوي عند الله تعالى جيفة حمار ؛ لقلة علمه ، وعمَىٰ قلبه وبصيرته ، وتجد الرجل ينام الليل ، ويفطر النهار ، ولعله عند الله تعالى من المقربين ؛ لما قسم له من العقل .

فهذه الأعمال لها أسرار غامضة وقواعد عزيزة ، ما كل من دخل فيها بان أثرها عليه ؛ إذ الأعمال تحتاج إلى آداب لطيفة ، وينبغي أن يمدها من البواطن أصول خفية مهمة ، فمتى دخل في العبادة مَن له قلب ويكون عارفاً بسرِّها . . لاحت عليه آثار القبول ، وأشرقت عليه أنوار الوصول ، وإذا دخل في هذه الأعمال أصحاب البواطن المظلمة والأنفس الخبيثة . . لم يزدهم إلا عمىً وضلالاً .

قال عليّ رضي الله عنه : مثل المتعبد بغير علم كحمار الطاحون ، يدور ولا يبرح من مكانه! فعمل الجاهل وبال عليه ، وعلمه ضلال لديه .

فمن أراد أن يتنور قلبه . . فليحاسب نفسه ، ولا يتسامح في ارتكاب شيء من الشُّبه والمحرمات ، وليجتهد في اجتناب الآثام مهما أمكنه ؛ فإن ذلك أصل كثير النفع مجرب ، وإنَّ ذلك يشرح الصدر ويُسكّن النفس ، قال الله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ .

وإذا أهمل العبد تقوى الله تعالى ، وتساهل في الآثام والمحرّمات . . خبثت نفسه ، وساءت أخلاقه ، واختلط عليه أمره ، هذا شيء مجرب يعرفه أهل المعاملة ، فلا تغفل عنه أيُّها الأخ ، فكما تفعل يُفعَل بك ، وكما تدين تدان .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ .

قالوا في التفسير : يرزقه رزقاً حراماً يُضيّق عليه عيشته ؛ فإنَّ أكلَ الحرام يحرّج الصدر ويضيق الأخلاق .

* * *

فصل

ما وهب الله تعالى لعبده موهبة مثل قلب هين لين ؛ لأن من القلوب قلوباً قد جبلها الله تعالى بمشيئته قريبة من الخير ، بعيدة عن الشر ، فهي بجبلاتها تناسب الخير ، وتتصف به ، وهي هذه القلوب اللينة المنورة الرحيمة التي تحب الله تعالى وتحب خلقه ؛ لأن مَنْ أحب الصانع . . أحب صنعته ، فأصحاب هذه القلوب هم أهل القرب من الله تعالى ، وبينهم وبين أعمال البر مناسبة أكيدة ، فإذا راموا الخيرات . . تسهلت لهم للمناسبة التي بينهم وبينها .

وما أنسب أصحاب هذه القلوب إلى الصفة التي في الكتاب العزيز : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ ؛ فأصحاب هذه القلوب هم المرادون بقوله تعالى فيما أنزله في الكتب السالفة : إن السمٰوات والأرض لم تُطِق أن تحملني ، وضِقْنَ أن يَسَعْنَنِي ، ووسعني قلب المؤمن الوادع اللين . فهذه القلوب هي أوطان الأسرار الإلٰهية ، ومعادن العلوم الربانية ، وفيها يقول العارفون :

أُحِبُّ الحِمىٰ من أجل مَن سكن الحِمىٰ   ومن أجل أهليها تُحَبُّ المنازلُ

فترى أصحاب هذه القلوب تلوح عليهم آثار المعاملة بيسير من العمل .

وثَمَّ قلوب تُنافي الخيرَ بجبلاتها ؛ لغلظها وقسوتها ، فأصحاب هذه القلوب يتعبون ويجتهدون في الأعمال ، ولا يكاد يظهر عليهم كثير

تنوير ؛ للمنافاة التي بين خلقهم وبين الخيرات ، فهم يتكلفون الأعمال والحال يجنح بهم .

فهذا القسم من الناس ينبغي أن يتعهدوا قلوبهم بتنقيتها من الأخلاق الرديئة ، ويجتهدوا في تزكية نفوسهم إن وُفِّقوا للاطّلاع على معايبهم ، فلعل الرياضة تنجع فيهم ، فقلَّ أن يُرىٰ أحد من رجال الحق إلا وهو ذو قلب رقيق .

فعلامة صاحب القلب الرقيق ميله إلى الدعابة ؛ لخفة روحه ولطف سجيته ، ويُستَدل على صاحب هذا القلب الرقيق برقة ماء وجهه ، ومن شأن هذا الإنسان أن يكون سهل الخليقة ، لين العريكة ، بساماً ضحّاكاً ، وهذا القسم من الناس هم أكثر أهل الجنة ؛ لقول النبيِّ صلى الله عليه وسلم : « حَرُمَت النار على الهَيْن اللَّيْن السهل القريب » .

فأعمال هذا الجنس من الناس تكون أعمالاً حسنة للمناسبة التي بين قلوبهم وبين الخيرات ؛ لأن رقة القلوب مُعينة على الخيرات إعانة بالغة ، ولأن جِبلَّة هذا القسم من الناس الرحمة والشفقة على الخلق ، وهي أقرب الطرق إلى الله تعالى وأحبها إليه .

وهذا الفريق من الناس تُرى أعمالهم غالبة مؤكدة بطهارة الضمائر وصفاء البواطن ، فاليسير من أعمال هؤلاء يقوم مقام الكثير من أعمال غيرهم ، فلصحة نظر هذه الطائفة تصدر عنهم الأعمال صالحة مَرضية ، لأنه يغلب عليهم الذل والانكسار والتواضع ، وبهذه الأخلاق تصلح الأعمال ويقلّ فيهم التكبر والتجبر وخبث البواطن ، وبهذه الأخلاق تفسد الأعمال .

القسم الآخر من الناس وهم الذين تغلب عليهم صعوبة الأخلاق وقسوة القلب ، وهذه الطائفة يتداخل أعمالهم خلل ؛ لكثرة غلطهم ،

وضعف تمييزهم ، وخراب بواطنهم ، فعلامة قسوة القلب جمود الوجه ، فترى وجه أحدهم كأنه صفحة لبنة ، أو حجر قد تصور منه وجه لا ماء فيه ، فلا تلمح شيئاً من تهلل البشرية ؛ لغلظ دمه ، وكثافة جبلته ، فلا يكاد صاحب هذا القلب يتبسم ولا يضحك .

وتقلّ الرحمة والشفقة في هذا القسم من الناس غالباً ، وهو قسم رديء في السلوك ، بين بواطنهم وبين الخيرات منافرة أكيدة .

ويغلب على أصحاب هذا القسم ثقل الأرواح والأخلاق المكروهة ، وربما غلبت عليهم الأهواء والمجادلة في سلوكهم .

وأكثر تديُّن هذا القسم التعصب والتقليد ؛ لوقوف أذهانهم ، ولكون أبصارهم مقصورة عن النفوذ في الأشياء ، فإنما لهم الظواهر والعمل على ما غلب عليه العرف ، وجرت به العادات ، ويتصعب عليهم من قسم الخيرات الأمور القلبية وأحوال الباطن ، فيكون شأن هذا القسم من بين الطوائف ملازمة الأعمال البدنية ، والأخذ بظواهر الأشياء ، ولا يتعبون أنفسهم فيما يتعلق بأعمال القلوب وأسرار البواطن ، فطريق ذلك عليهم مسدود ، فالسبق لأرباب القلوب وبنورهم يَهتدي هؤلاء ، فأرباب رقة القلوب منهم الأبدال والعارفون . . فهم أهل السبق والتقدّم .

وأما أهل القسم الثاني . . فمنهم العمال والأخيار والمجتهدون في كل خير ، ولكن بينهما بون بعيد ، وتفاوت كثير ، فقد خلق الله سبحانه وتعالى خلقَه بحكمته المتقنة ، وجعلهم أطواراً مختلفين .

فطائفة من الناس بواطنهم سليمة حسنة ، فقد اجتمع لهم سلامة البواطن إلى صلاح الظواهر ، وهؤلاء أعلى الطوائف ، فإن تَرَسَّمَتْ هذه الطائفة في الطاعات وتفرغت للعبادات . . جاء منهم الصلحاء والأولياء .

وطائفة أخرى دون هذه الطائفة ، وهم قوم بواطنهم سليمة وأخلاقهم

حسنة ، إلاّ أن ظواهرهم متدنسة بشيء من أمور هذه الدنيا ، وأعمالهم قاصرة يغلب عليهم حب الدنيا والطلب لها ، فهؤلاء أحوالهم متقاربة يُرجىٰ لهم الرجوع والانصلاح ، لا سيما إن كانوا أصحاب عقول ، فإن صاحب العقل لا يكاد يفوته الرجوع إلى ربه تعالى ولو طال شروده عليه ؛ إذ عقله يردّه إلى مولاه ، لأن شأن التمييز أن ينتهي بصاحبه إلى ما هو الأعود عليه والأصلح له وإن كان غارقا في غمرة الدنيا .

طائفة أخرى من الناس ظواهرهم حسنة ، يغلب عليهم السكون ، ولين الكلام ، والدخول في شيء من العبادات ، وربما كانوا أصحاب علوم وكلام في السلوك ؛ إلاّ أن بواطنهم رديئة مملوءة كبراً ، وطوياتهم خبيثة ، فأحوال هذه الطائفة مع مولاهم أحوال صعبة يُخاف عليهم الانحطاط وانقلاب الحال ، لا سيما إن كانوا أصحاب رياء وطلب سمعة ، وقلوبهم قلّ أن يفوتها ذلك ، فإن كانوا كذلك مع فساد بواطنهم . . فقد ساءت أحوالهم ، وتكمَّل نقصهم ، وتمت خسارتهم ، وخيف عليهم من سوء الخاتمة! نعوذ بالله من مكره ، ونسأله السلامة من الفتن .

* * *

فصل

عليك أيها الأخ بفعل الخير ، وابتغ بأعمالك وجه الله تعالى ، وإياك والغلوَّ والإفراطَ في الأعمال ، فإن الخيرات إذا اقتُصِد فيها . . وقعت موقعاً حسناً ، وإذا أُفرِط فيها . . تعلقت بها الأهواء ، وصارت من قسم النفوس ، ألا ترى إلى قول النبيِّ صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « لكني أنام وأقوم ، وأصوم وأفطر ، وآتي النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني »!

قال بعض العارفين : ما أمر الله تعالى العباد بأمر إلا تتبعه إبليس إما بالزيادة فيه أو النقص منه .

وقال آخر : الإفراط في الدّماثة كبر ، والإفراط في البشاشة سخف ، والإفراط في الشكر مَلَق .

هذا يُعلِّمك أيها السالك كيف تقتصد في أمورك ولا تغلو في شيء من أعمالك ، فقد يَفسُد على الإنسان عملُه وهو لا يشعر ؛ لغلبة الهوى عليه ، والأصل في هذا أن النفوس لها نوع تعلق بشيء من أعمال الخيرات ، إلاّ أن ذلك الشيء لا أصل له ولا حقيقة ، فقد يظهر من الإنسان الرقة واللين ، ويكون ذا قلب قاسٍ ، تكون رقته ولينه من نفسه لا من قلبه ، فهذا كثيراً ما يقع ، وكذا البكاء قد يغلب على أقوام قساة القلوب ، تكون نفوسهم ضعيفة ، وقلوبهم قاسية ، ولا معوَّل على ذلك ؛ إذ الاعتماد على ما يصدر من القلوب لا على تحامل النفوس ، وكذا سائر الأخلاق كل ما تعلق منها بالنفس . . فلا يُحتَفل به فإنه لا أصل له وإن كان مما يعجب به الناس .

فإذا أردتَ أن تميز بين ما يصدُر عن القلوب ، وبين ما يصدر عن النفوس ، فاستدل بالأثر على المؤثر ، مثال ذلك : أنك إذا رأيت إنساناً تظهر منه الرقة والبكاء . . فانظر إلى جِبِلَّته هل تناسب ذلك أم لا؟ فإن كانت جبلته تناسب الرقة والبكاء . . فاقض بأن ذلك صادر عن القلب ، وإن كانت جبلته قاسية صعبة لا تناسب البكاء والرقة . . فاعلم أن ذلك من النفس لا من القلب! واستدِلَّ على جبلته بما تقدم من القول فيه في الفصل قبل هذا من دلائل الوجوه على القلوب ، ونعيد هنا طرفاً من الكلام نحو ما تقدم فنقول :

اعلم : أن صاحب القلب الليِّن هو الذي تغلب عليه طلاقة الوجه وكثرة الابتسام ، لأن الوجه دليل القلب وخيال صورته ، وهو كالظل مع العود لا يخالف الظل شكل العود ، بل يدور معه كيفما دار ، كذا حال الوجه مع القلب ، فكل ما يضمره القلب . . يلوح من الوجه ، فأرباب البصائر يعرفون القلوب من الوجوه لا يتخالجهم في ذلك ريب ، وأبلغ ما سمعت في هذا المعنى قول شعبة بن الحجاج رحمه الله : إني لأرى قفا الرجل فأعرف ما في قلبه ، قيل له : فوجهه ، قال : تلك صحيفة تُقرأ .

وإذا كان القلب قاسياً . . رأيت الوجه صعباً عبوساً لا يكاد صاحبه يتبسم ، ويَظْهَر على صاحب القلب اللين الإلْفُ للإخوان ، والحنين إلى الأوطان ، والأسف على ما مضى من الزمان كما قيل : إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل . . فانظر إلى حنينه إلى أوطانه ، وحزنه على من درج من إخوانه ، وكثرة أسفه على ما مضى من زمانه .

فقد اتضح لك إذاً أن الرقة واللين يشترك فيهما أصحاب القلوب وأصحاب النفوس ، إلاَّ أن صلاح القلب ـ وإن كانت النفس سيئة ـ خيرٌ من صلاح حال النفس والقلب فاسد ؛ لأن قسوة القلب حالة رديئة ، وهي أقوى أسباب الشرور والمعاصي .

قال مالك بن دينار : ما ضُرِب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب .

والخطاب من الرّب تعالى إنما يوجَّه إلى أرباب القلوب ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ ، وقال تعالى في ذكر النفس : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ ، وقال تعالى فيما خاطب به موسى عليه الصلاة والسلام : وذُمَّ نفسك فهي أولى بالذمّ ، وناجني حين تناجيني بلسان صادق وقلب وَجِل .

واعلم أنه ليس للقلب شيء من الأمور الصحيحة إلاّ وللنفس في مقابلته ما يشابهه ويلتبس به ، فكما جعل الله تعالى للقلب الإرادة . . جعل للنفس التمني ، فكما جعل للقلب المحبة . . جعل للنفس الهوى ، وكذا الرجا للقلب والطمع للنفس ، والخوف للقلب والقنوط للنفس . وهذا كلام يحتاج إلى رويَّةٍ ونظر .

ومما يوضحه لك أنك ترى الرجل قد يكون عليه دَين ولا يؤدّيه ، ويكون معه شيء فيتصدّق به ويترك دينه ، فهذا هو الخير الذي يصدر من النفس ، لأن من النفوس نفوساً تكون مجبولة على المروءة والارتياح بالبذل ، فصاحب هذه النفس يلتذ بالإعطاء كما يلتذ بالمنع اللئيم .

وكذا قوم يُفرِّطون في واجبٍ ويطلبون نفلاً ، كما ترى من هؤلاء الذين يشغفون بالاكثار من الحج مع التخليط في جهات المال الذي يُنفق في الحج ، وإهمال التقوىٰ في كثير من الأمور ؛ وربما حج أحدهم ماشياً ويتهاون في الصلاة!

رُوِيَ عن الحسن البصري رحمه الله أنه قال : يقول أحدهم : أحج ، أحج ، قد حججتَ ، صِلْ رحماً ، نفِّس على مغموم ، أحسن إلى جار .

وكذا قوم يكسبون مالاً حراماً ثم يصرفونه في وجوه البرّ فهذا كله راجع إلى النفوس كما عرفتك ، لا تعلق له بالقلوب ، قد جعل الله إفراط الأمور

للنفوس وجعل الأمور المعتدلة للقلوب ، فإذا رأيت الأخلاق والعلوم والعبادات بسكون وطمأنينة . . فاعلم أنها صادرة عن القلوب وأصحابها أصحاب عقول ، وإذا رأيتها مزلزلة ، ورأيت بصاحبها الطيشَ والرعونة . . فاعلم أنها صادرة عن النفوس وأصحابها أصحاب هوىً ، زُهداً كان ذلك أو علماً ، أو أي شيء كان ؛ لأن الأهواء تُفسِد العقول وتزلزلها ، فشأن الهوى الإفساد أين حلّ ، فإن تعلق بالعقول . . خبطها وأزعجها ، وإن خالط الأديان . . دنَّسها ووحَّشها ، فترى الإنسان يكون حسَنَ التدين ، جيد السلوك حتى يخالطَ تدينهُ شيْء من الهوى . . فتراه إذ ذاك مختلط الأمر ، سيِّىء الحال ، ممقوتاً بين الناس ؛ لأن شأن الباطل إذا خالط الحق أن يُفسده .

فإذا كان الهوى يفسد العقول والأديان . . فما ظنك به إذا تعلق بأبناء الدنيا الضعيفة أنفسهم ، كيف يكون حالهم؟! فكل ما تفسده الأهواء تصلحه العقول ، فالهوى في مقابلة العقل ، إلاّ أن الهوى يُسَفِّل بصاحبه ويهوي به ، والعقل يسمو بصاحبه ويرفعه ، فشتان ما بين القسمين .

فترى صاحب الهوى كالأعمى لا يهتدي لطريق ، بل يُعميه هواه عن طلب شيء ما له حقيقة ، ولا يفكر في عاقبة أمر يحاوله ، بل دأبه وعادته مشاراة النَّاس ، وإكثار الخصومات ، وتضييع عمره في الهوىٰ والمفاضلة بين الأئمة .

وأما أرباب العقول . . فإنهم مشغولون بأنفسهم ، يُحكمون أعمالهم بالنيات الصالحة ، ويغتنمون أوقاتهم اغتناماً ، ويجتهدون فيما يقدرون عليه من الخيرات ، ويتأسفون على ما لا يقدرون عليه .

* * *

فصل

ينبغي لك أيها الأخ السالك أن لا تُفْرِط في التعزز وشدة الأنفة ؛ فإن ذلك مذموم يخرجك إلى حدّ الكبر ، وتفوتك خيرات كثيرة ، وتُخَيِّل إليك النفس أن ذلك من الزهد ، وهو ما يحفظ على أهل الخير ناموسهم وطريقهم ، وذلك تغليط من النفس ، وهوس مضرّ ؛ لأن شأن الإنسان في نفسه العلوّ والجراءة ، وطلب التوحد والرفعة على الناس ، فالنفس لا تزال تطلب ذلك إنْ تمكنت منه بطريق من طرق الدنيا ، وإلاّ . . تحيَّلت عليه إما بشبهة من علم أو زهادة يترفع الإنسان بذلك على الناس ، وتميل النفس إلى ذلك بِجِبِلَّتها ، وربما غلب عليها الهوى ، فيتوهم الإنسان أن الذي يأتيه حسَن ، أو أنه مما لا بأس به ، وهو على الخطأ وهو لا يدري ؛ لغلبة الهوى عليه كما يقال : إن بعض المشايخ ما شرب ماء قط في اليوم الصايف ـ حيث هو صاحب حلقة وجمع ـ وبعضهم ما رأى زنده قط ، ولا شيئاً من بدنه ، ويتستر لئلا يُرىٰ شيء منه ، وبعضهم يترك على رأسه خرقة ؛ لئلا يبين شيء من رأسه ، وهذا كله شعبة من الكِبْر لا مدخل له في الدين ؛ بل هو من هوى الأنفس ؛ إذ طريق السلف الأوّل سُهولة الأخلاق ، والبذلة والتهاون بالأنفس ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل على الأرض ، ويجلس على الأرض ويقول : « إنما أنا عبدٌ آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد » .

وليس التنطع والصلف من طريق أهل الدين في شيء ، بل هو شيء من زخارف العُرف ، يستحسنه العوام لغرابته ، وإذا أردتَ برهان ذلك . . فانظر إلى سيرة الرسول الأمي صلى الله عليه وسلم ، وإلى ما يُقال عنه

وعن أصحابه من سهولة الأخلاق والتهاون بالأنفس العزيزة ، وكذا رُوي عن موسى عليه الصلاة والسلام أنه كان يستظلّ في عريش ، ويأكل ويشرب في نقير من حجر ، فإذا أراد أن يشرب . . كرع كما تكرع الدابة تواضعاً لله تعالى عز وجلّ .

وهذا كله راجع إلى ما قدمتُ لك من القول فيه من محافظة هؤلاء السادات على مقام العبودية ، وتباعدهم عما هو خاص بعزّة الربوبية ، وأن لا يُرَوا بعين إعزاز وتعظيم ؛ إذ العزّةُ عندهم خاصةٌ بالله الواحد القهار .

فشأن رجال الحق تعالى الوقوف عند حد البشرية في جميع ما يحاولونه في أكلهم ، وشربهم ، ولباسهم ، وجميع أنحائهم ، ويرون الأَنَفَةَ من كل ذلك نوعاً من الكِبْر الذي ليس من شأن البشرية ، فيقفون عند حدّهم ، ويتأدبون مع ربهم ، وكذا لا يُفرِطون في إعزاز أنفسهم بحيث يعظم عليهم أن يعابوا ، أو أن يُنتَقَصوا ، أو يُقال في أحدهم ما يكره ، إذ يَرون أنفسهم أهلاً للعيوب ؛ وَضْعاً منهم لأنفسهم ، وتهويناً منهم في أعراضهم وما يُقال فيهم ، وإيثاراً للكمال والعزّة لله الواحد القهار .

من ذلك ما رُوي أن الله تعالى أوحى إلى عيسى عليه السلام : إن لم تَطب نفساً أن أجعلك مضغة في أفواه الماضغين . . لم أكتُبْك عندي من المتواضعين » .

وكذا رُوي عن سفيان الثوري رحمه الله تعالى أنه قال : من أحبّ أن تُجْمِع النَّاسُ على مدحه ولا يذكره أحد بسوء . . فذلك منافق .

وكذا لا ينبغي للإنسان أن يتجاوز حدَّه ، فلا تبلغ به العزّة إلى حدّ يأبى أن يسأل إذا احتاج ، بل ينبغي أن يَنزل عن مقام الرفعة إلى مقام الذلّ والانكسار حيث قد أريد به ذلك ، فلْيَتَلَقَّ أمرَ ربه بالأدب والقبول ؛ فقد

جاء في الحديث : « مَن احتاج ولم يسأل ومات . . فهو في النار » .

وإن جمحت بك نفسك ، وشق عليها ذلك . . فاذكر حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؛ فقد سألوا عند الحاجة ، فإنَّ موسى والخضر قد سألا لما أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما ، وكذا رُوِي أن سليمان بن داوود عليهما السلام لما زال عنه ملكه واحتاج . . سأل .

فإذا عرفت أحوال هؤلاء السادات ومسألتهم عند الحاجة . . هانت عليك نفسك ، وتنازل قدرك في نظرك ؛ فلا تطمعنّ في العز ، فتطلب دوام ما اعتدته من رخاءِ العيش ، وعلوِّ الحال في موطن يراد بك فيه الإذلال والابتلاء . . فتعادي ربك فتنقهر ، فتخسر آخرتك مع ما قد فاتك من دنياك ؛ لأن الأحوال تحول ، وأمور الدنيا تزول ، فتأدب بين يدي مولاك ، وقِفْ عند حدِّك . . تسترحْ .

فتلمَّح أيُها الأخ هذه الأمور ، وقِفْ عند غوامضها ، وتخلَّقْ بها إن كنت طالب حقٍّ ، وكن كما قِيل : من أحبَّ نفسَه . . نظر لها ، وتقرّب إلى مولاك بما ترى في هذا الكتاب من أحوال هؤلاء الخُلَّص الأخيار ، الذين شأنهم معاملة ربهم فيما ينفع عنده ويُزلِفُ لديه ، فإذا كان الإنسان ذا وجاهة ورفعة عند الناس . . فينبغي له أن يخفض من نفسه ، وأن يعامل الله تعالى بكَسْرِ شيء من وجاهته ، فيساعد الناس على ضروراتهم ومصالحهم ، فيشفع للمنكسرين ، ويكون وصلة للفقراء إلى الأغنياء ، وإن ذهب شيء من وجاهته . . عوَّضه الله تعالى بما هو خير له .

ومما نحن فيه أن قوماً يُنسَبون إلى الصلاح ، وتحسن ظنون الناس فيهم يَردُّون الفتوح التي يتواصلون بها ، وهذا منهم ضعف رأي وقلة علم ، وسوء دخيلة حفظاً للناموس ، ومراعاة لمدح العوام ، لأن في الأخذ كسْراً ، وفي الامتناع منه ترفُّعاً وتعززاً ، والهوى يخلِّب النفس

ويغلِّظها ، فلميل النفس إلى الترفع يتوهم الإنسان أن امتناعه من الأخذ زُهداً ، وليس كذلك!

ويُقَوِّي هذا الوهم على هذه الطائفة استحسان العوام للامتناع من الأخذ ، وذلك غلط لا ينبغي للعاقل أن يَبني عليه أمرَ دينه . . فهو من حماقات الجهال ؛ لأن العوام أكثر ميلهم مع الباطل ، ونَهْيُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم لعمر رضي الله عنه حين أعطاه فردّ معلومٌ ، فقال له : « يا عمر ؛ إذا آتاك الله شيئاً من هذا المال من غير مسألة فخذه ، فإن كنت محتاجاً إليه . . فتموّله ، وإن لم تكن محتاجاً إليه . . فاصرفه إلى غيرك »!

وليس من شيم الأخيار ترك ما ينفع عند مولاهم حفظاً للناموس ، ومراعاة لمدح العوام ؛ لأن شأن العارفين إيثار مرضاته تعالى ، سواء كان في ذلك إعزاز لجانبهم ، أو كسرهم وهوانهم في أعين الناس ؛ لأنهم يرون الأهمّ مراعاة جانب المولى تعالى ، فالسلاطين مثلا إذا أعطَوا أحداً شيئاً للشهرة والذكر بين الناس . . فالأولى أخذه ؛ لأنه إن كان محتاجاً إليه . . فليصرفه في ضروراته ، وإن كان غنياً عنه . . فليصرفه إلى الفقراء والمساكين ؛ فإنهم مستحقون دون غيرهم .

فإن قال قائل : قد يكون ردّه من جهة خوف حرمته ؛ فإن أموال السلاطين الغالب عليها الحرمة . . قلنا : هذه الأموال الحرام التي في أيدي السلاطين مجهولة ، ولا يمكن ردّها إلى أربابها ، فيجب صرفُها إلى أرباب الضرورات من الفقراء والمساكين ؛ إذ لا سبيل إلى غير ذلك ، ولا ينبغي إتلافها ورميها في البحار .

فهذا الرجل الصالح إذا حصل بيده شيء من أموال السلاطين ، فإن كان من الحرام الذي تقدم ذكره . . فينبغي لهذا الصالح أن لا يُفَوِّته ، بل

يقبله ويصرفه إلى أربابه من هؤلاء المستضعفين الهلكى ، الذين يتعذر عليهم القوت ؛ إذ من المعلوم أنه إذا ردّ هذا المال . . فإنه يذهب على هؤلاء الضعفاء الذين هم مستحقوه .

وقد كان الحسن البصري رحمة الله عليه مع رسوخ قدميه وجلالة قدره يقبل صلة الحجاج ، وعلمُ الحسن معلوم .

وقد رُوِيَ عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان يقبل صلة السلطان ويقول : لا أسأل أحداً شيئاً ، ولا أردّ ما رزقني الله .

فإن قال قائل : فالأوّلون قد ردّوا صِلات السلاطين . . قلنا : ردّوا في موضع الردّ ، وأخذوا في موضع الأخذ ؛ فإن الشافعي رحمة الله عليه ردّ صلة الرشيد حيث كان المجلس غير لائقٍ بالأخذ ، فإن الشافعي وَعَظ الرشيدَ فَلاَنَ قلبُ الرشيد ورق ، وكان الغالب على المجلس أمر الآخرة خشوعاً ورقة ، فما كان الأخذ لائقاً ، وقد قبل الشافعي من الرشيد في غير ذلك المجلس حيث كان الأخذ لائقاً ؛ فإن الأحوال تختلف .

وأيضاً فإن ذلك الردّ كان في أزمان الرخاء ، وسعة الأرزاق ؛ إذ كان في الناس رمقٌ ، ولم تكن أزمان الأوّلين كأزماننا هذه في ضيق الأرزاق وقلة الفوائد ، ولو كان الأوّلون الذين ردّوا صلات السلاطين في أزماننا هذه . . لأخذوا الأموال ، وتفقدوا بها ضرورات هؤلاء المستضعَفين اليوم ، الذين قد أضرّت بهم الأحوال ، ومالت عليهم الأزمان ، فلا شيء أفضل من النظر في أحوال هذه الخليقة المقهورة ، وتفريج صغارهم .

فاحذر أيّها الأخ أَنْ يُلَبِّسَ عليك الشيطان ، فَيَخفى عليك وجه الصواب ، أو تقصد قصداً سيئاً فتراعي جانب المخلوقين إيثاراً لحسن اعتقادهم فيك ، ليقال إن فلاناً ردّ جائزة السلطان ؛ لأن الردّ والامتناع من الأخذ يكسب النفس تجبراً وعلوّاً لا حاصل له عند الله تعالى ؛ إذ المعوَّل

عليه عند العارفين أصحاب الصدق والتحقيق ما ينفع عند المولى تعالى ، وإن جرّ ذلك عليهم طعناً في جانبهم ، وكَسْراً لوجاهتهم .

وكذا العادة فيما خلُص من أعمال البرّ أن تُكسر أربابها وتُوحشهم في نظر العوام ، ولكنها ترفعهم عند الله تعالى! فأيما أحب إلى العبد أن يرفع عند الله جلت عظمته أو في نظر العوام؟

فليت شعري إذا فتح للعبد مئة دينار ، فألهمه الله أنِ افْتقِدْ بها مائة بيت من هؤلاء المساكين المحرومين ، فسُرَّهم ووسِّعْ عليهم ، وفرِّح صغارهم . . فأيما أفضل وأولى عند العقلاء ذوي النظر الصحيح ردّها والامتناع من قبولها أو صرفها إلى هؤلاء المساكين؟ لا يشك عاقل أن صرفها إلى هؤلاء المحاويج المحرومين أولى .

فلا شيء أضرُّ على الإنسان من طلب العلوّ والتجبر في سلوكه ؛ إذ من شأن العارفين الخُلَّص الرضا بالذل والانكسار ، ومراعاة صفة العبودية ؛ لكيلا ينازعوا شيئاً من صفات الربوبية ، إشفاقاً منهم وحذراً ؛ لأنه قد قيل : مَن طلب البقاء والغنى والعز . . فقد نازع الله صفاته .

وكذا رُوِيَ أن الرب تعالى قال لموسى عليه السلام في الخطاب : ما خلقت خلقاً ينازعني في ملكي غير النفس ، فإن أردت رضاي . . فخالفها .

فعليك أيُّها الأخ بطريق الملخصين الصادقين ، واحذر بَلِيّات الطريق ، فلا تراعِ ناموسك ، وتُهمِلْ ما ينفعك عند مولاك ؛ فإن ذلك يُفْسِد عليك حالك ، ويخبِّط عليك سلوكك ، فلا تعوِّلَنَّ على عقولِ بعض العوام ممن ضَعُف علمه وعمله ، وغَلَب عليه هواه من تعظيمهم واستحسانهم لطرق بعضهم ممن ينتمي إلى الزهد ، ويأتي بأمور مُنكَرة مستغربة ليست من طرق أهل الخير ، ولا يرتضيها أهل العلم ، ولا لها

حاصل في الدين ؛ لأن هؤلاء العوام المساكين لقلة علمهم أكثر ما ينهجون ويتابعون هؤلاء الذين يُغْرِبون ويَخرُجون عن سَنن الصالحين في زيهم ، ويخالفون عُرف الأخيار في أقوالهم وأحوالهم ، فترى العوام المساكين دأبهم هجران أصحاب السنن ، واطِّراحهم وموالاتهم لهؤلاء المُغْرِبين المدّعين الذين أتباعهم النوكى والسفهاء ، وهذا كله من انقلاب الزمان وفساد الأحوال .

ولكثرة البدع وأربابها في وقتنا هذا . . قد ضعُف جانب أهل الخير ، وانقبضوا ، وسكتوا على مضض ؛ مراعاة لأقدارهم ، وحفظاً لأنفسهم ، لما يرون من قوّة الباطل وكثرة أهله ، وقلة أنصار الحق ، فبذلك فسدت الأحوال ، واستولى الجهال فافهم ، وأسأل ربك الخلاص من فتن هذا الزمان ، فليتأسَّ السالك ذو الهمة بالإمامين الهاديين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وليعتبر بما رُوِيَ عن القوم من التواضع واللين في قوّة إلى حدّ يعجز عنه ذو المسكنة والفاقة مع جلالة قدرهما ومكانتهما من الإسلام .

رُوِيَ أن الإمام أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه لما وُلِّي الخلافة . . قالت جويرية من الحي : وُلِّي أبو بكر الخلافة . . إذاً لا يحلب لنا منائحنا! فقال : بلى يا بنية ، إني لأرجو أن لا يمنعني ما دخلت فيه عن خُلُقٍ كنت عليه ، فكان يحلب للحيِّ شياههم ، وربما أتى إلى أهل المنزل فيقول : أتحبون أن أَحلِب لكم؟ .

وقال عروة بن الزبير رضي الله عنهما : رأيت عمر رضي الله عنه وقد حمل قربة ماء على ظهره ، وهو يمرّ بها في الأسواق ، فقلت له : يا أمير المؤمنين ؛ لا يصلح لك ذلك ! فقال : بلى ، إنه أتاني وفود العرب سامعين مطيعين ، فدخلت نفسي نخوة ، فأحببت كسرها ، فذهب بها حتى صبها في بيت امرأة أرملة من الأنصار .

فاحذر أيُّها الأخ السالك أن يُلبِّس عليك الشيطان فيريَك الباطلَ في صورة الحق ، فتتوهم أنك تعمل لله وأنت تعمل لنفسك ولا تدري ، فقد قيل : إن الشيطان ليفتح للعبد تسعة وتسعين باباً من الخير ، حتى يوقعه في باب من الشر .

فينبغي لك أيُّها الأخ أن تُحضِر فهمك لهذه المعاني ؛ لتُحْكِم أعمالك بالنيات الصالحة ، فبذلك تنزل البركات وتنمو الخيرات ، وإذا قَلَّتِ المعاملات للرب تعالى وضعفت أسبابها . . قلت الخيرات ، وارتفعت البركات ، ونزلت العقوبات من السماء إلى الأرض ، وعمت الغموم ، وفسدت أحوال الخليقة .

هذه الأمور لازمة لا تكاد تخطىء ، فأخلصوا أعمالكم أيُّها الإخوان ؛ لتَصْلُحَ أحوالكم ، وعاملوا الله معاملة حسنة ؛ فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ، فالعبد مَجْزِيٌّ بنيته ، مُعطَىً بحسن طويته ، فإن صدق ربه تعالى ووالاه . . تولى الله حفظه وحماه ، كما ذُكِر أن عليًا رضي الله عنه قال في خطبته : أَلاَ إنَّ أبا بكر أوّاه منيب القلب ، أَلاَ وإنَّ عمرَ بن الخطاب ناصحَ الله فنصحه الله ، ألا وإنهما خرجا من الدنيا خميصين ؛ أي : جائعين .

* * *

فَصْلٌ

ينبغي لك أيُّها الأخ أن تجعل الصدق نصب عينيك ، ومقدِّمة أمورك ، فقد قيل : الصدقُ سيف الله في أرضه ، ما وضع على شيء إلا قدّه!

واعلم : أن الصدق بمعنيين : صدقُ اللسان ، وصدقُ القلب ، فصدقُ القلب : هو أصل صدق اللسان ، وهو عمدة القوم ومعوَّلهم ، وصدق اللسان حَسَن ، لكن صدق القلب مصدره وأصله ؛ لأنه يدل على عمارة الباطن ونزاهة النفس ، والكذب وإن كان قبيحاً سيئاً ، لكنَّ كَذِبَ القلب أقبحُ وأضر ؛ لأنه يدل على خراب الباطن وفساد حال النفس دناءةً ولؤماً ، وتلزم منه أشياء رديئة تزيد على الكذب ، يدل الكذب عليها ؛ لأن الإنسان إذا هانت نفسه عليه ، ولم يبال أن يراها بعين الخساسة والنقيصة . . دلت حالته هذه على الدناءة وعلى الوضاعة ، فنافت حاله القرب من الرب سبحانه وتعالى .

والإنسان التام يُشْفِق أن يَرَى هو نفسَه بعين النقيصة ، وإن لم يَطَّلع على حاله أحد ، فصاحب الكذب يهوِّن على نفسه العيب والمنقصة ولو اطلع عليه كما قيل : ما كَذَبَ كذَّابٌ قط إلاّ من هوانِ نفسهِ عليه .

فاعلم إذاً : أنَّ صدقَ الباطن لا يُمِيل القلبَ عن نهج الصحة بل تكون العدالة شعار الباطن ، فإذا عَمَرَ الباطن بتعويد الصحة ، واستشعار الصدق . . تعذر على اللسان حينئذ أن يفوهَ بزورٍ أو يُوردَ كَذِباً ؛ لأن اللسان ترجمان القلب لا يؤدّي إلاّ ما أُلقِيَ إليه ، فإذا كان القلب صادقاً ، فكيف يرد عنه الكذب؟! هذا مما لا يمكن ، فبان لك أن الباطن إذا عُوِّد

الصحة . . صارت له حالة وملكة ، فلو رام الإنسانُ أن يكذبَ تعذَّرَ عليه ؛ لبُعد باطنه عن الكذب ، وكذا كل خلل يظهر من الإنسان في قول أو فعل فهو لخللٍ من الباطن ، إما من ضعف العقل ، أو لهوىً يقهر الإنسانَ ، فيختلط سرّه ، فصاحب الهوى إذا صحا . . ندم على ما فرط منه ، وأما الضعيف العقل . . فليست له أوقات صحو ، فلا يَفْطَن للخلل الداخل عليه ، ولا يُرجَىٰ صلاحه ، فافهم واجهد . . تصب بعون الله ومشيئته .

* * *

فصل

١٦

قد قررنا الكلام في تصحيح العزائم وحسن النيات ، وإعمال الهمم عند مباشرة الأعمال .

والآن نذكر في هذا الفصل التحذير من الدخول في شيء من الأعمال والبر لغير الله تعالى ، قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « لا تطلبوا العلم ، لتباهوا به العلماء ، وتماروا به السفهاء ، ولتتجبروا به في المجالس ، فمن فعل ذلك .. فالنار النار »!

وكذا ورد أنَّ الربَّ سبحانه وتعالى قال في بعض الكتب السالفة : إني ليس كل كلام الحكيم أتقبل ، إنما أنظر إلى همِّه وهواه ، فمن كان همُّه وهواه لي .. جعلتُ صمتَهُ ذِكْراً ونظرَهُ عِبَراً .

وكذا ينبغي لك أيُّها الإنسان أن تحذرَ التحلِّي بشعار الزهادة وقصدك أن تتميز به على الناس ؛ لتُعرَف بذلك ، وتُكرمَ به ، أو تنال به شيئاً من عرض الدنيا الدنيئة ؛ فإن ذلك صعب عند الله تعالى ، ينبغي للسالك أن يتَّقِيَهُ ، ولا يهوِّن فيه ؛ فإن ذلك يفتح عليه أبواباً ضارة تفسد عليه قلبه وهو لا يدري .

قال عليٌّ كرم الله وجهه : عاملُ الدينِ للدنيا جزاؤه من الله النار .

فالإخلاص أصل عظيم هو أثبت دعائم الإيمان ، وعليه المعوَّل عند العارفين ، وهو على قدر إيمان العبد ومعرفته بالله عزّ وجلّ ، فمن كان إيمانه قليلاً .. كان إخلاصه ضعيفاً ، فإذا صفا القلب واستنار ، واشتد

تعلقه بالرب تعالى .. يصير العبد إذ ذاك موالياً للحقِّ جلت عظمته ، فحينئذ يُخْلِص العبد في الأعمال ، ويجانب الرياء .

قال العارفون : إخلاصُ العبد من قوة اليقين ، والرياء يتولد من فساد القلب وضعف اليقين .

واعلم : أن الإخلاص لا يتأتى لكل أحد ولو رامه ؛ لأنه على قدر الجِبِلاَّت والخلق ، فأما أصحاب الأنفس الضعيفة والقلوب الفاسدة .. فيتعذر عليهم أن يتوجهوا بقلوبهم إلى الله تعالى عند المعاملات ؛ لضعف بصائرهم ، فبصائرهم كأبصار الخفافيش ، لا تستطيع أن تقابل الشمس لضعفها ، فيضطرهم الحال إلى أن يتقوَّوْا بنظر المخلوقين عند المعاملات ؛ لما قد جُبلوا عليه من ضعف الأنفس وفساد القلوب ، ولا كذلك أرباب القلوب الصافية المنوَّرة ؛ فإن الصدق شعارهم ، لو رام أحدهم أن يخرج عنه .. لم يستطع ؛ لقوّة بصيرته وصحة فطرته .

والرياء : هو الشرك الخفي ، وهو ذنب عظيم مبعدٌ للعبد عن ربه تعالى ، قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « مَن سمَّع الناسَ بعلمِه .. سمَّعَ اللهُ به سامعَ خلقِه ، وحقَّره وصغَّره » ، فالمؤمن يُري ولا يرائي ؛ أي : يظهر من عمله ما يُقتدى به ، فهذا قصد حسن ، والتمييز بين مَن يُري ويرائي إنما هو بالنية .

فاحذر أيُّها الأخ أن تُرائي بشيء من أعمالك ؛ فإن الرياء طريق رديء يفسد الأعمال ، ويخرب القلوب .

قال عبد الله بن أبي زكرياء رحمة الله عليه : بلَغَنا أنَّ الرجل إذا راءى بشيءٍ من عمله .. أَحبَطَ ما كان قبل ذلك ، وهذا صعب جداً .

وهذا ابن أبي زكرياء حجة فيما يقول ، وكان وليًّا من أولياء الله تعالى ، وكان مجابَ الدعوةِ ، وهو الذي طلب منه عمر بن

عبد العزيز رضي الله عنه أن يدعو له بالموت ، فدعا له فمات! والقصة معروفة .

رُوِيَ أن عمر بن عبد العزيز أرسل وراء ابن أبي زكرياء ، فقال له عمر بن عبد العزيز : إن لي إليك حاجة ، قال ابن أبي زكرياء : مقضية يا أمير المؤمنين ، قال عمر : أحب أن تحلف لي عليها ، قال : لا حاجة ، قال : بلى أحب أن تحلف لي .

قال : فحلف له ابن أبي زكرياء ، فقال له عمر : أحب أن تدعو لي بالموت ، فقال ابن أبي زكرياء : لا تفعل يا أمير المؤمنين ؛ اعفني ، إذَن أكون عدوّاً لأمة محمدٍ صلى الله عليه وسلم ولبئس الوافد أنا للمسلمين ، فقال عمر : لا أُعْفِيَك ، فقال ابن أبي زكرياء : ولا بد ؟ فقال عمر : لا بدّ ، فقال ابن أبي زكرياء : اللهم اقبضه إليك .

قال : وولد صغير يلعب بين يديه ، فقال عمر : وهذا الصبي فإني أحب أن يكون معي ، فقال ابن أبي زكرياء : اللهم وهذا الصغير أيضاً ، ثم قال : اللهم لا تبقني بعده ، قال : ففي ذلك الأسبوع مات عمر بن عبد العزيز والصغير وابن أبي زكرياء رحمة الله عليهم أجمعين .

فهذا الرجل الموفق ـ عمر بن عبد العزيز ـ قد كانت الدنيا تحت حكمه شرقاً وغرباً ، ما خالفه فيها مخالف ، ولا نازعه فيها منازع ، وكان عُمْره نيفاً وثلاثين سنة ، وكان مُلْكُه ساكناً والرعيةُ مُحبةً له ، ومع ذلك متبرمٌ بالحياة ومؤثر للموت ، فانظر إلى أرباب العقول الصحيحة ، والأنفس الفاضلة كيف يتبرمون من البقاء في هذه الدنيا الدنيئة أنفة منها ، وشرفاً من أنفسهم عليها ، لما يتلمَّحون بدقة نظرهم مِن معايبها ، فعقولهم تتبعهم لما ينكشف لهم من بواطن أمور الدنيا ، فهم أتعب الناس وإن كانت الدنيا مواتية لهم ، والجاهل المسكين لقصور نظره لا يرى إلاَّ زخارفها

ومحاسنها ، ولا رؤية له تُريه ما يخفىٰ من عيوبها ، فهو أفرح الناس بحاله ، وأقرّهم عيناً بعيشه ، وربما كان حقيراً فقيراً كما قيل :

ذو العقلِ يشقىٰ في النعيمِ بعقلِهِ وأخو الجهالةِ في الشقاوةِ يَنعمُ

فكلما تمّ عقل الإنسَان . . استقامت أحواله ، فيميل إذ ذاك إلى العدل والصحة ، ويطلب الفضيلة والكمال ، فتبقى بينه وبين الدنيا منافاة وغربة ، فيصير وحيداً بين الناس ؛ لاعتدال أخلاقه ، فيتعب ويطلب الخلاص من هذه الدنيا الدنيئة ، والفوز بالدار الآخرة كما قال عليٌّ رضي الله عنه وكرم وجهه :

جزى الله عنَّا الموتَ خيراً فإنه أبـرُّ بنـا مِـنْ والِـدِينـا وأرأفُ
يعجل تخليصَ النفوسِ مِن الأذىٰ ويُلحِقُ بالدارِ التي هي أشرفُ

وإذا قلّ علم العبد بالرب تعالى ، وضعف إيمانه . . فَسد قلبُه ، واختلط سرُّه ، فلا يكاد صاحب هذا القلب يُخلِصُ عملاً ؛ لكثافة الحجاب بينه وبين مولاه تعالى ، فيغلب على هذا العبد عمى القلبِ ، ويصير دأبه التزين ، وينفتح عليه باب الرياء ، ويطلب السمعة فتأتيه الشرور والبليات من كل جانب ، فلا يلومنّ أحداً على ما يراه منه من سوء نظره ، فإن ذلك قسمه من العقل .

فالذي تراه في الناس من معانٍ خافية ، وما اشتملت عليه بواطن أحوالهم يُلمح بعيون القلب ، ولكن الناس فيهم من يكون قلبه أعمى ليس له علم إلا ما يراه بعينه ، أو يسمعه بأذنه ، أو قلد فيه غيره ، ولكنَّ طريق الرأي عليه مسدود ، ولا سبيل له إليه . . .

ولانتشار هذه الخلة الرديئة في كثير من العوام فسدت الأحوال ، واختلطت الأمور ، ومال العوام مع كل ناعق مما انتشر بين الحمقى ذكره ، وكثرت من السفهاء جموعه ، سواء كان صاحبَ حقٍّ أو صاحب

باطل ، فتقاعست إذ ذاك نفوس العارفين أَنَفة وغضباً ونفوراً عن الخلق ؛ لتكاثر المبطلين ، ولكونهم قد بقوا غرباء لا قرناء لهم ، حيث أَخذ موضعهم هؤلاء الأراذل أصحاب الدعاوي والجهل ، فهؤلاء القوم المساكين يضيعون أزمانهم في الخرافات والأشياء الفارغة ظناً منهم أنهم في شيء من الدين ، ولو فطِنوا لسوء حالهم . . لحزنوا على أنفسهم ، فافهم واعمل على الحقيقة فقد محضتك النصيحة .

* * *

فَصْل ١٧

ومِن أَحَبِّ القُرَبِ إلى الله تعالى ما قد جرَّبه العلماء وأهل المعرفة ، هو النفع المتعدي من اصطناع المعروف جبراً للقلوب المنكسرة ، وإطعاماً لذوي الأكباد الجائعة ، وإدخالاً للسرور على المساكين المحرومين ، فهذا القسم من الخير يؤَثِّر تأثيراً عجيباً في القلوب .

قِيل : أوحى الله تعالى إلى ذي القرنين عليه السلام : ما خلقت خلقاً بعد العقل أحبَّ إليَّ من المعروف ، وسأجعل لك عليه عَلَماً ، فمن رأيتَني قد حبَّبتُه إليه ، ويسَّرتهُ عليه ، وألهمتُ الناسَ الطلبَ إليه . . فأحْبِبه وتولَّهُ ؛ فإنه أحبُّ الخلقِ إليّ ، ومن رأيتَني قد بغَّضتُ إليه المعروفَ ، وعسَّرته عليه ، وصرفتُ وجوهَ الناسِ عن الطلب إليه . . فأَبْغِضْهُ ، وآبْرأْ منه ؛ فإنه أبغضُ الخلقِ إليّ .

فإذا أردتَ أن تنالَك رحمةُ الله عز وجل ، ولا تفوتك عواطفه . . فارحم خلقه ، وتحنن عليهم ، فقد قيل : الراحمون يرحمهم الرحمن ، ومن لا يَرْحمْ لا يُرْحَمْ ، فافهم .

واعلم : أنك كما تدين تدان ، فالربُّ تعالى مَجْدُه وتقدّست أسماؤه له عواطف عميمة ، ورحمته وتحننه على خلقه ، وله رحمة سابغة لخلقه ، فالسعيد مَن أُلْهِمَ الخير فاقتفى رحمته وتحننه على خلقه ، والشقيّ من أُلْهِمَ الإضرار بهم والقسوة عليهم ، نعوذ بالله من درك الشقاء .

ألا ترى إلى ما جاء في الحديث عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم : « أن بَغِيًّا من بغايا بني إسرائيل رأت كلبا يلهث من العطش . . فسقته ، فشكر الله تعالى لها وغفر ذنبها »!

فانظر إلى رحمة الله كيف لحقت هذه المرأة الخاطئة برحمتها لهذا المخلوق المحتقَر ، فما ظنك بالأخيار من أبناء جنسك ، وربما كان بعضهم فاضلاً عليك في الدين وفي الأخلاق وإن كان ظاهره لا يُعطي ذلك ، فعليك بالرحمة ، وسماحة الخلق ، وسلامة الصدر ، وإن لم يكن ذلك في طباعك . . فتطبَّعْهُ وتخلَّقْ به ، واحذر خطايا القلوب وخفايا الذنوب ، وما أحسن ما قال بعضهم : يا أصحابَ الذنوب الخفيةِ ؛ احذروا العقوبة الخفية .

ولِخَوَاصِّ الحق جل جلاله في هذا الباب أسرار لطيفة ، يعاملون الله تعالى بها أمام حاجاتهم ؛ لتنجح مطالبهم ، كمثل طلب الشفاء لمرضاهم ، لكن على وجه فيه غموض لا يطلع عليه كل أحد .

فمن الأسرار التي قد جرب العارفون المعاملة بها هو أنهم يكثرون الصدقات على ضعفاء الخلق عند النوازل ، وهجوم المخاوف والأمراض ، وعند الوقوع في أيدي الظلمة ، لكنهم يَزِنُون ذلك بميزانٍ عقلي ، فيبذلون في كل نازلة شيئاً على قدر البلية في عظمها وخفتها ، فيجعلون لما خف أمره معاملة دون ما صعب فيه المطلوب ، وإذا عز المطلوب وعظم . . بذلوا لذلك شيئاً جليلاً .

فافهم هذا فإنه ينفعك إذا وُفِّقت لفهمه والمعاملة به ، فإذا عرف الإنسان هذه الأسرار . . فقد مُنِح شيئاً من علوم ذوي الخصوص ، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ .

* * *

فصل ١٨

ومن محاسن المعاملات : تواضع ذوي الأقدار للأخيار المستضعفين ، كعيادة المريض المسكين ، وتشييع جنازة الغريب الفقير ، وزيارة ذوي الخمول .

رُوِيَ أن الربَّ تعالى قال في بعض الكتب المنزلة مما أوصى به الأمم السالفة : سِرْ مِيلاً عُدْ مريضاً ، سِرْ مِيلَين شيِّعْ جنازة ، سِرْ ثلاثة أميال أجب دعوة ، سِرْ أربعة أميال زُرْ أخاً في الله تعالى .

ورُوِيَ أن سليمان بن داوود عليهما السلام كان إذا دخل (بيت المقدس) . . عمد إلى أدنى حَلقةٍ فيه من الضعفاء والمكافيف وأهل المسكنة ، فيجلس إليهم ويقول : مسكين جالس مساكين .

ورُوِيَ أن الربَّ تعالى قال في ما خاطب به موسى عليه السلام : إياك والكبر ، فلو لقيني جميع خلقي بمثقال حبة خردل من كِبر . . لأدخلتهم النار ، ولو كنتَ أنت وإبراهيم خليلي ، يا موسى أتحب أن لا ننساك؟ فقال : نعم يا رب ، فقال : أَحِبَّ الفقراء ، وادْنُ منهم ، وبشر الصَّادقين ، وأنذر المذنبين .

وما أحسن ما رُوِيَ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم في هذا المعنى ، وهو قوله : « إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد أن أطيلها ، فأسمع بكاء الصبي فأتجوّزَ فيها ؛ لما أعلم من وَجْدِ أُمهِ عليه » فينبغي للإنسان أن يكونَ سمحاً سهلاً خارجاً عن طريق الهوى .

واعلم : أن للقلب حياةً وموتاً ، فعلامة حياته إشراق نور العقل فيه ،

فينشرح الصدر إذ ذاك ، فتخمد النفس وتنقمع وتنكسر سورتها ؛ لبطلان آلتها وهو الهوى ، لأنه إذا قويت العقول.. تلاشت الأهواء ، قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « لما خلق الله العقلَ ، قال له : أقبل ، فأقبل ، ثم قال له : أدبر ، فأدبر ، ثم قال له : اسكن ، فسكن ، فقال : وعزتي وجلالي! ما خلقت خلقاً أحبَّ إليّ منك ، ولأسكننك في أحب الخلق إليَّ ، فبك آخذ وبك أُعطي .

ثم خلق الحمق ، فقال له : أقبِلْ ، فأَدْبَر ، ثم قال له : أدبرْ ، فأَقبَلَ ، ثم قال له : اسكُنْ ، فاضطربَ ، فقال : وعزتي وجلالي! ما خلقت خلقاً أبغض إليَّ منك ، ولأسكننك في أبغض الخلق إليّ » .

فترى العبدَ إذا كان قلبه حياً محبَّباً إلى الناس ، عليه أنس ، ساكن البال ، صالح الأفعال ، وَقوراً مَهيباً لما عليه من أنوار الحق لائحة.. ترتاح النفوس برؤيته .

﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

وترى العبدَ إذا كان ميت القلب ، كاسف البال ، سيِّء الأفعال ، مضطرباً في الأحوال ، عليه وحشة ومقت ، منقاداً بزمام الهوى ، قد أعماه هواه أن يرى معايبَ نفسه.. فإذ ذاك يتحير القلب ويضطرب بمنزلة إنسان قد خَرِبَ بيته ؛ لأن القلب مسكن العقل ، فهو يستوحش لخراب مسكنه .

* * *

فصل

واعلم : أن موتَ القلبِ قد يكون من أصل الخلقة ، وقد يكون بما يطرأ عليه من الأحوال السيئة المميتة للقلوب .

أما القلب الميت من أصل خلقته.. فهو القلبُ القاسي الذي لا يلينُ ولا يخشع ولا يألف ولا يرحم ، فصاحب هذا القلب يكون رديءَ الفطرة ليس له استئناس بباطنه ؛ فتراه يكره الوحدة ، ويميل إلى الجموع ، ويحب الهذَر والقيل والقال ، والدخول في الفضول ، فصاحب هذا القلب يكون بعيداً عن الله تعالى سيِّء الفطنة في أمور الدين ، لا يكاد ينتفع بموعظة ولا إرشاد كما قيل :

إذا قسا القلبُ لم تنفعه موعظةٌ كالأرضِ إنْ سَبِخَتْ لم ينفع المطرُ

والقلب الذي يطرأ عليه الموت ، هو الذي يُكْثِرُ صاحبه المعاصي ، ويُقَلِّلُ من عمل الخيرات .

* * *

فَصْلٌ

أما صاحب القلب الحيّ .. فهو الرحيم الهَيْن اللَّيْن ، السهل القريب ، الآلِف المألوف ، فترى صاحب هذا القلب مستأنساً بباطنه محباً للوحدة ، كارهاً للقيل والقال ، مجانباً للشرور والخصومات ، فليُبشِر صاحب هذا القلب ؛ فإن قلبه موضع نظر الرب وخزانة حِكَمِهِ وأسراره .

رُوِيَ أن الربَّ تعالى قال في بعض الكتب السالفة : إن السمٰواتِ والأرضَ لم تطق أن تحملني ، وضقن من أن يسعنني ، ووَسِعَني قلبُ عبدي المؤمن الوادع .

فهذا القلب هو سرّ العالم ، وينبوع العجائب ، وموضع الأسرار الإلهية .

وللقلوب التي هذا شأنها أحوال غريبة ، وللنفوس في مقابلتها أيضاً أفعال عجيبة ، إلاّ أن بين القلوب والنفوس بَوْناً ومضادة من إصلاح أحوال القلوب ، وسوء ما يصدر عن النفوس ، لكن قد تشتبه أفعال أصحاب النفوس بأحوال أصحاب القلوب ؛ لأن أحوال أصحاب القلوب أفعال خيرات ، وإظهار كرامات ، وأما أفعال أصحاب النفوس .. فإنها أفعال نارية شيطانية ، لها التأثير البين في أحوال هذا العالم ، وهي بلوى وفتنة ، يبتلي الله بها عباده كما شاء .

وقد وقع في وقتنا هذا التباس عظيم ، وتشبيه خفي على طريق الصالحين من أقوام لم يُؤثر عنهم كثير صلاح سوى الإكثار من الدعاوي ، والإدلال على الله تعالى ، ولم يُنقَلْ عن هؤلاء شيء من أخلاق الأخيار

المتقدمين ؛ لأن الصالحين لم يُنقَلْ عنهم - مع جلالة أقدارهم ، واجتماع الكلمة على صلاحهم - شيء من هذه الدعاوي ، ولا قيل عن أحدٍ منهم أنه تفوّه بتزكية نفسه ، ولا إدلال على الله تعالى ، بل كان شأن الصالحين الأوَلِ كثرة البكاء والخشية من الله تعالى ، مع حسن أعمالهم وكرم أخلاقهم ، حتى قد كان بعضهم - وهو زبيد الشامي رحمة الله عليه وكان من كبار الصالحين - يدور على عجائز الحيّ في اليوم المطير يقول : من لها في السوق حاجة؟ من تريد أن أشتري لها شيئاً من السوق؟

وهذا إبراهيم بن أدهم رحمه الله مع اجتماع الخلق على صلاحه قد بُلِيَ بجندي ضرب رأسه بالمقرعة ، فطأطأ رأسه وقال : اضرب رأساً طالما عصى الله .

وقال أبو سلمة : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبو العيال يسلّم على أبواب النساء الأرامل ويقول : أَلَكُنَّ حاجة؟ وأيتكن تريد أن أشتري لها شيئاً؟ فيُرسِلن معه بحوائجهن ، ومَن ليس عندها شيء .. اشترى لها من عنده ، وكان يأتي أبواب المُغَيَّبات اللاتي أزواجهن غُيَّبٌ فيقول : إن كان عندكنَّ من يقرأ لكنَّ الكتب ، وإلا .. فاقربن من الأبواب حتى أقرأ لكُنَّ ، وكان يمرّ بالمُغَيَّبات فيأخذ كتبهن فيبعث بها إلى أزواجهن .

وقال بعضهم : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا قدم عليه الوفد .. سألهم عن حالهم وأسعارهم ، وعمن يعرف من أهل البلاد ، وعن إبراهيم : أنه كان يسأل عن أميرهم هل يدخل عليه الضعيف؟ وهل يعودُ المريضَ؟ فإن قالوا : نعم .. حمد الله تعالى ، وإن قالوا : لا .. كتب إليه أن أَقبل .

فهذا شأن الصالحين الصبر واحتمال الذُّل محافَظَةً على طريقهم مع الله تعالى ، ومراعاةً لمقام العبودية ؛ لأنهم قد علموا يقيناً أنهم متى انكسروا .. ارتفعوا عند الله تعالى ، ومتى عَلَوا وارتفعت أحوالهم ..

انحطت منزلتهم عند الله تعالى ؛ لأن خواص الحق تعالى شأنهم المحافظة على مقام العبودية ذلاً وانكساراً ، وصبراً واحتمالاً ، فهم يتحفظون أن يقاربوا شيئاً مما اختص به الرب تعالى ، وهو التجبر والتكبر والتعاظم والعُلوّ ، وهذا سرّ عظيم من أسرار العارفين ، فمن عرفه وقدر على العمل به . . فقد وقع على الكنز .

هذا شأن الصالحين الأوّلين فاعرفه ، وهذا القدر كافٍ في التنبيه لأصحاب العقول السليمة ، فهم بعقولهم يستخرجون سرّ هذا القول ؛ إذ لا يمكن إطلاق الكلام بالكلية في هذه الأمور الغامضة ، وهي كما قيل :

إنـي لأكتـمُ مِـن علمـي جـواهـرَه   كي لا يرى العلمَ ذو جهلٍ فيفتَتِنا

وأما هذه الأحوال الحادثة في وقتنا من الدعاوي والإدلال على الرب عز وجلّ . . فمن أصعب الأشياء عند الله تعالى ، وأخوفها عاقبة على أربابها ، وقال بعض العارفين : عقوبة أصحاب الدعاوي سوء الخاتمة ، ولذا رُوِيَ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : مَنْ قال : إني عالم . . فهو جاهل ، ومن قال : إني برّ . . فهو فاجر ، ومن قال : إني في الجنة . . فهو في النار .

وأما هذه الخوارق التي تشتبه بالكرامات ، وتصدر عن أقوام لم يُؤنس منهم شيءٌ من أخلاق الصالحين ، وشأن أربابها الدعاوي والكلام المنكر الذي لم يُنقَل مثله عن الصالحين الأوّلين . . فهذه فتن ومِحَن ، ولا تدل على صلاح أربابها ؛ لأن هذه الخوارق لها أصول ترجع إليها ، يعرفها الحذاق وأهل الفهم .

فتارة تكون هذه الخوارق منسوبة إلى الشياطين كما هو معلوم من أحوال الكهنة ؛ فإنهم يوالون الشياطين ويستحضرون الجن والشياطين بأشياء تختص بالشياطين ، وتناسب طباعهم فتخبرهم الشياطين بالمغيّبات .

وتارة تكون الخوارق مستندة إلى أصحاب السيميا ، وهو علم منهيٌّ عنه ، شبيهٌ بالسحر ، يتعاطاه أقوام لا دين لهم ، يجوّعون أنفسهم ، ويهجرون الأشياء المباحة كاللحم ونحوه ، فيحصل لهم نوع كشف وتسلط في هذا العالم فتنة وبلوىً ابتلى الله تعالى بها عباده كما شاء ، فهذا النوع من الكشوف والخوارق التي تشتبه بكرامات الصالحين قد يظهر مثلها على أيدي الرهبان ومشركي الهند ، فلم يَصِرْ لها اختصاص بالدين ، بل هذه الأشياء تارة تحصل بما تقدّم ذكره ، وتارة تحصل لأقوامٍ يجوِّعون أنفسهم في البيوت المظلمة ؛ لأن الإفراط في الجوع ، والتضييق على النفس يحدّ النفس ، ويجعلها فعالة نافذة في الأشياء .

وهذه الأمور وإن كانت مستغربة مُعْجِبَة فليس لها تعلق بالدين عند الله تعالى ولا تنفع ، بل ربما ضرّت ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام : « كلُّ محدثةٍ بدعة ، وكلُّ بدعة ضلالة ، وكلُّ ضلالة في النار » .

فالجوع الذي هو أقوى الأسباب في هذه الكشوف والخوارق منهيٌّ عنه ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام : « كلُ عمل ليس عليه أمرنا فهو ردّ » ، وكذا قوله صلى الله عليه وسلم : « إياكم والوصال ، إياكم والوصال ، إياكم والوصال » ، فكيف تلحق هذه الخوارق بالكرامات؟! وإنما تحصل بأمور منهي عنها ، والكرامات إنما تجري على أيدي الأخيار والصلحاء الذين يلازمون السُّنن ، ويكثرون من الأعمال الصالحة ، فهم محل قابل للمواهب الإلهية و﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ فافهم الفرق بين القسمين .

ومن هنا قد تحيَّر الناس في شأن هؤلاء الذين تظهر منهم الكشوف ، وهم غير ملتزمين لقواعد الدين كالصلاة ونحوها ، وطائفة قد أشكل عليهم أمرُهم ، ولم يدروا على ماذا يحملون أمر هذه الكشوف ، حيث

رأوا أربابها غير ملتزمين لقواعد الدين ، وطائفة من الناس قد اعتقدوا الولاية في كل من تظهر منه هذه الكشوف كائناً من كان ، وهم عوام زماننا ، وهذا خطأ ؛ إذ الكشوف - كما قد بينا لك - تظهر من الصِّدِّيق والزنديق بالأسباب التي بيّناها لك ، وأسبابها خفية مختلفة كما تقدّم .

وقد أفسدت هذه الكشوفات والإخبار بالمغيَّبات التي تشبه كرامات الصالحين أحوال الناس في زماننا هذا ، والتَهَى الناس بها عن كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والنظر في أعمال الصالحين المتقدمين اشتغالاً بهذه الخرافات ، فلا تغترَّنَّ أيُّها الأخ الصالح بهذه الخوارق ، ولا تخلُد إلى أربابها ؛ فإن هذه الخوارق قد تصدر عن قوم خبثاء يخدعون بها الناس ، ولقلة علم هؤلاء العوام المساكين يحسبون هذه الضلالات كرامات ، فيُحسنون الظنّ في أربابها ، فيضلون بمتابعتهم وهم لا يشعرون .

ولكن التميز بين كرامات الأولياء وما يصدر عن هؤلاء الخبثاء الفتَّانين عسير جداً لا يكاد يُتَخلص ، وليس إلى معرفة ذلك سبيل إلا أن يعتبر حال الإنسان الذي تصدر عنه هذه الأفعال الخارقة من سداد أفعاله ، وحسن تدينه ، وحميد طرائقه ، فما تكاد تلتبس عليك إذن كرامات الأخيار ، وفتن الأشرار ، وهذا علم دقيق فتَنَبَّهْ له تنتفعْ إن شاء الله تعالى .

* * *

*جاء في المطالب القدسية للشيخ حسين مخلوف ص ١٩٦/١٩٧ : تفرق علماء الكلام الخارق إلى ستة أقسام لأنه إن ظهر على يد مسلم وكان مقروناً بكمال العرفان ومقترناً لدعوى النبوة (فمعجزة) وإن لم يقترن بها وظهر على يد النبي قبل نبوته (فإرهاص) ومن غير النبي (فكرامة) وإن ظهر على يد مسلم ولم يكن مقروناً بكمال العرفان (فمعونة) وهو ما يظهره الله على يد عوام المسلمين تخليصاً لهم من المحن والمكاره ، وإن ظهر على يد الكافر وكان موافقاً لدعواه (فاستدراج) وإلا (فإهانة) .... وقد يطلق اسم الاستدراج على ما يطلق عليه اسم المعونة . اهـ

*وانظر سبل الهدى والرشاد الجزء ٩ ص ٥٦٨ قال : فرق بعضهم بين المعجزة والسحر والكرامة : قال الإمام المازري : الفرق بينهم أن السحر يكون بمعاناة أقوال وأفعال حتى يتم للساحر ما يريد ، والكرامة لا تحتاج لذلك بل إنما تقع غالباً اتفاقاً أما (المعجزة) فتمتاز عن الكرامة بالتحدي ونقل إمام الحرمين الإجماع على أن السحر لا يظهر إلا من فاسق وأن الكرامة لا تظهر على يد فاسق . وينبغي أن تعتبر بحال من تقع منه الخارق فإن كان متمسكاً بالشريعة [illegible]

*وانظر للتفريق بين المعجزة والسحر وآثار الرياضة الروحية ص ١٢/١٣ من كتاب [illegible] لسعيد حوى . ما قاله : السحر والشعوذة نوعان من العلوم التي تخضع لقوانين هذا الكون وإن كانا مجهولين إلا للأقلين أما المعجزة فبقدرة الله الذي يقول للشيء كن فيكون فليست أثراً عن علم أو تجربة أو قانون .

فصل

في الهوى وإن كان مذموماً . . ولكنه حكمة من حكم الرب تعالى في خليقته ؛ لأنه قوّة النفس ، ولولاه ما احتملت الأنفس هذه الكُلَف الشاقة ، وهذه الأثقال المتعِبة التي قد بُليَتْ بها ؛ لأن النفس إذا اعتراها الكلال والملال ، وكادت تجنح بصاحبها . . جدّدت بشيء من الهوى ، ولهذا المعنى ينبغي للعاقل أن يروّح نفسه بشيء من هذه الملاذ المباحة ، إلا أنه لا يكثر من ذلك ، ولا يُفْرِط فيه ، ألا ترى إلى قول الشاعر :

أفِدْ طَبْعَكَ المكدودَ بالجدِّ راحةً ... يَجِمُّ وعَلِّلْهُ بشيء من المَزْحِ

ولكنْ إذا أعْطَيتَه المَزْحَ فليكنْ ... بمقدار ما يُعطَى الطعامُ من المِلحِ

وقد تقدّم لنا من القول أن الأمور المقتصَد فيها مما قد يقتضيه العقل ، وإذا أُفْرِطَ فيها . . عادت أهواء ، فكذا الهوى اليسير منه لا بأس به ، فإذا أَفْرَطَ الإنسان فيه . . صار مُسْرِفاً مذموماً .

مثاله : أن الاقتصاد في الأكل حسن ، فإذا أفرط الإنسان فيه . . خرج إلى حد الدناءة والنهم ، وكذا الملبس ، الاقتصاد فيه حسَن تجملاً ، فإن الله جميل يحب الجمال ، واللباس الوسط شعار طائفة من الصالحين ، فإذا أفرط الإنسان فيه ، وتغالى في قيمته ، وقصد به الترفع على الناس والبذخ عليهم . . خرج إلى حد الكبر والخيلاء ، ودخل في باب الإثم ، وكذا كل شيء القصْد فيه حسَن ، والإفراطُ فيه هوى مذموم .

فالهوى معنىً عجيب ، وسرّ من أسرار هذه الخليقة ، فلولاه لعُدمت مصالح الأسفار والمساعي ، وعُدم كثير من منافع الناس ، وأقصر التجار عن كثير من الأسفار والمساعي في البر والبحر ، ولتعطَّل على الناس كثيرٌ من معايشهم وأسبابهم ؛ فقد جعل الله بحكمته المتقَنة الهوى سبباً لتواصل العالم في معايشهم وأرزاقهم ، ولتقوى نفوسهم على متاعب الدنيا ، فيحملهم على اقتحام الأخطار ، وركوب البحار ، ولولا ما يستروح إليه هؤلاء المساكين من أهل الكدّ والتعب بما ينفِّسُ عنهم من الأهواء . . لأضرت بهم الهموم والغموم .

فأهل الدنيا المساكين يفرحون بالأماني المستبعدة ، ويرتاحون إلى الأهواء المتوهمة ، وتنشط نفوسهم بما يؤملونه من جمع الأموال تفاخراً ومباهاة ، ولو قنع هذا الفريق من الناس بأخذ قدر الضرورة . . لتعطَّلت مصالح الناس ، ولتعذر إيصال الأمتعة إلى الأقاليم البعيدة ، فهذه حكمة الهوى فافهم ، فأصحاب الحق تعالى لم يُخلَقوا لهذا المعنى فشأنهم غير شأن هؤلاء المستعبَدين بأهوائهم ، الذين قد سُخِّروا لمصالح الغير وهم لا يشعرون ، فترى الأشياء إذا خلت من الأهواء فاترة جامدة مزهوداً فيها كائنة ما كانت ، دنيوية كانت أو غير دنيوية ؛ لأن النفوس هي التي تقيم الأشياء وتزينها ، والنفوس تحتاج إلى غذاء ، وغذاؤها الهوى ، فإذا فقدت النفوس غذاءها . . كانت بمنزلة الدابة إذا فقدت العلف فكيف تقدر على حمل الأثقال؟! وكذا الأسفار؟ فافهم هذا السر .

فترى أهل ضعف الغرائز متى عُدِمُوا الهوى تَبرّموا وضاقوا بالأشياء ذرعاً ، واعترتهم كآبة ، بخلاف أحوال العارفين ذوي البصائر ؛ فإن ما عندهم من حسن اليقين يقوي أنفسهم على احتمال المجاهدات والمشاق ، فيكون ذلك لأنفسهم بمنزلة الهوى لأهل ضعف الغرائز ، وقلة التمييز فافهم .

فالهوى خُلُق مستعذب . . إلا أن عاقبته إما مُضرّة أو حسنة حسبما ينشأ منه ، وما أحسن قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المعنى : الحق ثقيل إلا أنه مَريءٌ ، والباطل خفيف إلا أنه وبيءٌ .

فأصحاب الأعمال والمجاهدات يحتملون ويصبرون فكأنهم يقولون بلسان حالهم :

وإنا لنلقى الحادثاتِ بأنفسٍ ... كثيرُ الرزايا عندهنّ قليلُ
يَهُونُ علينا أن تُصابَ نفوسُنا ... وتَسلَمَ أعراضٌ لنا وعقولُ

* * *

فَصْلٌ

هذا الكلام الذي قدّمناه في ذكر الهوى هو الهوى الذي يتعلق بالأنفس ، وأمره قريب ، وأمّا الهوى الذي يتعلق بالقلوب والديانات . . فهو أصل عظيم في إفساد الأعمال والأحوال ، وهو منبع الضلالات ، ومنشأ الشرور والبليات ، ومنه تتولد الأحقاد والخصومات ، وأهل الفهم عن الله تعالى قد حَذَّروا منه تحذيراً شديداً ، حتى قالوا : معنى قولِهِ صلى الله عليه وسلم : « أخوف ما أخاف على أمتي . . الشهوةُ الخفية » قالوا : هي أعمال البِر بالهوى .

قال أهل المعرفة : الهوى يلازم ضعف العقل ، فمتىٰ كان هذا الإنسان أوفرَ عقلاً . . كان أقلَّ هوى ، فإذا قلَّ الهوى . . كره الإنسان الشرور والمماراة والخوض في الفضول ، وكره التطلع إلى معايب الناس ، وأحب الأمور الصحيحة ، ولزم ما يعنيه ، وأخلص الطاعات ، ورحم الخلق ؛ لعلمه بأنهم مقهورون تحت الأقضية ، مغلوبون بالمقادير .

وإذا قلّ عقل الإنسان . . مال إلى الأشياء الدنيئة ، ولهج بالفضول وأكثر الخوض فيما لا يعنيه ، وتراه حَنِقاً على الناس ، دأبه الخلاف ومشاراة الناس ، هذه الأمور لازمة لهذه الطائفة ، لا تكاد تُخْطِئُهم ، وليس لأرباب هذه الأخلاق حيلة في الخلاص منها إلا بالالتجاء إلى الله تعالى ، وإدامة المسألة لِيخلص العبدُ من هذه البليات ، فإذا أنكر العبد شيئاً من أخلاقه ، وأحسّ من نفسه برداءتها . . فليستغث بمولاه لِيُصْلِحَ فاسدَه ، ويُطَهِّرَ خبثَه برحمته ؛ فإن للدعاء تأثيراً بيّناً .

قال الإمام مالك بن أنس رحمه الله : ليس من السُنَّة أن تجادل بالسُنَّة ، ولكنْ تُخْبِرُ بها ، فإن قُبِلَ منك ، وإلا . . فأمسك .

واعلم : أن أهواء أهل التدين أصعب علاجاً من أهواء أهل الجهالة ، لأن أهل التدين إذا غلب عليهم الهوى لا يشعرون بقبح ما يأتونه ، بل يُلَبِّسُ عليهم الشيطان ، ويخيِّل إليهم أن ذلك من أجلّ القرب إلى الله تعالى ، ولا يشعر أحدهم ؛ لاستغراقه في الهوى ، وذلك لكونهم يعرفون أنهم مجدّون في طلب مرضاة الله تعالى ، ولا تتخيل إليهم الضلالة في أنفسهم ، وأهل الجهالة على ثقة من أنفسهم أنهم على طريق الجهالة ، فهم يُردَعون عن الهوى بأيسر علاج من أهل التدين ، وذلك لكونهم يعترفون بأمراض أنفسهم ، وأهل التدين ربما غلب عليهم الهوى وهم على ثقة من أن الباطل لا يدخل عليهم ، وقد قال أرسطاطاليس في ذلك معنىً عجيباً ، وذاك قوله : من لم يُعَرَّفْ بمرضه فلا سبيل إلى بُرْئِهِ!

واعلم : أن هذه النفوس مجبولة على حب المغالبة ، والاستطالة على الناس ، فإذا لم يتمكن الإنسان من إظهار ما في نفسه من أمر دنيوي . . حاول الاستطالة على الناس في أمر ديني ، كما ترى هذا في هؤلاء الذين شغفوا بالخوض في العقائد والمفاضلة بين الأئمة ، وربما يتجرأ أحدهم على أقوام أخيار يوافقونهم في الاعتقاد والمذهب ، ويخالفونهم في أهوائهم وقبح طرائقهم وعلومهم ، فينسبونهم إلى سوء المذهب وسوء الاعتقاد ؛ لمخالفتهم إياهم في أخلاقهم وسوء مقاصدهم ، وهذا كله من غلبة الهوى ، لأن الهوى إذا غلَبَ مَنَعَ من التمييز .

وقوم يظهر هواهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فتراهم يفضحون الناس ، ويتتبعون آثارهم ، ويتبجَّحون بأذاهم ، وربما نشأ من ذلك شرور عظيمة ، وآثام صعبة ، وهذا كله من فساد الزمان ، وسوء الأحوال .

ألا يعلم هذا المسكين أن ذلك من ميل النفس إلى الشرور والمغالبة ، ولا يعلم المسكين أن الطريق إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما هو الرفق والملاطفة ، وأن يكون الإنسان في ذلك كطبيب يداوي مجنوناً؟! فلتكن نيته إنقاذ العاصي مما بُلي به من الخطيئة .

وقوم يظهر هواهم في استعمال الماء حتى لو أصاب إنسانٌ طاهرٌ ثوبَ أحدهم بنداوة الوضوء لخاصمه ، ولذهب يغسل ما أصابه ، يضيع أحدهم عمره في الهوس في أمور متعبة ، تمقته عند الناس ، ولا يحصل بها إلاَّ على التعب ومخالفة السُّنَّة .

وأما هوى هؤلاء المبتلين بالشهوات الدنية من المطاعم والملابس ونحوهما ، فمعالجة أهوائهم أسهل من معالجة أهواء أرباب التدين ؛ لما أنبأتك من استعلاء نفوسهم ، وغلبتها لهم ، فلا يصغون لزاجر ولا لائم .

واعلم أيُّها الأخ ـ أرشدك الله ـ : أن هذه الأهواء بلية من بلايا هذا العالم ، والطريق إلى تقليلها ودوائها تسكين النفوس من غليانها ، ومعاشرة الأخيار ، والتشبه بهم في أنحائهم ومقاصدهم ؛ فإن شيمة العقلاء العمل على حقائق الأشياء ، فشأنهم التقرب إلى الله تعالى بمحاسن مراضيه ، فلا يكاد أحدهم يدخل في أمر يُقَبَّحُ عليه ، فترى العاقل سهلاً طلقاً ، والناس معه في راحة ، وترى الجاهل المتدين يمقت الناس ويمقتونه ، فهو دهره في عناء ، والناس معه في بلاء .

* * *

فصلٌ

اعلم : أن الله تعالى جعل هذه العقولَ لعباده أنواراً يستضيئون بها في أصول الخيرات في أمورهم قاطبة ، فهم بتفاوتهم في العقول تتفاوت طبقاتهم في الأعمال الدينية والأحوال الدنيوية ، فلا يغرنَّك ما ترى في بعض الناس من زيّ وأبهة ولُبس ، فإن كان مع ذلك سداد وحسن تدبير في الأفعال والأقوال ، وإلا . . فلا تحفل به ، ولا تعوّل عليه ؛ فإن ذلك قد يكون في أقوام ضعيفة عقولهم ، فإذا ظهر سلطان العقل على الإنسان . . جاءته الصفات الحميدة ، والأخلاق المرضية ، والطباع الكريمة من صدق القول ، ونزاهة النفس ، والوفاء بالعهود ، والنظر في العواقب ، وحبِّ معالي الأمور ، والحياء والبشاشة ، وكتمان الأسرار ، والمداراة ، والصبر عما تدعو إليه النفس .

فهذه الصفات لازمة لصحة العقل ، وضدها الصفات الذميمة لمن ضعف عقله ، فإذا تمّ عقل الإنسان ، وقارب الكمال . . مال حينئذ إلى الزهد في هذه الدار الدنية ، وعزفت نفسه عن هذه الملاذ الفانية .

واعلم : أن من لوازم العقل أن العقلاء أصبر نفساً ، والجهال أصبر جسماً :

والصبرُ بالأرواحِ يُعرَفُ فضلُه ... صبرُ الملوك وليسَ بالأجسامِ

واعلم : أن أكثر ما تكون العقول في أصحاب القلوب الرقيقة اللينة ، فهؤلاء هم أصحاب الفهوم الثاقبة ، والآراء الصائبة ، وتقلّ العقول في أصحاب القلوب القاسية الغليظة ، فإن أصحاب القلوب القاسية يقتحمون

الأمور القبيحة ، ولا يبالون بالمذمة ، ولا يألمون أن يُرَوا بعين نقيصة ؛ لقسوة قلوبهم ، وكثافة أرواحهم ، وأكثر ما يكون الأشرار من هذا القسم . فاعلم .

أما أصحاب هذه القلوب الليّنة السليمة العارفون بسر هذا الوجود ، وما بنى الله عليه أمرَ خليقته . . فهم يعملون بمقتضى علومهم ، ودقة فهومهم ، وهم في راحة بما مُنِحوا من الأفهام وعمارة الباطن ، وعموم الناس في خَبْطٍ ونزاع ، وقيل وقال ، يضيِّعون العمر النفيس في الهوس ، ويلهجون بأمور فارغة يتوهمونها قُربةً وهي أهواء ضارة ، فأصحاب الحق جل جلاله تثلج صدورهم بما مُنِحوا من العلوم والفهوم كما قال الشاعر :

أنامُ ملء جفوني عَنْ شَوارِدِها   ويسهرُ الخلقُ جَرَّاها ويختصموا

فالتعب كل التعب حتى يحصل للإنسان المعونة على نفسه ، ويعترف بعيوبها ، ومن لا يتمكن من هذا المعنى . . فعلمه قاصر ، فكم مَن يحسب أنه على شيء ، فإذا اعتبرتَ حقيقةَ حاله . . وجدتَ أعماله هباءً منثوراً ، وقد تقدّم لنا ذكر مقامات ثلاثة من طرق العمال ، ونوردها هاهنا زيادة إيضاح فنقول :

اعلم أيُّها الأخ : أن مراتب أهل الخير متفاوتة ، وطبقات الناس في الأعمال مختلفة ، فكل رتبة من الخير عليها طائفة من الناس ، فالأعلى من الخيرات عليها خواص المَلِك جلّ جلاله ، وهم العارفون الذين يُنَقُّون الأعمال تنقية ، وتسمو نفوسهم وهممهم إلى النفائس منها ، ويبالغون في الترتيب والتقرّب إلى الله سبحانه وتعالى بمحاسن الأعمال ؛ لأن الأعمال منها حسن وأحسن ، فهذه الطائفة العالية لا يعاملون الله تعالى إلا بالأحسن ؛ لما منحهم الله تعالى من صفاء القلوب ، ونوَّر مولاهم

قلوبَهم ، فأنارت بواطنهم ؛ ولذلك صار اهتمامهم بتصحيح النيات وتحسين المعاملات ، وتعلَّقت أسرارهم بربهم تعالى في أغلب الأوقات ، فبذا حازت هذه الطائفة قصبَ السبق ، وتقدّمت على باقي الخلق .

وطائفة أخرى من أهل الخير دون هذه الطائفة المذكورة ، أهل خيرات وإكثار معاملات ، ولكن لا تبلغ رتبتهم إلى مقام الطائفة الأولى ، لا أقول إن أعمال هذه الطائفة تقصر عن أعمال الطائفة الأولى ، ولكن أقول أسرارهم وقلوبهم تقصر عن الوصول إلى حال أُولي المرتبة الأولى .

وطائفة ثالثة من أهل الخير ، وهي الطبقة الأخيرة من أهل الخيرات والمعاملات ، لكن خيراتهم قاصرة قليلة الجدوى ، ومعاملاتهم يداخلها خلل ، ويتعلق بها نوع هوىً بحسب ما قَسَم لهم المولى من العقول الضعيفة ، وفي كل هذه الطبقات خير ، ولكن أحوالهم مختلفة ، ومراتبهم متفاوتة ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ ، ويعتقد الفضيلة في طريقه .

واعلم أيُّها الأخ : أنك سترى جموعاً وطوائفَ قد اجتمعوا على نشر العلوم ، وذكر أحوال الصالحين ، فإن رأيتَ أفعالهم تناسب أقوالهم . . فكاثرهم ، وادن منهم ، وإلاَّ . . فابعُدْ عنهم فهو أسلم لك ؛ لما تقدم أن الأعمال إذا خلت عن صحة المقاصد . . انعكست على أربابها فغيرت قلوبهم ، وأفسدت بواطنهم ، كما أن من شأن الغش إذا سكن الباطن أن يُعمِيَ القلب ، ويُضعِفَ الرأي ، فأصحاب سلامة الصدور هم أهل الفهوم والعقول .

* * *

فصل ٤

اعلم : أن طائفة من أهل الخير هم الهيِّنون الكرام المنخدعون ، قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « المؤمن غِرٌّ كريم ، والفاجر خَبٌّ لئيم » ، فترى جماعة من الأخيار مغلَّبين ، صدورهم سليمة ، مَن دعاهم . . أجابوه ، ومن رغب إليهم . . مالوا إليه ، ومَن خدعهم . . انخدعوا له ؛ لِلِينهم ، وسلامة بواطنهم ، وبُعدهم عن الخيانات ، وقلة علمهم بالمحالات .

وطبقة أخرى من أهل الخير أعلى من هذه الطبقة ، وهم أرباب العقول الراجحة ، والهيبة اللائحة ، الذين أمورهم محكمة حزماً وتيقُّظاً وفطنة وتحفظاً ، لا يكاد أحدهم ينقلب إلاَّ بعلمه فيما أحبّ أن يتساهل فيه تكرّماً وانخداعاً (إنَّ الكريمَ إذا خادعتَهُ انخدعا) ، وهو لا يُظهر ذلك .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (لست بِخَبٍّ ولا يخدعني الخبُّ) .

وقال المغيرة بن شعبة رضي الله عنه : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أعقل من أن يُخْدَعَ ، وأكرم من أن يَخْدَعَ .

فترى أهل هذا القسم الأخير لِمَا أشرق عليهم من أنوار الحق ، ولاح عليهم من حسن مواهبه تعلوهم هيبة ، ويصير لهم سلطان على الأنفس ، تُجِلُّهم وتخضع لهم إذا قابلَتْهُم ، تنقاد النفوس إلى تعظيمهم طوعاً وكرهاً ، فهذه الطبقة الأخيرة أعلى رُتَب الخير فافهم .

* * *

فصل ٥

ومما يتعلق بما قدمنا القول فيه : أن طائفة من الناس منقوصون ، يغلب على طباعهم الخَبُّ وخبث النفس ، فتشتبه أحوالهم بأحوال العقلاء ، وليس أهل هذا القسم من العقلاء بما سنبين لك ، فترى أهل هذا الخلق الذميم أخلاقهم شيطانية ، وأذهانهم سريعة الإدراك ، فهذه الطائفة إدراكاتُهم حِسيَّة ، مرجعُها إلى الأنفس ، وذكرنا لهذا المعنى من العقل والخَبّ لينبني عليه لنا غرض مطلوب في وضع هذا الكتاب ، وهو ما قدمنا القول فيه أن الدين مرتب على العقل ، فعلى قدر عقل الإنسان يكون دينه كما تقدّم .

فالخَبُّ هو الرجل الخبيث الداهي ، يقال رجلٌ خَبٌّ بفتح الخاء ، وفيه خِبٌّ بكسرها ، والخَبُّ الذي تأتي منه الشرور والحيل بسرعة ، ويدق فهمه في الرذائل ، وهذا يكون من قوة الحس لا تعلق له بالعقل ؛ لأن الإدراك للحس ، والتمييز للعقل ، وهذه طائفة مرذولة عند العقلاء ، يغلب عليهم عمى القلب ، وسوء الرأي ، إذ لو كانت لهم آراء وفكرة صالحة . . لما اختلّ حالهم ، ولا اختاروا لأنفسهم المراتب الخسيسة من التصدّي للشرور ، وأذية الناس واحتقارهم .

والإدراكات الحسية ليست بفضيلة ، ولا أصحابها معدودون في قسم العقلاء ؛ إذ كثير من الحيوان أَجْوَدُ حِساً من الإنسان ، ألا ترى إلى هذا الطير كيف يعرف فصول السنة ، واختلاف الأزمنة ما لا يعرفه الأذكياء من الناس ، ولا فضيلة لها ؛ إذ الفضيلة لأرباب العقول ، وهم ذوو الآراء

الصالحة ، والأخلاق الحسنة ، والذين يغلب عليهم الخير وسلامة الصدر .

فهذا الخَبُّ تراه نافذاً في الشرور ، غلاَّباً للناس ، وتراه مع ذلك سيّىء التدبير لنفسه ، مختلّ الأفعال ، فلو كان هذا الخَبُّ صحيحَ العقل . . لكان هذا اختياره لنفسه ؛ إذ ثمرة العقل حسن الاختيار ، ألا ترى إلى قول الإمام الشافعي رحمه الله : لو أن إنساناً أوصى بثلث مالِه لأعقلِ الناس . . لرأينا أن نصرفه إلى الزهاد في الدنيا ، وإنما قال الشافعي ذلك لجودة اختيارهم لأنفسهم من ترك الدنيا الدنيئة ، فلجودة اختيارهم جعلهم أعقل الناس ، فافهم هذا ؛ فإن هذا دليل واضح .

* * *

فصل

ولكن قَلَّ أن يجتمعَ للإنسان صحةُ العقل مع جَودة الحسّ ، هذا لا يكاد يقع إلاَّ نادراً ، وإلا . . ففي أغلب الأحوال أنه متى جاد حسّ الإنسان . . نقص ذلك من عقله ، ومتى توفر عقله . . أضر ذلك بحسه ؛ لأن صاحب العقل يكون ذا فكرة فتشغله فكرته بتفصيل الأشياء وتمييزها ، فيعزُب ذهنه عن ضبط الأشياء وحفظها ، والذي يَضعُفُ عقلُه يَقِلُّ فكرُه ، فيتوفر حسه على ضبط الأشياء وحفظها ، فلهذا صار أصحاب الحسّ أكثر حفظاً ، وأقل تمييزاً ، وقل أن يجتمع لأحد صحة التمييز مع جودة الحفظ ؛ لعزّة الكمال ، إذ الأشياء إنما تقع في هذا العالم معاوضات ومحاسبات ، إذا أُعطِي الإنسان شيئاً من جهة . . نقص بحَسَبِه من جهة أخرى ، كما ترى ذلك في العقول والأموال . . قلَّما تجتمع .

وكلما صلحت حالة الإنسان ديناً وعقلاً ومروءة . . ساءت حاله في دنياه ، وقَصُر به الحظ ، فلا يكاد يَحظىٰ من دنياه بطائل ! لا تختلف هذه القاعدة إلاّ نادراً .

قيل : أوحى الله تعالى إلى داوود عليه الصلاة والسلام : إني لا أجمع لأحد بين الحذق والرزق .

وهذه الحالة تقع في الناس مراتب ، فكلما ارتفعت طبقة الإنسان ، وقاربت حالة التمام . . انحط بختُه بحَسَبِ ذلك ، وتجهمت له الدنيا فنفرت عنه ، ويبقى الإنسان حينئذ وحيداً ، قليل المشاكل ، محروماً في أغلب مساعيه .

إن المقـدَّمَ فـي حِـذقٍ بصنعتِـه		أنَّـىٰ تـوجَّـهَ يـومـاً فَهُـو محـرومُ

وقال آخر :

لَـو كـانـتْ الأرزاقُ مقسـومـةً		بقـدْرِ مـا يستـوجـبُ العبـدُ
لصـارَ مَـن يُخْـدَمُ مستخـدَمـاً		وغـاب نحـسٌ وبـدا سَعـدُ
واعتـذر الـدهـرُ إلـى أهلـهِ		وانتعـشَ السـؤددُ والمجـدُ
لكنَّهـا تَجْـرِي عَلـى سَمْتِهـا		كمـا يـريـدُ الـواحـدُ الفـردُ

وقال آخر :

خليليَّ إن الصبرَ في طعمه مُرٌّ		وإنْ صَبَرَ الإنسانُ لا يصبرُ العمرُ
وفي هذه الدُّنيا خصالٌ عجيبةٌ		يُسَرُّ بها نـذلٌ ويَشقـىٰ بها حُرُّ
ومَا كُنتُ أرضىٰ من زماني بما أرىٰ		ولكنني أرضىٰ بما حَكَم الدهرُ

وقال آخر :

قُلْ للذي بصروفِ الدَّهرِ عيَّرَنا		هَلْ عاندَ الدهرُ إلاَّ مَن له خطرُ
فإن تكن عبثَتْ أيدي الخطوبِ بنا		ومسَّنا من توالي صَرْفِها ضَررُ
ففي السمـاءِ نجومٌ ما لهـا عَـدَدُ		وليس يُكسَفُ إلا الشمسُ والقمرُ!

فهذا سرّ من أسرار العالم ، وسُنة جارية ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾ .

* * *

فصل

وهذا الخَبُّ عند العقلاء في النقيصة بمنزلة البليد الأبله ، الذي لا رؤية له ، فهو في مقابلة الأبله ؛ إذ الخَبّ والبلادة طرفا نقيصة والعاقل متوسط بينهما ، وقد عرفتَ أن خيرَ الأمور أوساطُها .

فهذا الخَبُّ قد يكون ذا علم وهيئة ، وترى الناسَ يسترذلونه ويحتقرونه ؛ لخلوِّه من إشراق نور العقل ، ولكونه قد فاته الأصل وهو التحلّي بلباس الخيرية ، وترى العاقلَ الخيِّرَ ربما كان قليل العلم والناس يُبجِّلونه ويعظمونه ؛ لإحساس الأنفس بما عنده من تنوير الباطن وسلامة القلب ، وقد قيل : إن الخَبَّ شريكُ المُغَفَّلِ إلا أنَّ الخَبَّ أسوأ حالاًوعاقبة .

فاعلم إذَن : أنَّ مِن شرط صحة العقل أن يكون معه شيء من الخيرية ، وسلامة الصدر ، كما أن الخِبَّ يلازمه الشرّ وخُبث الباطن ، وهذا الخَبُّ هو الجُرْبُزُ الذي تسميه العامة (كربز) فالجُرْبُزُ في اللغة : الرجل الخدّاع ، والجَربَزة : أن يتجاوز الإنسان حدّ العقل ، كما أن الشغف هو أن يُفرِطَ الإنسان في المحبة ، وكلٌّ مذموم .

* * *

فصل

اعلم أيُّها الأخ السالك : أن العقول لا تفي بنيل المطلوب كلّه حتى تُمَدَّ بالمعونة ، وتُساعَدَ بالتوفيق منه سبحانه ، فإن صاحب العقل قد يُخطِئُ ويُصيب ، فالعقول تُدرك الأشياء ، وتميزها لكن الآراء أقصى غايات العقول ، فالفكر خزانة الرأي ومرآته ، وبه يستبين للإنسان محاسن الأشياء من مقابحها ، فالعقول قد تكون لأقوام ربما ساءت آراؤهم ، فبالرأي تتفاوت طبقات الرجال ، وتتفاضل رتبهم ، فالإدراكات والفهوم كثيرة غالبة في الناس ، ولكن تكميل الآراء فيهم قليل ، فبالرأي تتبين للإنسان مقاديرُ الأشياء ، وبه يزن العاقل الأمور ، ويصانع عن بعضها ببعض ، وما أحسن ما قيل في هذا المعنى : ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشرّ ، هذا يعرفه الصبيان والنسوان ، إنما العاقل الذي يعرف خيرَ الخيْرَين ، وشرَّ الشرَّيْن ، ويصانع على أحدهما بالآخر إذا أُلجِىءَ إليه .

فافهم هذا . . يحصل لك منه علم جليل ، فالعقول مواهب وقِسَم يقسمها الله تعالى بين عباده كما يشاء ؛ لأن الله تعالى أعطى كلَّ شيء من جوده قدر ما يحتمله ، فالإنسان قد يكون عاقلاً ذا تمييز ، تكثر إصابته ، ويقلّ غلطه ، حتى يصل إلى حدّ الرأي ، فحينئذ يَرىٰ عنده ضعفاً وقصوراً ، وذلك كثير ما يقع للناس .

انظر ١٧١

فإذا رأيت الإنسان عادلاً في أفعاله وأحواله وأقواله ، ضبطاً يدور مع الأمور الصحيحة كيفما دارت . . فقد ضَبَطَ أحوالَه ضبطاً ، وقهرَ هواه

قهراً ، فإمّا أن يُؤْثِر ؛ أي : يقدّم دينَه على دنياه ، وهي المرتبة العليا ، وهو الغاية ، وإما أن يراعي أمورَ دينه مع مراعاة أمور دنياه ، وهو دون حال الأوّل ، وكلٌّ خيرٌ ، فاقض لمن هذه طريقته بصحة الرأي .

* * *

جاء في كتاب مهارات في التعليم ص٩٥ : تدل الكثير من الشواهد على أن كثرة العلم ووفرة الأفكار النيرة لا تؤديان بالضرورة إلى أن يصبح المرء أكثر تعقلاً وحكمة حيث أن الملاحظ أنه حين تسوء الأخلاق و تطغى الشهوات يستسلم العقل بل يبدأ بإيجاد المسوغات للأوضاع المنهارة ولهذا فإن الخلق الحسن مصدر لانسجام الذات وتنظيف السلوك

فصل

واعلم أيُّها الأخ : أن صاحب الرأي هذا الذي ذكرناه قد يعتريه الخطأ والزلل ، فالعبد قد يتمّ عقله ، ويصح رأيه ، وتكثر إصابته ، ولكن قد يعرض له الهوى فيُفسِد عليه أحواله ، وهو لا يشعر ، وقلّ أن يسلمَ أحدٌ من الهوىٰ ، ولكن قد يقل ويكثر ، ويخفىٰ ويظهر ، على قدر مغالبة العقل له ، وعلى قدر قوة العقل وضعفه ، فالعاقل يداري هواه مداراة ، والسخيف يعجز عن ذلك ؛ لضعفه ، فيَظْهَرُ هواه وسوء حاله بين الناس .

فقلّ أن يخلو أحد من الهوىٰ إلاَّ أصحاب الحق جلّ جلاله ، الذين له بهم العناية الأكيدة ، فقد بان لك إذن أنَّ العقولَ تصيبُ وتخطىء ، وأنَّ الآراءَ هي أقصى غايات العقول ، وقد يعرض لها الغلط والزلل ، ثم إذا قدَّرنا سلامتها وصحتها . . قل أن تسلم من الهوى ، وإذا اختلفت طرقها ، فعندما يجيل العبدُ الرأيَ في الأمر الذي ينحوه . . فإذْ ذاك تختلف عليه الخواطر ، ولا يعلم وجه الصواب ، فذاك وقت استمداد المعونة ، وطلب التوفيق منه تعالى ، فإذا كان للربّ تعالى بعبده عناية . . ألهمه رشده ، فأراه وجه الصواب ، وإن كان تعالى مُعْرِضاً عن العبد . . سلَّط عليه الشيطان فغلَّطه ، وزيَّن له سوءَ عمله .

فغاية نظر العقلاء ينتهي إلى بذل الجهد ، وإعمال الرأي ، ولكن يبقى عليهم ما ليس لهم به طاقة ، ولا في دفعه حيلة ، وهو القَدَر المحتوم الذي قد حارت فيه العقول ، وتقاصرت عن إدراكه الفهوم ، فهو إذا نزل بطل التدبير ، وصار الحكم للمقادير ، فهو كما قيل :

إذا أرادَ اللهُ أمـراً بِـامـرىءٍ ... وكـانَ ذا عقـلٍ ورأيٍ وبصَـرْ
وحِيلـةٍ يُعمِلُهـا فـي كـل مـا ... يـأتـي بـه مكروهُ أسبابِ القَدَرْ
أغـراهُ بـالجهـل وأعمـىٰ قلبَـه ... وسـلَّ منـه رأيَـهُ سـلَّ الشَّعَـرْ
حتـى إذا أنفـذَ فيـه أمـرَهُ ... ردَّ عليـه عقلَـه لِيعتَبِـرْ

فمن أراد إصابة الصواب وقلة الغلط . . فليعتمد على الله تعالى في أموره كلِّها ، وليكلها إليه سبحانه بعد إعطاء الأشياء من الرأي والاجتهاد ما تستحقه ؛ لأن تصاريف الأمور إليه يصرفها كيف يشاء ، فالعبد إذا أكثر الالتجاء إلى الله تعالى . . تعلَّقت به عنايته فقوَّمه وسدَّده ، فكلما ضعف العقل . . رأيت الخطأ غالباً على الإنسان .

فإذا توفر مقدار العقل . . رأيت الخطأ نادراً قليلاً ، فمن أراد إصلاح الأمور وتمامها فليراع ما قدّمنا القول فيه ؛ لأن العبد إذا أحسن قصده في الطاعات ، وصدقت نيته في المعاملات . . جعل الله لقلبه بصيرةً يرى بها الأشياء المرئية ، فيرى الباطلَ باطلاً والحقَّ حقاً ، فالتعب كله على هذا ، وهذا الذي ينبغي أن يكون مطلوبك في مساعيك ، وفي مناحيك ، فاحذر أن تخلِّط فيخلَّط عليك ؛ فحينئذ ترى الخطأ صواباً ، والصواب خطأ كما قيل :

إذا أخـذل اللهُ امـرأً زال رأيُـهُ ... وإن كان قَدْ سَاس الأمورَ وجَرَّبا

فانتبه لنفسك أيُّها الأخ ، وتقرَّب إلى مولاك بالصدق ترى العجائب ، فما بينك وبين الوقوف على كنه الأشياء والاطلاع على أسرارها إلا أن تنطلق من أسر هواك ، وتتجرد من علائق نفسك ، فهناك تُشرِق عليك أنوار القبول ، وتلوح عليك آثار الوصول ، فإذا كنت كذلك :

بدا لك سرٌّ كانَ منك اكتتامه   ولاح صباحٌ كنتَ أنتَ ظلامُهُ

وكنتَ حجابَ القلبِ عن سرِّ غيبِهِ   ولولاكَ لم يُطبع عليه ختامُهُ

فمذ غبت عنه حل فيه وطنَّبت   على منكبِ الكشفِ المصونِ خيامُهُ

وجاء حديثٌ لا يُمَلُّ استماعه   شهيٌّ إلينا نثرُه ونظامُهُ

* * *

فصل ٣٠

اعلم أيُّها الأخ : أن الحق جلّ جلاله ، جَبَل الخليقة على أمور عجيبة ، وحِكَم لطيفة . . يعرفها ذوو البصائر والفهوم ، فقد تقرر عندهم أن الله تعالى خالف بين خلقه في الجبِلاَّت والغرائز ، فجعل مبنى صنعه في القلوب على الائتلاف والاختلاف ، والأنسة والتنافر ، وقد يكون ذلك لا لسبب معلوم ، كما قيل :

تأبى قلوبٌ قلوبَ قوم   وما لَها عِندَها ذنوبُ

وتصطفي أنفسٌ نفوساً   وما لَها عِنْدَها نصيبُ

ما ذاكَ إلاَّ لمُضْمَراتٍ   أحكَمَها مَن لَهُ الغيوبُ

فالرجل المنقوص ينفر من الرجل الفاضل ، والأحمق يكره العاقل ويعيبه كما قيل :

وشانَ صدقَك عِند النّاسِ كذبُهم   وهَلْ يُطابَقُ معوجٌ بمعتدلِ

والدَّمِث يذم الحصيف ذا الجد ، فترى الاختلافَ بين أصحاب هذه الجبلاَّت بيِّناً ظاهراً ، فأحدهم يتبرّم بالآخر ، ويضيق به ذرعاً ، وإذا بُلي أحد هؤلاء الأضداد بمقاربة الآخر . . فكأنه معه في سجن ، فترى الكريمَ من الرجال مُبتَلىً ببغض اللئام وذمهم كما قيل :

وقَدْ زَادني حُبّاً لنفسيَ أنني   بغيضٌ إلى كلِّ امرىءٍ غيرِ طائِلِ

وإني شقيٌّ باللئامِ ولَنْ ترىٰ   شقيّاً بِهم إلاَّ كريمَ الشمائِلِ

فالعقلاء إذا ابْتُلُوا بهؤلاء اللئام والأضداد ، واحتاجوا إليهم في

ضروراتهم . . اعتبروا ذلك من أنفسهم بما قد تقرر عندهم من ميل القلب ونفرته ، فإذا رأى أحدهم باطنه ينفر من صاحبه . . علم أن صاحبه معه كذلك ، فاستبعَدَ النجح من جهته ، وإن كان باطنه مائلاً إليه . . ترجح عنده نيل المطلوب ؛ لما قد جعل الله بينهما من التناسب .

واعلم : أن الشخصين إذا كانت بينهما مناسبة الحال إما صلاحاً أو غيره . . حصل بينهما التزام وميل ، حتى قد لا يحسّ الإنسان به من نفسه ، فربما كره الإنسانَ ظاهراً وتُميلُه المناسبةُ إليه باطناً ، وربما أنكر الإنسانُ حال صاحبه قبل أن تشعر النفس بالمناسبة ، فإذا تعارفت الأنفس . . توافقت وتصادقت .

واعلم : أن الحال إذا أفرطت في المناوأة بين الشخصين . . تنافرت الأنفس ، وتباعدت تنافراً بيّناً ، فلا يستطيع أحد الشخصين أن يقابل الآخر ، وذلك إذا تضادّت الجبلاَّت في الأخلاق التي تتحرك لها النفس كاللؤم والمروءة ، فيكون أحد الشخصين مفرطاً في أحد هذين الخُلُقين ، والآخر في مقابلته كذلك ، أو أن يكون أحد الشخصين صاحب حق تماماً وكمالاً ، وينحط الحال بالآخر تنازلاً وإفراطاً في طرف الباطل ، فهذان الشخصان لا يستطيعان أن يتعاملا ، بل يكون بينهما العناد والبعاد والتباغض إن تمكنا من إظهار ذلك ، وإلا . . فيكون باطناً ، وإن لم يُفْرِط الحال بين الشخصين في الأخلاق . . لم يكن بينهما هذا التضاد كله ، وأمكن تقاربهما واجتماعهما مداهنة ومداجاة .

هذا سر الخليقة فافهمه ، فلا ترجوَنَّ النفع ممن ينفر قلبُك عنه ، فهذا بابٌ عظيم النفع لمن رُزِق فهمه .

واعلم : أن من ينفر قلبك عنه . . أن عنده من المقت لك مثل ما له عندك ، فإن قدرتَ . . فارغب عنه ، وإن لم يمكنك واضطررت إليه . .

فتعمل في صلاح قلبِه لك بإصلاح قلبِك له ، كما قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : احصد الشرَّ من صدر غيرك بقلعه من صدرك .

وطريق ذلك أن تمثل لنفسك شيئاً من محاسنه ؛ لأنه لا يخلو الإنسان من مكرمة مّا ، وإن قلَّتْ وخَفِيَتْ مثل سخاوة نفسٍ ، أو شجاعة ، أو حمية ؛ فإن هذه الصفات كثيراً ما تقع في ظَلَمةِ النّاسِ وجبابرتهم .

ثم تناسى خصاله الدنيئة الذميمة ، وأبعد إحضارها من خيالك ؛ ليصير ميلك إليه مألوفاً ، فإنه إذ ذاك يميل قلبه إليك بحَسَب ما صلح له من قلبك ؛ لأن النفوس تطالع النفوس ، ويحسّ بعضها بأحوال البعض ، فهي سريعة التقلُّب ، تختلف عليها الأطوار .

فإذا كانت طباع البشر هكذا ، أفيطمع العاقل أن يغير شيئاً من طباع هذه الخليقة فيجعل المبغض محبّاً ، أو يستزيد إنساناً مودّة؟! هذا مما لا يمكن ، ولا يطمع فيه العاقل ؛ لأن النفوس بجبلاَّتها تختلف اختلافاً بيّناً ، والمودّات التي بين الخليقة منها ما يكون سببه ضعيفاً لضعف النسبة التي بين الشخصين ، فلا بد أن تتغير هذه المودّة بين هذين الشخصين وتنقطع ، ومنها ما يكون سببه قوياً مستحكماً ، فتدوم المودّة بين الشخصين ؛ لقوة سببها .

هذا إذا نظرت إلى أصول الجبِلاَّت بين الخليقة ، وأما حكم الظواهر . . فلا معوَّل عليه ؛ لأن الإنسان قد يُظْهِرُ ضدَّ ما في قلبه فتقع في ذلك المحاسنة والمداجاة ، فإذا كان الأمرُ كذلك . . فينبغي للعاقل أن يَستكِفَّ شرور الخليقة بمداراتهم ، ويُسَكِّن نفوسهم تسكيناً ، هذا هو عين المصلحة ، فمن وُفِّق لفهم هذا والعملِ به . . فقد أراح واستراح .

واعلم : أن قوة المناسبة تجمع بين الشخصين جمعاً أكيداً ، حتى إنّ الرجلَ الشريرَ قد يتأذى من شرير مثله ، ولا يرى عنده كثيرَ حقٍّ عليه ؛ لقوّة المناسبة بينهما ، وأن الخيِّرَ ربما نفع الشريرَ ، فلا يثبت له عنده كثير ميل ؛ لشدّة المنافاة بينهما ، حتى لو بدا للشرير من الخيِّر أيسر وهم من أذىً . . ثارت نفسه عليه ثوراناً بيّناً وإن كان له إليه إحسانٌ وكان محسناً إليه ، فافهم واعجب ، وسل ربك السلامة من شر هذا العالَم الذي هو كبحر السم .

* * *

فصل

ومما ينبغي التنبيه عليه : أن تعلم أيُها الأخ أن الكبرَ رديءٌ ، مفسدٌ للقلوب ، وقد تقدّم أنه ليس للقلب شيء من الصفات الحميدة إلاّ وللنفس في مقابلته ما يشابهه ، فاعلم أنه قد يلتبس الكبر بالتعزز ، فها نحن نبين لك الفرق بينهما .

فالكبر من صفات النفس ، والتعزز من صفات القلب ، فالتعزز شأن المؤمنين ، والكبر شأن المتجبرين ، وقد ورد في هذا المعنى كلام حسن يوضح لك ما قلناه ، ذُكِرَ أنَّ رجلاً قال للحسن البصري رحمة الله عليه : يا أبا سعيد ؛ إنك لعظيم في نفسك ، فقال : لا والله ، ولكنني عزيز في نفسي ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

وقد فرّق الشاعر بين العزة والكبر في قوله :

بني جعفرٍ أنتم سماءُ رياسةٍ ... مناقبُكم في أُفْقِها أنجمٌ زُهْرُ
طريقتُكمْ مُثلىٰ وهديكُمُ رضا ... ومذهبُكم قصدٌ ونائلُكم غَمْرُ
عطاءٌ ولا مَنٌّ وحُكْمٌ ولا هوى ... وحلمٌ ولا عجزٌ وعِزٌّ ولا كِبْرُ

ولقد أحسن هذا الشاعرُ حيث ميّز هذه الأشياء عما يُخرِجها عن حدّ رتبة الاعتدال فيصير إلى حدّ النقص ، وهذا المعنى يناسب ما هو مذكور في فصول هذا الكتاب آنفاً ، وإنَّا إنما أردنا الآن تمييز العزّ من الكبر في قول الشاعر : (وعِزٌّ ولا كِبْرُ) ، فالتعزز له حدّ لا ينبغي للعبد أن يتجاوزه ، فيَخْرُجَ إلى حد الكبر ، والتعزز هو أن يصونَ الإنسانُ نفسه عن

الأمور التي تشينه في دينه ومروءته ، كمن يمشي في الطريق مكشوف الرأس ، ويظن أن هذا من التواضع ، وهذا خطأ ورذيلة ، وربما كانت هذه الخلة التي يتوهم صاحبها أنها كَسْرُ نفسٍ وتواضعٌ تترفع بها النفس ، وتُخيِّل إلى فاعلها أن أحداً لا يستطيع أن يفعل فعلك ، فيصير ذلك تكبراً من حيث ظن أنه تواضع ، وما أحسن ما قيل في هذا المعنى :

كريمٌ له نفسانِ : نفسٌ عظيمةٌ ... تُنَزِّهُهُ عن كل أمرٍ يشينهُ

ونفسٌ لها عن ساحةِ الكِبْرِ مصرفٌ ... فيظهَرُ منه للأخلاءِ لِينُهُ

وكما ينبغي للإنسان المتعزز أن يجانب الكِبْر ، كذا ينبغي له إذا هو متواضع أن لا يُفْرِطَ في التواضع ، فيخرج إلى حدّ الضعة والمهانة ، فليراع الإنسان ذلك ولا يهمله ، وكذا قد يشتبه العُجْب بالفرح ، فالعُجْب للنفس وهو رديء مذموم ؛ لأن المُعْجَبَ ينقطع نظره عن رؤية النِّعَم من المنعِم بها تعالى ، فيتوهمها من نفسه ، والفرح أن يرى العبد النعم من الله تعالى ، فيفرح بها ، ويحمده عليها ، ويعترف لربه بما منحه .

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ .

* * *

فصل ٣٢

التواضُع والتكبُّر مَرجعُهما إلى القلبِ ، وليس لهما تعلقٌ بالزيّ ، وما يتكلفه الإنسان من الأفعالِ الظاهرة . . فإن ذلك قد يكون تصنّعاً ، فكم من إنسانٍ فقيرٍ يُظهِرُ التواضعَ والانكسار ، ونفسه من أنْفُسِ الجبابرة المتكبرين ، وكم من إنسانٍ له هيئة وأُهبة وهو من المتواضعين! ترىٰ عنده انكساراً وخضوعاً ، فإذن ليس الاعتماد في الكبر والتواضع إلاَّ على ما تُجِنُّه القلوب ، فلا تعتدَّنَّ بالظواهر .

وحدّ الكبر هو ما قال بعضهم : الكبر هو استعظام النفس ، وأن ينظر الإنسان إلى غيره بعين الاحتقار ، وعلامته في اللسان أن يقول الإنسان : أنا وأنا ، وهو خصومة مع الله تعالى ؛ إذِ الكبرياءُ رداؤه ، والعظمة إزاره ، والكِبْرُ هو الذنب الذي لا تنفع معه طاعة ، وهو خلُق من أخلاق القلب ، فالمتكبر ينظر إلى الناس نظره إلى البهائم ، ومثل المتكبر مثل غلام لبس قلنسوة المَلِك وجلس على سريره ، فانظر كيف فعل فعلاً يستحق به ضرب عنقه!

* * *

فَصْلٌ

يا من شأنه طلب العلم ومكاثرة أهله ؛ إعلم : أن للعلم جلالةً وبهاءً إذا روعِيَتْ شرائطُه ، وإلاَّ .. فتذهب بهجته ورونقه ، وتزول هيبة أهله من الصدور ؛ لأن من الناس من يكون عالم اللسانِ جاهل القلب ، فكن أيُّها الأخ حسن الطلب للعلم ، محافظاً على شرائطه وآدابه تجد حلاوته ، وتستَضِيء بنوره ، وتستثمر جناه في الدنيا قبل الآخرة .

ولا يكن طريقك في العلم القيل والقال ، وتبكيت المحاذي ، وتلمُّح عثراتِه ؛ فإن هذا شأن المرذولين ، وحاصل مَن لا همة له ؛ لأن العلم الذي خوطب العباد به رحمة وراحة ، فإذا نُحِيَ به الخصامُ والمغالبة .. صار عذاباً وتعباً ، فاقتد في علومك بطريقة السلف الماضين الذين قالوا : إذا أعجبك الكلام .. فاسكت ، وإذا أعجبك السكوت .. فتكلم ، فقد ورد : « إن للعلم طغياناً كطغيان المال » ، فاحذر العُجْبَ في الكلام ؛ فإنه رذيلة تُمقِتُك عند العقلاء .

وينبغي لك أن يكونَ عليك الوقار والسكينة ، والسمت الحسن في أنحائك ومقاصدك .

واعلم : أن العلم يورث العالي انكساراً والدنيءَ ترفعاً ، فكم جاهل قد غلب عالماً فقهره ، واستظهر عليه تمويهاً وقِحَةً ، ويكون ذلك من العالم توقراً وحياء ، ومن الجاهل رعونة وبذاءةً .

فواعجباً كم يدَّعي الفضلَ ناقصٌ ... وواأسفاً كم يُظْهِرُ النقصَ فاضلُ

إذا وَصَفَ الطائيَّ بالبخلِ مادرٌ ... وعيَّر قسّاً بالفهاهة باقلُ

وقال السُّها للشمسِ أنتِ خَفيةٌ ... وقال الدُّجىٰ للصبح لونُك حائلُ

وفاخرتِ الأرضُ السماءَ سفاهةً ... وجادلتِ الشهبَ الحصىٰ والجنادلُ

فيا موت زُرْ إنَّ الحياةَ ذميمةٌ ... ويا نفسُ جِدّي إنَّ دهرَكِ هازلُ

ولمّا رأيتُ الجهلَ في الناسِ فاشياً ... تجاهلتُ حتّىٰ ظُنَّ أنّيَ جاهلُ

ومنه قول الآخر :

ولربما خزنَ اللبيبُ لسانَه ... حذرَ الجوابِ وإنه لمفوَّهُ

ولربما نطق الغَبِي فتنافَسَتْ ... فيه العيونُ وإنه لمموَّهُ

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : تعلموا العلم ، وتعلموا للعلم الوقار والحلم ، وتواضعوا لمن تَعَلَّمون منه ، وليتواضع لكم من تعلمون ، ولا تكونوا من جبابرة العلماء ، فلا يقوم علمكم مع جهلكم .

وقال عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه : تعلموا العلم تُعرَفوا به ، واعملوا به تكونوا من أهله ؛ فإنه سيأتي من بعدكم زمان يذكر فيه الحق تسعة أعشارهم ، وإن هذا زمان لا ينجو فيه إلاّ كل مؤمن نومه ، إن شهد .. لم يُعرف ، وإن غاب .. لم يُفتقد ، أولئك مصابيح الهدى وأعلام السرىٰ ، ليسوا بالمساييح ولا المذاييع البُذْر ، أولئك يفتح الله لهم أبواب رحمته ، ويكشف عنهم ضراء نقمته[1] .

---

(١) تم تعديل هذه المقولة لسيدنا علي كرم الله وجهه حسب ما وجد في نسخة ، منسوباً للحبيب علي بن عبد الله السقاف .

قال : والمساييح جمع مسياح ، وهو الذي يسيح بين الناس بالفساد والنمائم ، والمذاييع جمع مذياع ، وهو الذي إذا سمع لغيره بفاحشة أذاعها ونوّه بها ، والبُذْر جمع بذور ، وهو الذي يكثر سفهه ويلغو منطقه .

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأغلوطات ، قال العلماء : هي المسائل الدقاق الصعبة ، وفي الحديث : « شرار أمتي الذين يتبعون الأغلوطات لِيُغْموا بها عباد الله » .

* * *

فصل

إذا أردتَ أن تعرف منزلتك عند الله تعالى.. فاعتبر ذلك بمنزلته عندك ، وانظر إلى شدّة تعلق سرّك به ، واهتمامِك بمراضيه ، وكرهِك لما يكره ، وموالاتِك لأصحابه ، ومجانبتِك لشرارِ خلقه .

ابْنِ الأمرَ على هذا ؛ فهو الأصل المعتبر ، ولا تَبْنِ الأمر منك ولا من غيرك على الأعمال الظاهرة ؛ إذ لا اعتبار بذلك ، لأنها قد تكون في الأبرار والفجار كما تقدّم .

* * *

فصل

اعلم : أن القاعدة العظمى التي هي ركن الإسلام ، ودعامة الإيمان كلمة (لا إله إلا الله) إلاَّ أنك أيُّها الأخ السالك ينبغي لك أن تكون بمعناها متحلياً ، وبحقيقتها متصفاً ؛ لأن هذه كلمة عظيمة ، ولها التأثير العظيم إذا تُنُبِّهَ لسرِّها ؛ لأن لها حالتي عموم وخصوص .

فحظ أهل العموم منها توحيد الربّ تعالى عن المشاركة في ربوبيته .

وأما أهل الخصوصِ العارفون بأسرار الأشياءِ .. فإنهم يجعلون (لا إله إلا الله) نُصْب أعيُنِهم في أمورهم جملة فِكراً وذِكراً ، ويعملون على معناها وحقيقتها ؛ لأن العبد إذا وُفِّق لفهم هذه الكلمة العظيمة .. حصل على توحيد خاص ، وصارت له هذه الكلمة جُنَّة يتقي بها المخاوف والمكاره ؛ لأن الإيمان بها إذا خالط بشاشة القلب .. لم يبق للعبد تطلُّع في سرّائه وضرائه ، إلا إلى ربه تعالى ، فيصح له منها مقام التوكل ؛ لأنه إذا اتضح له العلم بأن أمور هذا العالم منوطة بإذن الله تعالى وإمضائه .. ألجأته الضرورة إلى التفويض إليه والتسليم لأمره تعالى ، فيستريح العبد إذ ذاك من اضطراب الآراء ، وترديد الخواطر ، بتفويض أموره إليه سبحانه وتعالى ، فرجال الحق تعالى لا يعلِّقون قلوبهم بالكلية بأحد من الخلق ، ويرون ذلك من الشرك الخفيّ .

فإن اضطر الإنسان في معيشته إلى سلطان أو رئيس .. فليُجمِل في الطلب إليه ، ولا يكن قلبه معتمداً عليه بالكلية ، فيُوكَلَ العبد إليه ، ويَسقطَ العبدُ إذ ذاك من عين الله عز وجل ، فينبغي أن يكون محلُّ الله من

القلب محلاً خاصاً ، لا يحله أحدٌ من الخلق ، ثم بعد ذلك ينزل العبد المخلوقين من باطنه منازلهم ، فمتى حصل للإنسان شيء من يقين التوحيد .. استراح وكُفِيَ مؤناً كثيرة ، وما أحسن ما قيل : (مَن عرف الله عاش ، ومن طلب الدنيا طاش ، والمؤمن على دينه فتاش ، والجاهل يغدو ويروح في لاش) .

فإذن تنفعل الأشياء لصاحب هذا القلب الذي قد حصل فيه يقين التوحيد ؛ لقوّة إيمانه بهذه الكلمة العظيمة .

رُوِيَ أن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام قال : إن العبدَ إذا أخلص لله تعالى ثم قال لهذا الجبل : زُل .. زال ، قال فتحرك الجبل يريد أن يزول ، فقال له عيسى : اسكن ، إنما ضربتك مثلاً !!

وهذا المعنى هو سرّ الاسم الأعظم ؛ لأن القلب إذا خضع لجلال الربوبية لما قد حصل فيه من يقين التوحيد .. امتلأ هيبة وخشوعاً ؛ لما يشاهد من الأنوار الإلهية ، وبهذا المعنى قال الذي عنده علم من الكتاب : يا ذا الجلال والإكرام ، فحرّك عرش بلقيس من أرض اليمن ، فخرج إلى أرض المقدس في الحال ، وهذا من القدرة الباهرة ، فتأثير هذه الكلمة العزيزة ، إنما هو لحسن محلها وهو القلب ، فالقائلون لهذه كثير ، ولكن السرّ في تعلق الكلمة بأسرار قائلها ، ففي ذلك يقع التباين والتفاوت ، فإذا أردتَ أنْ تعرفَ ذلك حقيقة .. فانظر إلى قول إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه في النار : (حسبي الله ونعم الوكيل) ، فصارت النار عليه برداً وسلاماً ، فكم مَنْ يقول هذه الكلمة ، ولكن ما يحسن أن يقولها كما قالها الخليل عليه الصلاة والسلام !

دليل ذلك أن جبريل عليه الصلاة والسلام اعترض له ، وهو في الهواء وهو مارّ إلى النار ، فقال : يا خليل الرحمن ألك حاجة ، فقال : أما

إليك.. فلا ، فقال جبريل : فسل من لك إليه حاجة ، فقال الخليل : أَحَبُّ الأمرين إليه أَحَبُّهما إليّ .

فانظر إلى هذا اليقين والتفويض والتسليم في هذا المقام الصعب ، فهذا يبين لك أن بين الأحوال بوناً وتفاوتاً فاعلم .

* * *

فصل

اعلم أيها الأخ : أن أهل العلم بالله تعالى شأنهم العمل على حقائق العبادات ، كما تقدّم لنا من القول ، وطريقهم الاهتمام بأسرار الطاعات ، وآدابهم في الصلاة مراعاة ظاهرها بالخشوع والوقار في الركوع والسجود .

ليعلم العبد : أن صلاته كالهدية ، يتقرب بها إلى الرب تعالى ، فليحذر أن تكون عليه هينة فيكون على ربه هيناً أهون ، ثم ليكن باطنه أشدّ مراعاة ، وليعلم العبد يقيناً أنه بعين الله عز وجل مشاهدٌ باطنُه كما يشاهد ظاهره ، فليتأدب بين يدي مولاه ، وليصرف كليةَ هَمِّهِ إليه تعالى .

والأصل في هذه العبادة دوام اتصال القلب بالله تعالى ، وجمع الهمّ ، هذا هو سر الصلاة وروحها ، وبهذا المعنى تتفاوت أحوال الرجال المصلين .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : ركعتان تركعهما في تفكر واعتبار واعتقاد خير من قيام ليلة والقلب ساهٍ .

أما الذي يُنقِصُ الصلاةَ ويُشينُها.. فهو ما يَرِدُ على القلب من هذه الخواطر الصارفة عن دوام الاتصال بالله تعالى ، وهي ثلاثة أشياء : خاطر ، وفكر ، وعزم .

فأما الخواطر.. فهي هذه التي تمر بالقلب ، ولا ثبات لها ، فإذا اجتمع على القلب منها عدّة خواطر.. صارت فكراً ، فإذا أجمع القلب وعزم على فعل شيء من ذلك.. صار عزماً ، والذي ينبغي للمصلي أن

يعتمد في صلاته مجاهدة هذه الأشياء بنفيها وصرفها عن قلبه ؛ لئلا تغير عليه دوام الاتصال ، فينبغي أن لا يزال ينفي الخواطر عن قلبه ، حتى لا تلبث فتصير فكراً ، ثم تصير عزماً ، فيخرج العبد بذلك عن حقيقة الصلاة .

قال الحسن البصري رحمة الله عليه : كلُّ صلاةٍ لا يَحضرُ فيها القلب.. فهي إلى العقوبة أسرع ، فينبغي للعبد أن يتوجه بقلبه إلى الله تعالى ، كما يتوجه بوجهه إلى القبلة .

لِيَعْلَم العبد : أن هذا حقيقة الصلاة ، فإذا أُغْفِل العبد عن شيء من صلاته.. لم يُحتَسَبْ له به ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « ليس لكَ من صلاتِك إلاَّ ما عقلتَ منها » .

وينبغي للعبد إذا فرغ من صلاته أن يسأل الله تعالى أمورَ دينه ودنياه ، ولا تكون الصلاة على العبد كالشيء المتكلَّف ، يسلِّم ثم ينهض ، فهذا يدل على استيلاء الغفلة على العبد ، بل يسكن عقيب الصلاة بقدر ما يسبّح الله تعالى ، ويحمَدُه ، ويكبره ، ويدعو لنفسه خاشعاً خاضعاً متضرعاً ، ولوالديه وللمسلمين ، فإن ذلك من تمام الصلاة ، وليجتهد العبد أن يؤدي الفرائض لأوائل أوقاتها ؛ فإن ذلك مندوب إليه .

* * *

فصل

وأما الصوم.. فهو باب في العبادة ، وهو أقوى أسباب الإعانة على الطاعات ، فينبغي للعبد أن يراعي حدودَه وآدابَه ، فيمسكَ عن كل كلام لا حاجة له إليه لا سيّما الغِيبة ، وكلِّ كلام يعظم وزرُه ، وليكن ليومِ صومه امتياز على يوم فطره ، فليكن ذكر الله تعالى فيه أعلى ذكر إن أمكنه بلسانه ، وإلا.. فبقلبه ، وإن أمكنه أن يعتكف في المسجد لطاعة الله تعالى.. فَلْيَفعَلْ ، ولْيَصُنِ الإنسانُ سرَّه ، وذلك مندوب إليه يلزم للإنسان الذِّكْرَ والطاعةَ سرًّا في صومه عن الخطرات السيئة ، والأفكار الفاسدة ، فإن ذلك أيضاً من تمام الصوم ، كما ينبغي له أن يصون سره بحفظ لسانه عن الكلام السيّىء .

قال عليٌّ رضي الله عنه : صومُ القلبِ خيرٌ من صوم الجوارح واللسان ، وصومُ اللسان خيرٌ من صومِ الجوارح وجوعِ البطن .

وليأخذ الصائم من الطعام عند الإفطار قَدراً متوسطاً ، ولا يتكثر من الألوان ؛ لأنَّ حقيقة الصوم هوَ تنظيف البدن بالتقلل من الأكل ليتنوَّرَ القلب .

وليجتهد العبد في تطييب طُعْمته ـ أعني من الحلال ـ فإن ذلك أصل عظيم .

* * *

فصلٌ

في آداب الدُّعاءِ

« الدُّعاءُ مخ العبادة » ، فينبغي للعبد أن يكون عند الدعاء خاشعاً ذليلاً حاضرَ القلبِ ، وليحذر أن يقف بين يدي الله تعالى بقلب ساهٍ لاهٍ ؛ فإنه يتعرض بذلك لمقت مولاه .

وأفضل الدعاء وقت السحر أو نصف الليل ، وأقربه إلى الإجابة ما كان عند خشوع القلب ، حين يُقبل العبد بكليته على الله تعالى ، وما أحسن وقفة العبد الذليل المستكين بين يدي الملك العظيم الرؤوف الرحيم بوضع يده اليمنى على كوع اليسرى بالانكسار والخضوع والإخلاص .

لبستُ ثوبَ الرجا والناسُ قد رَقَدُوا ... وبتُّ أشكو إلى مولاي ما أَجِدُ
وقلتُ يا أَمَلي في كلِّ نائبةٍ ... ومَن عليه لكشفِ الضُرِّ أعتمدُ
أشكو إليكَ أموراً أنتَ تعلمُها ... مالي على حَمْلِها صبرٌ ولا جَلَدُ
وقَدْ مددتُ يدي بالذُلِّ مبتهلاً ... إليك يا خيرَ مَن مُدَّتْ إليه يدُ
فلا تردَّنها يا ربِّ خائبةً ... فبحرُ جودِك يُرْوي كُلَّ مَن يَرِدُ

ومن شرط إجابة الدعاء : أن يكون أكله حلالاً ، وأن يديم الدعاء فلا يقطعه ، وإذا أراد العبد أن يدعو في أمر مهمّ ذي بال . . فليقدِّم أمامَ دعائه صدقةً حسنة يسترضي بها الربَّ سبحانَه وتعالى ، وليجبُرْ قلبَ فقيرٍ صالح مستور ، ويسترْ عياله ؛ وليُهْدِ إلى أهل بيتِ مساكينَ ، فبذلك يتقرَّب إلى الله ، وتقرُبُ عليه إجابةُ دعائه .

وليجتهدْ في إخفاء دعائه وإسراره ، وليُكْثِرْ من الدعاء على قدر نَفَاسَةِ المطلوب ، وليُكْثِرِ الاستغاثة بالله عزّ وجلّ ، وليسجد بمكارم وجهه على الأرض ، أو على ترابٍ بدمعةٍ ، وليتذلَّلْ للرب سبحانه وتعالى ما استطاع .

واعلم أيُّها الأخ : أن للدعاءِ أسراراً غامضةً ، وهو أن يرتفع إلى الله تعالى من قلب حاضر ، خاضع ، مكسور بصحة قصد ، ولا ينبغي أن يكون الدعاء من قلبٍ غافلٍ قاسٍ ؛ فإن ذلك ينافي حقيقة الدعاء ، والدعاءُ الخالص : الذي ليس له تعلق بغير الله تعالى ، هذا سر أهل الفهم عن الله عز وجل في أدعيتهم .

وأما أهل الغفلة ، ومن لا قلب له ، فليست هذه الأسرار من شغلهم ، إنما شأن هؤلاء الأَسجاع والقرائن ، والتزين عند الحاضرين بحسن الصوت ، وذرابة اللسان ، وهذا شيء لا يَلتَفِتُ إليه أصحابُ القلوب ؛ لأن القلوب إذا اشتغلت بالأسجاع والقرائن . . غَفَلت عن سر الدعاء الذي هو إخلاصه ورفعه إلى الله تعالى بالخضوع والانكسار .

قال الله تعالى عند ذكر الدعاء : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ أي : الذين يظهرونه ، ويرفعون به أصواتَهم ، ويتفاصحون فيه ؛ لأن سر الدعاء إخفاؤه ، قال الله تعالى : ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ ، وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « يكون في آخر الزمان أقوام يَعْتَدُون في الطهور والدعاء » ، وقال ذو النون المصري : ادع الله بلسان الفاقة ، ولا تَدْعُه بلسان الحكمة .

وأما الإلحاح في الدعاء . . فمأمور به ؛ لأن ملازمة الدعاء ، وارتفاعه إلى الله تعالى بتصميم عزيمةٍ وإكثارِ إدامةٍ ومبالغةٍ فذلك من علامة الإجابة .

واعلم أيُّها الأخ : أن الدعاء عبادة حسنة ، يُؤمَنُ فيها الرياء والعُجْب وما يُخاف على العبادات من الأمور المبطلة لها ؛ إذ هي حالة تقيم العبد مقام محض العبودية ، ذُلاً وخضوعاً واستكانةً ، فمن أجل ذلك رُفعت هذه العبادة على كثير من العبادات ، فمن أبطرَتْهُ النعمة فتمادى في الهوى فأهمل الدعاء تغابياً وتغافلاً . . فقد استُهْدِف للبلاء ، قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « من لم يسألِ الله . . غضبَ عليه ، إن الله إذا لم يُسْأَلْ غضب » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « إن الله تعالى حَيِيٌّ كريم . . يستحيي من العبد إذا مدّ إليه يديه أن يَرُدَّهُما صِفراً لا يضع فيهما خيراً » .

فليُكثِرِ العبدُ من ذكر هذين الاسمين العظيمين : يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام ، فقد ورد فيهما أحاديث صحاح ، فافهم هذه الأسرار ، فقد كَشَفْتُ لك عن الحقيقة ، فأريتُكَ معالمَ الطريقة .

* * *

فَصْلٌ

نَذكُرُ فيه زيادةَ إيضاحٍ للفصلِ المتقدِّمِ ذكرُه في هٰذا المعنىٰ

اعلم : أن للصدقات أسراراً عجيبة ، ولذوي الفهم عن الله تعالى فيها طريق حسن ، قد جربوها ووجدوا نفعها ، قالوا : ما وجدنا شيئاً أقرب إلى رضا الله تعالى من إدخال السرور على قلوب هؤلاء الأخيار المنكسرين ، فمن كانت له إلى الله تعالى حاجة . . فليصنع طعاماً طيباً مثل ما يصنعه لنفسه أو أطيب ، ثم ليدْعُ إليه هؤلاء ، فإن للرب جلَّ جلالُه إليهم تطلعاً تاماً ، فليسرَّهُم وليُكرِمْهُم ؛ فإن لذلك تأثيراً ، وقد جرّبه أهل المعرفة ، ولهم عادة يعاملون الله تعالى بما يشابه الفداء ، فيفتدون رأساً برأسٍ ، فيذبحون عن المريض رأس غنم ، ويصنعون طعاماً ، ثم يجمعون عليه هؤلاء الفقراء الأخيار رجال السر والصلاح ، أو يهدونه إليهم ، ثم يلتمسون منهم الدعاء للمريض ، فإن لذلك تأثيراً عظيماً مجرباً .

ولهم طريقة أخرى عالية يتعاطاها رجال الحق تعالى في النوازل الصعبة ، والأمراض المخوفة ، وهو أن يَخْرُجَ الإنسان عن أعز ما يملك ، وأنفس ما عنده لله تعالى .

مِثالُه : أن الإنسان إذا مرض ، أو مرض من يعزّ عليه . . فليعمد إلى أعزّ ما يملك من فرس أو عبد أو جارية ، فيبيعه ويصرف ثمنه إلى الأخيار

من الفقراء أهل العفاف والصيانة ، فقلّ أن يفوته المطلوب ، هذا شيء قد جرّبه أصحابُ الحقّ تعالىٰ .

وللصدقة شرائط وآداب ، فمن شروطها : أن تكون من وجه حلال ، وأن يُسِرَّ بها جهده ، ولا يعاودْ ذكرها للفقير ، ولا يذكرها لأحد ؛ لأن ذلك يؤذي قلب الفقير المستور ، وإذا دعا له الفقير يدعو له كما دعا ، حتى لا يذهب أجر الصدقة بدعائه ، فيبقى بلا أجر ، وليتصدقْ بأطيب ما يحضره إن كانت الصدقة طعاماً ، فليحذر أن يُعطي الفقيرَ الرديءَ .

وليجهد أن يحمل الصدقة بنفسه إلى باب الفقير ، وليتواضع له ، ولا يوصل الصدقة إلى الفقير على جهة الترفع والعلوّ ؛ لأنه في ذلك معاملُ اللهِ تعالىٰ ، فليحذر الترفع والتعزز في الطاعات ؛ لأن ذلك مما ينافيها ، بل ينبغي للعبد أن يَخضَعَ للربِّ تعالى حينئذ ؛ لأن الربَّ جلَّ جلاله يكون ناظراً إلى العبد ، فليحذر من الكبر ولْيُحَسِّنْ أعماله جهده ، قال العارفون : تحسين الأعمال أحب إلى الله تعالى من تكثير الأعمال .

واعلم أيُّها الأخُ العارف : أن العارفين إنما نالوا المنزلة عند الله تعالى بتحسين الأعمال ، وحسن الفهم في التقرّب بها ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ أي : أحسنوا له أعمالكم .

* * *

فصل

وينبغي للعبد أن يراعي مروءته ، فإن كان في طباعه كرم . . فليزدد منه ، وليحافظ عليه ، وإن كان في طباعه شح . . فليجاهد نفسه ، وليتخلق بأخلاق ذوي المروءات ، وليتشبه بهم ؛ فإن للمجاهدة تأثيراً بيّناً في الأخلاق .

والمروءة طريقة حسنة يحبها الله تعالى ، وهي شعار الصالحين ، فإن الله كريم يحب الكرم ، ويكره اللؤم ودناءة النفس ، وقد قيل : فاجرٌ سخيٌّ أحبُّ إلى الله تعالى من قارىء لئيم .

فليحذر العبد أن يتخلق بأخلاق اللئام ، فيتعرّض بذلك لمقتِ الله ، ولا يزدادُ بأعماله من الله إلاّ بُعداً ، ولكن يجب عليك أن تميز أيُّها الأخُ بين ما تعطيه لله تعالى ، وبين ما تعطيه مروءة ، فترجِّحَ جانبَ ما هو له على ما تفعله مروءة .

فقد عرفت بما تقدّم أن العمل الخالص هو الذي ليس للنفس فيه حظ بوجه مّا وإن كانت المروءة حسنة .

* * *

فَصْل

واعلم : أن الشُّحَّ تلازمه صفتان رديئتان يأتي ذكرهما ، فينبغي للعبد أن يجانِبَهُ ، ويجاهدَ نفسه في تقليله أو إزالته عنه بالكلية إن قدر ؛ فإن للرياضة تأثيراً بيّناً في الأخلاق ، ولولا إرادتُنا أن يهتمَّ الإنسان بإصلاح هذا الخلق الذميم وقمعه . . لما ألممنا بذكره وإن كان حاصل الكلام في ذلك حينئذ راجعٌ إلى المذمّة التي لا فائدة فيها ، لكن قصدنا من ذكر ذلك لينبعث الإنسان على نفسه ، ويجتهد في نفي هذا الخُلُق الرديء عنه ، أو إصلاح ما يمكن منه إن لم تمكن إزالته بالكلية ، فنقول :

قلَّ أن يفوتَ الشحيحَ ضعفُ العقل وقسوةُ القلب ، أما قسوةُ القلب . . فلا تكاد تنفكُّ عمن استولى عليه هذا الخُلُق وأعرق فيه ، وأما ضعف العقل . . فلأنَّا قد قرّرنا أن العقل هو صحة التمييز ، وثمرته النظر في العواقب ، فلو كان الشحيحُ المسكينُ ذا تمييزٍ ونظرٍ صحيح . . لما اختار لنفسه هذا الخلق الذميم ، واحتمل ما يلحقه منه من المذام والملام والآثام ، وفوّت نفسَه لذة المروءة والاهتزاز للمكارم ، والفضيلة الجليلة دنيا وأخرى من إدخال السرور على ذوي الضرورات الأخيار المستورين ، وما يجد الإنسان في ذلك من الابتهاج بحسن الثناء عليه ، فإن لذة ذلك مطبوعة في جِبِلَّة الإنسان ، هذا مع ما فيه من الأجر العظيم وهو معلوم .

فهذا الشحيحُ المسكينُ في بلاءٍ من نفسه ومن الناس ، فيلتزم في نفسه ـ بمراعاة هذه الخَلّة الرديئة ـ مذمةَ الناس وتعنيفهم ، فيقيم لنفسه الأعذار الباطلة ، ويطلب التأويلات المستبعدة ، ويغالط نفسه مغالطة ، ويعلم

المسكين بسوء حاله في نفسه ، لكن يلزم قبح ما يأتيه اضطراراً ؛ لكون هذا الخُلُق الرديء قد أخمد نفسَه ، واستولى على عقله ، وربما شانه حاله ، وخَزِيَ في نفسه ، وحزن على نفسه في أوقات الصحو ، ثم يعود الطبع الرديء عليه فيقهره ، ويعجز عن مداراته ؛ لغلبة الهوى عليه .

فالشُّحُّ رديء مذموم ، لكنه ينزع إلى أصل هو أردأ منه ، وأضرّ عند الله تعالى ، وهو أن الشحيح يستعذب الشُّحَّ مع ما يلزمه من الإضرار بدينه ومروءته لحالة تتشبث بها النفس ، وتَكْلَفُ بها عند الحصول على المال عُلُوّاً وتجبراً وبذخاً على ضعفاء الناس ؛ لأن شأن النفس طلب العلو ، فهذا صاحب المال تعلو نفسه ، ويعتريها نوعُ خيلاء يعزُّ على النفس ترك ذلك ، والنزول عنه ، فلا يَقْدِر على قهر النفس وردعِها عن هذا الخُلُق الذي تستلزمه النفس إلاَّ أنفس أقوياء الزُّهاد الذين عصمهم الله تعالى ، وبصَّرَهم مواقعَ رشدِهِم ، وهذا المعنى هو الذي يُشْفِق منه أصحاب الحق ، ويحذرون الوقوع فيه ؛ فيختارون الفقر والتقلل من الدنيا حتى لا يقعوا في هذه الحالة المخوفة ، وهو التجبر بالمال ، وتوهم الارتفاع على الناس ، فتنحط منزلتهم عند الله تعالى ، وتنصرف قلوبهم عن تعلقها بربهم عند فقرهم وفاقتهم ، ويصير اعتمادهم على ما عندهم من المال ، فخواص الحق تعالى يحذرون من ذلك ، وبعضهم لا يبيت على معلوم حفظاً لقلوبهم عن التغيُّر ، وخوفاً من فتنة المال ؛ لأن المالَ يُكْسِبُ النفس طغياناً وتعتري ضعفة العقول منه حالة تشبه الجنون . . . نهماً على الدنيا ، وكدحاً لا يفتر صاحبه .

ويلزم من الشحِّ أيضاً سوء الظن بالله ، لأنه لا يثق بربه أنه إذا أخرج شيئاً أن يعوضه الله عنه ، بل تسوّل له نفسه الخبيثة أنه إذا أخرج شيئاً ذهب منه ، فليس لهذا الشحيح المسكين ساعة أنس يصفو قلبه مع ربه ، باطنه أبداً خراب ، لا يزال نافراً مستوحشاً ، سيِّءُ الظنِّ بالناس ، فلا يزال

متنكراً للإخوان ، مَن لقيَهُ . . يفر منه ، يقول : عساه يطلب مني شيئاً ، فلا يزال حذراً خائفاً ، باطنه مظلم ، وقلبه خراب ، نعوذ بالله من هذه الحالة الرديئة .

وقد يكون صاحب الشحِّ شيخاً كبيراً ، قد أفنى عمرَهُ وعنده أموال طائلة ، لو عاش سنين كثيرة . . لكفاه اليسير منها ، ثم تراه مع ذلك كالولهان في طلب الدنيا على أقبح وجه جمعاً ومنعاً ، وربما دخل في المحارم والشبهات ، فأين العقل من هذا؟! وهل هذا التخليط وسوء الرأي إلاّ من نقص العقل ، وفساد التصور؟!

وما أحسن ما قِيل في هذا المعنى :

فإنْ تكُنِ الدّنيا تعدُّ نفيسةً ... فدارُ ثوابِ الله أعلى وأنبلُ
وإنْ تكُنِ الأموالُ للتركِ جمعُها ... فما بالُ متروكٍ به المرءُ يبخلُ
وإنْ تكُنِ الأرزاقُ قسماً مقدراً ... فقلةُ حرصِ المرءِ في الرزقِ أجمَلُ
وإنْ تكُنِ الأبدانُ للموتِ أُنْشِئت ... فقتْلُ امرِىءٍ في اللهِ بالسيفِ أفضلُ

هذا الذي أردنا تبيينه والتحذير منه .

أما الطريق إلى إصلاح هذا الخُلُق . . فمجاهدة النفس بالبذل ، والتشبُّهِ بذوي المروءات ، ومكاثرتهم ، وإشعار النفس حسن طرائقهم ، واستذكار ما في المروءات من المحاسن في الدنيا ، والأجر الجزيل في الآخرة .

ثم ليكثر الإنسان احضار الشحِّ بذهنه ، ويستذكر ما فيه من القبائح والمذامّ ، وتعنيف الناس له ومنقصتهم به ، ثم لْيقفْ على ما ورد في ذم الشحيح من الأمور المخوفة ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ ، وكذا ورد أن الربَّ سبحانه وتعالى أنزل

على داوود عليه السلام في الزبور : ينبغي للعقلاء الفقهاء الذين إذا رأوا نعمي متجددة لديهم ، وقد أمسكَتْ أكفهم عن الإنفاق والانبساط فيها أن يكثروا النوح على أنفسهم ، ويخافوا أن أجعل نعمي عليهم استدراجاً .

وإذا عزم الإنسان على صلاح نفسه ، وقَدَر على محاسبتها ، وتلمُّح عيوبها . . رجوتُ له أن ينصلحَ ويقاربَ ، وإهمال الإنسان نفسه وتركها على سيِّىء أخلاقه موقعٌ له في المكاره والبليات .

واعلم : أن اللؤم أسوأ حالاً من الشح ؛ لأن الشحيح هو الذي يصعب عليه البذل ، وقد لا يكون في طباعه خبث وكراهية لخير يصل إلى أحد ، وربما سُرَّ بخيرٍ ينالُ غيرَهُ إذا لم يكن من جهته ، فإذن الشحيح قد يكون في جِبِلَّته نوع خير ، وأما اللئيم . . فإنه مع شحه يكون كارهاً للخيرات أن تصل إلى أحد ، وربما يُفْرِطُ هذا الخُلُق الخبيث إلى حدٍّ لو قدر أن يمنعه . . لفعل وإن لم يكن له في ذلك نفع ؛ لما قد غلب على هذا الإنسان المسكين من الطباع الشيطانية المهلكة ، ويُنْشَدُ في هذا المعنى :

ياربِّ إن لئامَ النَّاسِ قد كَثُروا ... فاستأصِلِ القومَ حتىٰ يظهرَ الكَرَمُ
أوْ سِمْهُمُ بسماتٍ يُعرَفون بها ... كما تُوسَمُ في آذانها النَّعَمُ

وينبغي للعبد إذا كان موسراً أن يواسي في الشدة ، وأن يكون بذولاً لطعامه إذا زاره إخوانه ، فليقدّم لهم ما تيسَّرَ من غير كُلْفَةٍ ، فإذا رأى ذا ضرورة . . فلا يتخلف عن مساعدته ، وإذا طَبَخَ في بيته طعاماً . . فليذْكُرْ جيرانه المستضعفين ، وليحذر أن يَشُمَّ فقيرٌ رائحةَ طعامٍ ، ولا يُطْعِمُه منه ؛ فإن ذلك أمر مخوف لا ينبغي أن يُغفل عنه .

* * *

فصل

وكذا ينبغي للعبد أن يرى نفسه فقيراً بعين الحقيقة ؛ فيرضى بالدون من المجالس ، وأن يحمل حاجته بنفسه ، وإذا رأى فقيراً عاجزاً عن حمل شيء.. ساعده على الحمل ؛ فإن ذلك لا ينقص منه شيئاً ، وهذه طريقة الأخيار الذين ساعدهم التوفيق ، ونظروا بعين التحقيق .

فليحذر العبد أن يكون نظرُه إلى الرياسة والترفع على الناس ، وكذا ليحذر العبد أن يكون قَصْده بشيء من أعماله أن يُذْكَرَ أو يُعْرَفَ به ؛ فإنها حالة رديئة ، لأن العبدَ حينئذ تقع أعمالُهُ لنفسه ، لا لله تعالى ، وليحذر العبد هذا فإنه عين الرياء ، وليبتغ وجه الله تعالى في جميع أحواله ، وليُكثِرْ تلمُّحَ أحوالِ قلبه ، وليعلم أنه مناقَشٌ على النقير والقِطمير بين يدي حَكَمٍ عَدْلٍ لا يَظلِمُ مثقال ذرة .

وكذلك ينبغي للعبد أن يراعيَ سَمْتَهُ وهيئتَهُ في مشيتِهِ ، ومحاورتِهِ ، وسائرِ أحواله ؛ ليكون عليه الوقار والسكينة ، ولْيَكُنْ رحيماً خمولاً مدارياً هشّاً بشّاً ، فإن ذلك شعار الصالحين ، قال عليّ كرم الله وجهه : البشاشة حبالة المودّة ، والاحتمال قبر العيوب .

وما أحسن ما قِيل في مراعاة السمت والهيئة والوصية بالتواضع :

وَلاَ تَمْشِ فَوقَ الأرضِ إلاّ تواضعاً   فَكَم تحتها قومٌ هُمُ مِنْكَ أرفعُ
وإن كنتَ ذا طَولٍ وعزٍّ ومَنْعَةٍ   فَكَم تحتها قومٌ هُمُ مِنْكَ أمنعُ

* * *

فصل

وينبغي للعبد أن يدرّب نفسه على الصبر على أذى الناس فقلّ أن يفوته ، وليكن حليماً صفوحاً ، وليحذر أن يجازي مسيئاً بإساءته ، فيذهب أجره ، وتفوته فضيلة الإحسان ، قال علي كرم الله وجهه : مَن أعطىٰ مَن حرمَهُ ، ووصلَ مَن قطعَهُ ، وعفا عمن ظلمه.. كان له من الله الظهير والنصير .

فإن كان للإنسان عدوٌّ.. فطريق ذوي العزم أن يبدؤوه بالسلام ، وأن يُحسِنوا إليه ؛ لتزول سخيمته ، فإن صلح وإلاَّ.. أهدوا له شيئاً ، فإن أردتَ أيُّها الأخُ طريقةَ العقلاءِ الأخيار.. فعليك بقول الشاعر :

وإذا الجهولُ طَمَتْ به غَلْواؤُهُ   فاجعلْ لَه الحلمَ الرصينَ لجاما

وليحذر العبد من إضمار السوء لعدوّه ، وليطهِّر قلبه من الغلِّ والحقد ؛ فإن ذلك شأن أبناء الدنيا المقهورين بأهوائهم ، وهي طريقة رديئة متعبة في الدين والدنيا ، تتعب العبد ، وتفتح عليه أبواب الشرور ، وتُلْزِمُه أموراً يعجز عنها ، فإن قَدَر العبد أن يضبط نفسه بحيث يتأدب بما تقدّم في هذا الكتاب.. فقد استراح وكُفِيَ مؤناً عظيمة .

فلا يغفل العبد عن التأدب بهذه الآداب الجليلة ؛ فإن لمشاراة الناس مؤونة ثقيلة ، يدفعها الإنسان عن نفسه بأيسر شيء إن ساعده التوفيق ، وكان ممن يُحسِنُ ذلك ، وهو أن يفكِّرَ الإنسان ، ويُحضِرَ ذهنَه أنه إذا بلغ مراده من خصمه وغلبه.. ما الحاصل له من ذلك؟ وهل لذلك جدوىٰ

سوى الانقياد لرعونة النفس الأمارة بالسوء ، وتبليغها هواها الذي لا حاصل له؟ هذا مع ما يلزم الإنسان في بلوغ هواه من احتمال اللائمة للناس ، وترك المأمور به من فضيلة التحلم ، ويستسهل التغرير بالنفس والعِرْض ؛ لأنه ربما كان في ذلك خطر ، فإن إثارة الشرور ليست سهلة .

فإذا فكّر العاقل في صعوبة هذه الأمور التي تهون على الجاهل ، ورأى أن الحاصل منها لا شيء .. لم يعذر عن الاحتمال والمداراة وإماتة الشرور والأحقاد .

قال عليّ كرم الله وجهه : الحلمُ فِدامُ السفيه ، والاحتمال شأن الأبطال ، وبه تَتَبَيَّنُ قيمُ الرجال ، ألا ترى إلى قول الشاعر :

لقد أَسمعُ القولَ الذي كاد كلما ... تُذَكِّرُنيه النفسُ قلبي يَصَدَّعُ
فأُبدي لِمَنْ أبداه مني بشاشةً ... كأنيَ مسرورٌ بما منه أسمعُ
وما ذاك مِن عُجْبٍ به غير أنني ... أرىٰ أنَّ تركَ الشرِّ للشرِّ أقطعُ

* * *

فصل

أما الغضب .. فإنه باب عظيم من أبواب الإثم ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا غضب العبد .. أشفىٰ على نار جهنم » ، فينبغي للعبد أن يجاهد نفسه ساعة الغضب ؛ فإنها ساعة بلوى ، وليحفظ يده ولسانه ، وليكظِمِ الغيظَ جهده ؛ فإنها حالةُ محنةٍ يبتلي الله تعالى فيها العبدَ ، فإنْ نظر إليه نظر رحمة .. خُلِّص منها ، وإن خذله ورفع عنه عنايته .. خَسِرَ خُسراناً مبيناً ، فليصبر العبد ، وليُحْضِر ذهنه قَدْرَ نفسه بالحقيقة ، وليتذكر أنه صائر إلى مولاه تعالى ، واقف في موقف صعب لا يخلصه منه إلا ما قدم من الخيرات ، فربما سَكَّن ذلك غضبه .

قال عليّ كرم الله وجهه : الحِلمُ عند الغضب يُؤَمِّنُكَ غضب الجبار .

وليتحفظ العبد أن يقول أو يفعل في غضبه شيئاً يندم عليه ، ويوقِعُهُ في سَخَطِ الله تعالى ، وإذا كنتَ ذا سلطان .. فتثَبَّتْ ولا تعجلْ بالانتقام من عدوّ ؛ فإنَّ يد الله فوق يدِك ، وسلطانه قاهرٌ لسلطانك ، وقد أمَرَكَ بالحلم والاحتمال ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ، فاحذر التجبر عند القدرة ، والصولة عند التمكن ؛ فإن التَجَبُّرَ لله الواحد القهار ، فمن نازعه فيه .. قصمه ، وقد قال عليّ كرم الله وجهه : جُدْ على عدوك بالفضل ؛ فإنه أحسن الظَّفَرَيْنِ .

فمتى زجر الإنسان نفسَه عن غلوائِها .. انكفَّت وسكنت ، ومتى أرخىٰ لها الرسَنَ .. طَمِعَتْ وطَمَحَتْ إلى ما ليس لها من الصفات الربوبية كما قيل :

والنَّفسُ راغبةٌ إذا رَغَّبتَها ... وإذا تُردّ إلى قليل تقنع

وقال آخر :

وكانت عَلَى الأيام روحي عزيزةً ... فلما رأت عزمي على الذُّلِّ ذلَّتِ
وجاشتْ عَليَّ النَّفسُ أولَ مرةٍ ... وَقَرّتْ على مكروهِها فاستمرتِ
وما النَّفسُ إلاّ حيث يجعلُها الفتىٰ ... فإن أُطْمِعَتْ تاقَت وإلاَّ تسلَّتِ

رُوِيَ أنَّ الربَّ سبحانه وتعالى قال في بعض الكتب : يا ابن آدم ؛ اذكرني إذا غضبتَ . أذكُرْك إذا غضبتُ ، فلا أمحقك فيمن أمحق ، وإذا ظُلِمْتَ . . فارْضَ بنُصرتي ؛ فإن نصرتي لك خيرٌ من نصرتك لنفسك .

وكذا رُوِيَ في المعنى من كلامٍ أنزله الله تعالى في بعض الكتب السالفة وهو : مَن عمل بغير مشورةٍ . . فذلك باطل بيقين ، ومن لم ينتصِرْ من ظالمه بيدٍ ولا حقد ولا لسان . . فذاك علمه يقين ، ومن استغفر لظالمه . . فقد هَزَم الشيطان .

فإنها ساعة يتمكن فيها الشيطان من العبد ، يبتغي زلته وغوايته ، فلينتبه لها .

* * *

فصلٌ ٤٥

(محاذير)

ومما ينبغي لك أيُّها الأخُ أن تستيقظ لما يصدر عنك من الأحوال التي تجب عليك مراعاتها ، اجتنب العهودَ والوعودَ والأيمانَ ، وكلَّ ما يُلقي الإنسان في ربقة الوفاء به ، فإن الشيطان مُوَكَّلٌ بنقض العهود ، فإذا عاهدتَ عهداً ، أو وعدتَ وعداً . . فاجهد في الوفاء به ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾ ، وعَقِّب كلامَك بالمشيئة ، ولا تُكثِرَنَّ منطِقك بالحَلِفِ كمثل : (لا والله) و(بلى والله) ، وليكن منطقُك منك على بال ، فإن الكلام كالسهم يفرط فيورث الندم ، ويبقى العبد مرتهناً بزَلَلِهِ ، ولا كمثل هذه الأشياء التي يقولها الناس على سبيل الإعجاب والتبجح كقول أحدهم : قط ما عرض لي المرض الفلاني ، أو ما احتجت إلى أحد قط ، أو ما أصابني الشيء الفلاني قط ، فما يبعد قائل هذه الأشياء من التغير والابتلاء ، فيوشك أن يصيبه ذلك مفاجأة وذلك كما قيل :

احفَظْ لِسانَكَ أنْ تَقولَ فتُبْتَلَىٰ ... إنَّ البلاءَ موكلٌ بالمنطقِ

فتحفَّظْ من هذه الأشياء ، واحذر الوقوعَ فيها ، وجانب الغيبة ؛ فإنها خلُق ذميم ، وإثمها عظيم ، وهي حالة صعبة تَصْنَعُ بصاحبها عواقبَ السوء ، وتضع منه ولا تحصِّلُ له فائدة ، وما أحسن قول الشاعر في هذا المعنى :

وأُكرِمُ نفسي عن جزاءٍ بِغِيبةٍ ... وكلُّ اغتيابٍ جَهْدُ مَن لا له جَهْدُ

وكذا جانب النميمة ، فإنها شأن المرذولين الذين يُغْرُونَ بين الناس العداوةَ والبغضاء ، وجانب الكذب ؛ فإنه حالة قبيحة ، والكذبُ مجانبُ الإيمان كما جاء عنه عليه الصلاة والسلام في الحديث : « الكذب مجانبُ الإيمان » ، وقال سفيان الثوري رحمه الله : ما كَذَبَ كذّابٌ قط إلاَّ مِن هوانِ نفسه عليه .

واحذر أن تُعَيِّرَ أحداً ببلية ابتلاه الله تعالى بها ، فيرميك الله بمثلها .

واحذر أن تزدريَ أحداً من الناس ، أو أن تحكي عنه ، أو تُضْحِكَ النَّاسَ عليه ؛ فإن هذه كلها أخلاق اللئام ، ولا مِثْلَ السُّخرية بالناس ، وتحذَّرْ من الإفراط في الضحك كيلا تذهب هيبتُك ، ويَعقبَك الحزنُ .

واحذر المبالغة في الفرح كيلا يُسرِعَ إليك الغمُّ .

واحذر أن تكسرَ قلب أحدٍ ، أو تُخْجِلَه بين الناس ، أو أن تُثير باطنه عليك ؛ فإنَّ كسرَ القلوب حالة صعبة مَخُوفة ينبغي للإنسان أن يتقيها ، ويخافَ عواقبها ، لا سيما من أصحاب النفوس العزيزة ، الذين أحوالهم مستورة ؛ لأنه قد ورد في الكتب المنزلة : وارحمْ نفسَك تكن من المرحومين ، ولا تُظهِرْ خطأ إنسان ولا زَلَلَهُ ، بل استر عيبهُ وخللَهُ ، وإذا مشيت . . فلا تمش في الأرض مرحاً ولا تتخيل ، وجانب العُجْبَ في أمورك كلها ، عبادة كان ذلك أو علماً أو كلاماً ؛ فإنَّ العُجْبَ حالةٌ دنيئة ، تمقت صاحبها ، وتضعه عند الناس .

وينبغي لك أيُها الأخُ أنْ تُطهِّرَ قلبَك من الحقد ؛ فإنه نتيجة الغضب ، وهو خلق صعب يؤدي إلى الإضرار والتهالك في أذية الناس ، لغلبة الهوى على الناس ؛ لأن الهوى ينشأ مع الغضب ، وينبتُّ مع الحقد ؛ لأن الحقد هو إضمار الأذى في حالة التمكن ، وهو من ضعف الجِبِلَّةِ ، والأقوياء ذوو العقول الراجحة تشرفُ نفوسُهم عن الانتقام ، وكذا لا يرون

التشفي ، ويرون هذه الأخلاق من ضعف الغرائز .

وأصل هذا كله أن الإنسان إذا نظر بعين الحقيقة ، وكان التفاته وميله إلى الآخرة . . هانت عليه هذه الأمور التي تصعب على غَفَلَةِ أبناء الدنيا ، فما هو إلاّ أن يتصوب القلب إلى جهة ، فيصير غريباً عن الجهة الأخرى ، كذا حال الدنيا والآخرة فاعلم .

وكذلك ينبغي لك أيُها الأخُ أَنْ تنزه قلبك عن الحسد ؛ فهو صفة قبيحة تنشأ من لؤم الطباع ، ليت شعري! إذا زالت نعمة غيره . . ماذا يجدي عليه؟! فلو فطن الإنسان لهذه القبائح . . لأشفق من تعلقها به ، وأرجو أن يكون للتنبيه عليه أثر ؛ فإن الإنسان إذا عُنِيَ بإصلاح أخلاقه . . انقادت له أو قاربت ، فعليك أيُّها الأخُ بملازمة الخير إظهاراً وإضماراً ، وجانب الشرور والأذى من كل جهة وطريق ؛ فإنَّ عاقبةَ ذلك مخوفة .

واعلم : أنَّ الإنسان قد يبلغ من الخير غاية يقارب بها المَلَكَ ، ويتنازل به الحال في سوء الأخلاق إلى أن يصير كالشيطان المريد ، نعوذ بالله من درك الشقاء ، ونسأله تعالى منازل السعداء بمنِّه وكرمه .

* * *

فَصْلٌ

اعلم أيُّها الأخُ : أن أكثر الأخيار مبتلون في هذه الدنيا بالفقر والضائقة ، لم يزل هذا الحال عاماً في أغلب أهل الخير في قديم الدهر وحديثه ، والسرّ في ذلك أن الله سبحانه وتعالى اختار لخواصّه العيشة الراضية في الدار الأخروية ، فَقَضَى عليهم بالفقر ورقة الحال هنا ؛ لتتوفر حظوظهم هناك .

وأما اجتماع الدنيا والآخرة للإنسان . . فهذا قليل جداً ، لا يكاد يقع إلاّ نادراً في أقوام يقلّ عددهم .

قيل : أوحى الله تعالى إلى الدنيا فقال : يا دنيا ؛ احلوّي لأعدائي حتى لا يحبوا لقائي ، وتمرمري لأوليائي حتى لا يسكنوا إليك فتفتنيهم .

فالابتلاء عام شامل للخليقة ، قلَّ أن يخلو أحد منه ، ولكنه مراتب .

فتارة تكون البلوى في الدين ، وهذا أصعب الأقسام من البلاء ، أعاذنا الله وإياكم من ذلك معاشر الإخوان .

وتارة تكون البلوى في العقل ، وهذا أيضاً رديء قريب من البلوى في الدين ؛ لأن البلوى إذا حلّت بالعقل . . تخبط الإنسان ، وساء نظرُهُ ، وكثر غلطه في تدينه ، وفسدت عليه حاله في دينه ودنياه .

وتارة تكون البلوى في الأنفس ؛ فيتولد من ذلك الشُّحُ والدخول في المعاصي ، والتهالك في حبِّ الدنيا ، وهذا أيضاً رديء .

وتارة تكون البلوى في حال الإنسان في أمور دنياه ، وهذا أقرب

أحوال البلوى ، وذلك قسم الأخيار ، أكثر ما يبتلون في أمور دنياهم ، وأهل البعد عن الله تعالى أكثر ما يبتلون في أديانهم .

فأبناء الدنيا المساكين يكون أحدهم مبتلىً في دينه ، وهالكاً مع ربه ، ومع ذلك هو فرح ومرح لغفلته عما يراد منه ، ولو اطّلع المسكينُ على ما يؤول إليه حاله . . لبكى على نفسه .

فينبغي لكم معاشر الإخوان أن ترضوا بما قُسِمَ لكم من شعث الأحوال ، وتعذر المراد ، فهذا شأن أصحاب الحق تعالى ، فلا تتبرموا بضيقة أحوالكم واصبروا ، فقد قيل : مَن كره البلية في دنياه . . انقلبت إلى دينه .

ورُوِيَ عن بعض الصالحين أنه قال : ما أردتُ من الدنيا شيئاً قط ، فتهيأ لي حتىٰ لقد ركبتُ مرةً حماراً فجهدت به أن يمشي تحتي ، فلم يمش ، فنزلت عنه ، فركبه غيري فمشى تحته فساءني ذلك ، فأُتِيتُ في منامي فقِيل لي : لا يسوءَنَّكَ ما زويناه عنك من دنياك ، إنما يفعل ذلك بأحبابه وأصفيائه وأهل طاعته ، قال : فسرَّني ذلك ، وسُرِّيَ عني .

ورُوِيَ أن موسى عليه السلام ، قال : يا رب جعلتَ رزقي هكذا على أيدي بني إسرائيل! يُغَدِّيني هذا ، ويعشيني هذا ، فقال له الربُّ تعالى : هكذا أصنع بأوليائي . . أُجري أرزاقهم على أيدي البطَّالين من خلقي ليؤجروا فيهم .

فاحذر أيُّها الأخُ أن تقنط من إبطاء الرزق ، ولكن تلَقَّ حكم ربك بسعة صدر وحسن صبر .

واعلم : أنك بعين الله تعالى ، يعلم من حالك مالا تعلمه أنت ؛ فإن لربك في ضائقتك وفقرك حِكَماً وأسراراً ، فلا يُطْلِعُ عليها أحداً لا أنت

ولا غيرك ، هذا مع كرمه وعلمه بحالك ، وهوان الدنيا عليه ، ولكن كما أنه كريم فكذا هو حكيم ، فلا يناقض كرمُهُ حكمتَهُ .

سُئل الكتاني : لِمَ حُرِمَ الفقراءُ رِفْدَ الأغنياء؟ فقال لأمور ثلاثة : أحدها خبث الأموال ، والثاني قلة توفيق الأغنياء ، والثالث أن الفقراء مرادون بالبلية .

فاحذر أيُّها الأخُ أن تكون بكليتك معتمداً على مخلوق مثلك في طلب رزقك ؛ فيكلك ربك إليه ، ولكن راعِ قلبك ، وكن بكليتك مع ربك ، فهو الذي سخَّر لك خلقه إذا أحسنت معاملته .

ولأصحاب الحق جلَّ جلاله في هذا الباب سِرٌّ لطيف مَن قَوِيَ على فعله . . فليقتدِ بهم ، وهو أن القوم إذا ضاقوا . . عاملوا الله بالصدقة ، فتكون قدرة أحدهم درهمين مثلاً ، فيعامل الله تعالى منهما بدرهم على قدر قوّة حاله وحسن يقينه ، ولكن السرَّ في صحة المعاملة ، فإذا حسُنت نية العبد ، وخلصت من الشوائب المُفسدة للأعمال ، ووجد في نفسه طمأنينة . . فإن العوض لا يكاد يتأخر عنه ، إنما يُخاف أن يُبطِل ذلك اضطراب القلب ، والإساءة في المعاملة بالتفريط في شرائطها ، بأن تكون من شبهة ، أو يصرف الصدقة إلى غير مستحق ، أو مَن ليس بخيِّرٍ أو مَن لم يراعِ الإحسان في الصدقة ، كمن تصدق ومَنّ على الفقير ، أو كَسَر قلبه بأن أظهَرها ، فإن المطلوب إذن قد لا يحصل ، هذا شيء قد جرّبه أرباب المعاملة فافهمه ، واعمل عليه تُصِبْ بعون الله ومشيئته .

فإذا أردت التقرّب إلى الله تعالى بإطعام الطعام ، فلتكن مواصلتُك للفقراء الأخيار أرباب الصيانة والتعفف ، الذين تتعذر عليهم الأقوات ، وقد قعدت بهم الحدود من هؤلاء أرباب العيالات المستضعفة والنساء

الأرامل والأيتام المحاويج ، فلا تضع طعامك في هؤلاء الفُرّاغ البطّالين ، الذين قد اتخذوا دوران البلاد حرفة ، فلا تظهر عليهم آثار الخير ، يضيِّعون أوقاتهم فيما يُذْهِبُ مروءاتهم ، ويدنِّسُ أديانهم ، فهؤلاء لا في عمل دنيا ولا في عمل آخرة .

* * *

فصل

مَنْ أراد أنْ يعلمَ مقدار إيمانه . . فلا يعتبرَنَّ ذلك من نفسه ولا من غيره بالأعمال الظاهرة ؛ فإن هذه الأعمال يعملها البر والفاجر ، إنما الاعتبار بحقيقة الإيمان أمور اختصها الله تعالى ، الحبُّ في الله ، والبغض في الله .

والاستقامة هي طريقة القوم ، وعليها مدار معوَّلِهم ، فإذا أردتَ أنْ تعلم مقدار استقامتك في سلوكك . . فتلمَّحْ أحوال قلبك ، فإذا وجدت قلبَك مائلاً إلى الخير بالكلية ، ونافراً عن الشرِّ جملة ، وكارهاً لأنواع الفساد في الأرض . . فسلوكك مستقيم ، وإن وجدت قلبك مقصِّراً عن كُرْهِ شيءٍ من الشرور الواقعة في العالم ولوَ اليسير منها . . ففيه بقية شائبة تلحقك بأصحاب الشرور ، بحسب ما فيك من ذلك التقصير .

فعَدْلُ القلبِ هو الاستقامة ، ولا يتوقف الأمر أن يكون العبد ذا قدرة وملابساً للأشياء ، بل بمجرد ما ينطوي عليه القلب ، ويكون ثابتاً في نية الإنسان بحيث لو قَدَر . . فعل وأزال أنواع الفساد في الأرض والشرور جملة ، فهذه صفة حقيقة الاستقامة فاعلم .

فإذا أردتَ أن تعتبر حال الإنسان في إيمانه . . فانظر إلى مقاصده وخلطائه ، ولا يغرَّنَّك ما ترى من الإنسان من زيّ أو عبادة أو انعكاف الناس عليه ، ولكن اعتبر حقيقة تقواه وخوفه من الله تعالى ، وصحة أمانته في معاملته مع الناس ، فذاك هو الأصل المعتبر .

فمن رأيته يلزم حدود الشرع ، ويوالي أهل الخير وإن خملوا وكانوا

مزهوداً فيهم . . فاقض له بصحة الإيمان ، ومن رأيته يدّعي الزهدَ وهو مع ذلك مفتون يوالي أهل الدنيا ، ويميل إلى الظَّلَمة والمقدَّمين الأشرار ، ويميل مع من اشتهر وكثرت جموعه . . فإن ذلك مفتون ، فاجتهد أن لا تدانيه ، ولا يغرَّنَّك ناموسه وشهرته ؛ فإن ذلك قد يكون في أقوام أراذل لا خلاق لهم ، قد فتنهم ميل الجهّال إليهم ، وكثرة من ينتمي إليهم من هؤلاء السفهاء الذين يضيعون أوقاتهم معهم في البطالات والخرافات ، وهؤلاء هم الذين يسمون قطاع الطريق على العباد .

قال عيسى عليه السلام : لو بلغت أعمالكم عنان السماء ، وحبٌّ في الله ليس ، وبغضٌ في الله ليس . . ما أغنىٰ عنكم ذلك من الله من شيء .

وقيل لبعض التابعين : ألا تدخل على فلان الأمير؟ قال : أخشى أن يُدني مجلسي فيودَّهُ قلبي ، فأُحشَرَ معه يوم القيامة لمحبتي له .

وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « أوحى الله تعالى إلى بعض الأنبياء أن قُلْ لفلانٍ العابد : أمَّا زُهدُكَ في الدنيا . . فراحة تعجَّلتَها لنفسك ، وأما انقطاعك إليّ . . فتعزَّزت بي ، فماذا فعلتَ فيما لي عليك؟ قال : يا رب وما ذاك عليَّ؟ قال : هل واليتَ فيَّ وليّاً؟ وهل عاديتَ فيَّ عدوّاً؟ »

* * *

فصل

واعلم : أن أعمال البر من الصوم والصلاة ، ونحوهما تؤثر تأثيراً حسناً في القلوب اللينة الخيرة ، وأصحاب هذه القلوب ينبغي لهم أن يجعلوا هذه المعاملة طريقهم إلى الله تعالى ، وقلَّ ما تُؤَثِّرُ هذه الأعمال في أصحاب القلوب المتكبرة القاسية ، بل ربما أَدَّتْهم هذه الأعمال إلى التيه والعُجْب بأنفسهم ، فينبغي لأرباب هذه القلوب أن يداووا قلوبَهم بالخيرات التي تكسر سَوْرَةَ النفس من مكاثرة ضعفاء الخلق ، والتواضع لذوي المسكنة ، والمقاربة لهم في زيهم وأحوالهم .

وكذا ينبغي لهم أن يبالغوا في التواضع ، فيحملون الصدقات بأنفسهم إلى أبواب الفقراء والمحرومين المنكسرين ، ويعودوا المرضى الخاملين ؛ فإن ذلك يؤثر تأثيراً حسناً في الأنفس المستصعَبة الشديدة ما لم يؤثر فيها الصوم والصلاة .

رُوِيَ أن حَبراً من أحبار بني إسرائيل صنَّفَ ثمان مئة وستين كتاباً حتى انتشر ذكره في الآفاق ، فأوحى الله تعالى إلى نبيٍّ زمانه أن قُل لهذا الحبر : ملأتَ الأرضَ نفاقاً ؛ لم تُرِدْ به وجهي ، ولا أردتَ بشيء منه رضاي ، فوعزتي وجلالي لاتقبلْتُ لك عملاً ، فلمّا قال له النبيُّ عليه الصلاة والسلام ذلك . . سُقِط في يديه ، ورمى تلك الكتب ، وأتى غاراً في جبل ، فتعبد فيه برهة ، فأوحى الله تعالى إلى ذلك النبيِّ : أنِ اذْهبْ إليه وقل له : يقول لك الله إنك لم تُصِبْ رضاي ، فلمّا قال له النبيُّ ذلك . . تحير وقال : ماذا أصنع؟ فألهمه الله تعالى : أن ادخل الأسواق ،

واخفض من نفسك ، ففعل وخفض من نفسه ، وساعد الضعيف ، ومسح على رأس اليتيم ، فأوحى الله تعالى إلى ذلك النبيِّ أن قل له : الآن أصبتَ رضاي .

ورُوِيَ أنه كان في بني إسرائيل رجل خليع ، فاجتاز عابد من عباد بني إسرائيل في الطريق ، فاتبعه ذلك الخليع وقال : لعله أن تنزل عليه رحمة فتصيبني معه .

قال : فجعل الخليع يتبع العابد ، فالتفت إليه العابد وقال : مالي ولك ، أنا عابد بني إسرائيل ، وأنت خليع بني إسرائيل ، اذهب عني ، فذهب الخليع ، وقد انكسر قلبه .

قال : فأوحى الله تعالى إلى نبيٍّ ذلك الزمان أن قل لهذا الخليع : قد غَفَرْتُ لك كلَّ ذنب عملتَهُ بتواضعك لهذا العابد ، وقل لهذا العابد : قد أحبطتَ كلَّ حسنة عملتَها بتجبرك على هذا الخليع ، قل لهما فليستأنفا العمل .

* * *

فصل

في الفرق بين المُحَاسَنة والنّفاق

المحاسنةُ من الإنسان إلى الناس دليل عقله ، وهي طريق سليم يَستدفع الإنسانُ بها الشرورَ ، ويتقي بها المكروهَ بأيسر مؤنة ، إذ لا ينبغي للإنسان أن يكاشف الناس ، ويثير شرورهم ، فهذا طريق صعب للإنسان ، مفسد على الإنسان حالتي دينهِ ودنياه .

فالمحاسنة طريقة حسنة مأمور بها لكن بقدر ، وبشرط أن لا يبالغ الإنسان فيها ، فيخرجه الأمر إلى حد النفاق .

قيل : أوحى الله تعالى إلى داوود عليه السلام : اعمل بعمل الأبرار ، وتبسم في وجوه الفُجّار .

فالفاجر إذا لم يُظْهِرْ فجورَه . . فلا بأس بمحاسنته ؛ استدفاعاً لشرِّه ، أما إذا كان فجوره ظاهراً . . فليس لمحاسنته وجه ، فلا محاسنةَ ولا كرامةَ ؛ لأن الإنكار عليه حينئذ واجب ، وقد رُوِيَ أن الربَّ تعالى قال لداوود عليه السلام : خالِصْ أوليائي مخالصةً ، وخالِقْ أهل الدنيا مخالقةً .

وشأن أهل الفهم محاسنة الناس ، ولقاؤهم بالحَسَن ، يعاملون الناس بظواهر أحوالهم ؛ فلا يتجسسون عليهم ، ولا ينقبون على أحوالهم كما قال بعضهم : إنا لَنَكْشِرُ في وجوه أقوام ، وإن قلوبنا لتلعنهم .

هذه هي المحاسنة المأمور بها ، أما إذا كان الرجل يلقى الناس بالحسنى ، ويكيدهم في الباطن ، ويضمر لهم السوء ، فهذا نوع من النفاق .

* * *

فصل

اعلم : أن لذَّاتِ أربابِ القلوبِ غير لذَّات أصحابِ النفوس ؛ لأن لذَّات القلوب هي اللذَّات بالحقيقة ، ولأن أرباب القلوب يرتاحون بالخيرات والأنس بالبواطن ، والتنزه في الأفكار الحسنة ، فشأن أرباب القلوب طلب الأماكن الخالية ، وتلذذهم بها لا سيما الأماكن التي ينطق حالها برحيل ساكنيها عنها ، فأصحابُ القلوب يرتاحون بنحو هذه الأشياء التي تنفر منها أصحاب لذَّات النفوس ، وبينهما بَوْنٌ بعيد .

فطريق أصحاب القلوب القناعة باليسير ، والارتياح بما تؤدي إليهم أذهانهم من الغِيَر ؛ استئناساً ببواطنهم ، وتلذذاً برياض أفكارهم ، ولا كذلك أصحاب لذَّات النفوس ، فإن لذَّات أصحاب النفوس قد تكون صعبة متعبة ، كالتكثر من الأموال جمعاً ومنعاً ، وكالتعب الشديد في طلب الانتقام ، والتشفي من الأعادي ومن الأضداد ، واقتحام الآثام العظيمة من نيل الشهوات التي هي هينة مُطَّرَحَة عند أرباب القلوب .

فأرباب القلوب الذين غناهم في قلوبهم ، وإن كانت أيديهم صفراً من المال ، وهذا شغل أصحاب الأنس على حدتهم ، وهم ذوو الاعتزاز مع قلة أنصارهم فهم يزجُونَ أوقاتَهم تَزْجِيةً ويشكرون ربهم على قوت يوم فيوم ، ويرونه من أتم النعم ؛ لأن جمع المال والتفاخر به حالة صعبة لا يكاد يسلم صاحبها حتى يشكر النعمة بالبذل ، ومساعدة ذوي الفاقة ، والمجانبة لشحِّ النفس المذموم صاحبه ، وهذا قليل الوقوع في ذوي المال ؛ لقلة التوفيق الغالبة عليهم ، لا سيما في وقتنا هذا ، فإن الشحَّ قد استولى على الأنفس .

قال عيسى عليه السلام : بحقٍّ أقول لكم : لَدُخولُ الجملِ في سم الخياط أيسرُ من دخولِ غني الجنة ؛ أي : من غير حساب!!

ورُوِيَ أن الربَّ سبحانه وتعالى قال لموسى عليه السلام في الخطاب : يا موسى إذا رأيت الفقر مقبلاً . . فقل مرحباً بشعار الصالحين ، وإذا رأيت الغنى مقبلاً . . فقل ذنبٌ عُجِّلَت عقوبته ، يا موسى لا تنسني ؛ فإن عند نسياني تكثر الذنوب ، ولا تفرح بكثرة المال ؛ فإن كثرة المال تُقَسِّي القلب .

واعلَمْ أيُّها الأخُ : أن من كان قبلَنا من أهل الأزمان الصالحة . . كانت قلوبهم طيبة ؛ لِطِيبِ أزمانِهم بمشاهدتهم للفضلاء النبلاء ، وكثرة الصدق في المقاصد ، والتنافس في العمل بمحاسن السنن ، فحيث انقضت تلك الأزمان الصالحة ، وذهب أهلُها . . عُدِمَتِ الفضائل ؛ فَعَدِم أهلُ الأزمان المتأخرة راحاتِ القلوب من الالتذاذ بمكارم الأخلاق ، ومشاهدة أصحاب الصدق ، فاضطرَّهم الحال إلى طلب الراحة بالأمور النفسانية المهينة المتعبة ، حيث تعذر عليهم ما كان لأهل الأزمان السالفة من الالتذاذ بالفضائل والمكارم ، وقد تقدم لنا أن النفوس لا بدّ لها من شيء تشتغل به ؛ لكونها شبه النار في الخلقة ، فإن قَدَرَتْ على الفضيلة ، وإلا . . استبدلت مكانها بالرذيلة .

فإن قدَرْتَ أيُّها الأخ السالكُ أن تُتعِبَ نفسَك لتحصل لك لذة القلب . . فاجهد فإنه المُلْكُ الهنيء ، فهذه لَذَّة لا يعرفها أبناء الدنيا المُبتَلون بالجمع والمنع ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ ، فهذه الراحة كما ترى ثمرة حُسْن المعاملة ، وهي القناعة ، وطِيبُ القلب من غير مال .

وبضد ذلك ترى العبد المعاقَبَ بتفريطه في جنب الله تعالى يكون ذا

يسار ، وحالةٍ صالحة ، وتراه لا يزال ضيق الصدر سيِّء الأخلاق ، كثير الهموم .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ .

قال عكرمة : يرزقه الله رزقاً حراماً يُنَكِّدُ عليه عِيشَتَهُ ؛ فإنَّ شأن الحرامِ أن يُسيءَ الأخلاق ، ويُخبِثَ القلب ، ويُضيِّق الصدر .

هذا شيء مجرب لا شك فيه ، فترى أهل هذا القسم في بلاء من أنفسهم ، مكدودة أبدانهم ، مشغولة قلوبهم ، بعيدة مطالبهم ، وهذا تعب لا تُدرَك غايته ، نعوذ بالله منه كما قيل :

غِنى النفس ما يكفيك مِن سَدِّ خلة ... فإن زادَ شيئاً صار ذاك الغنىٰ فقرا

ومما نحن فيه : لذّات أصحاب الشهوات الدنية كالملاهي ، والمغالاة في الأمور الدنيوية كالملابس وزخرفة الدُّور ، وشبه ذلك من الأمور التي يحتقرها ذوو الهمم وأصحاب العقول ، فيكون العبد مُبتَلىً بتضييع ماله وعمره في هذه الأشياء ؛ عقوبةً له ، وسقوطاً لمنزلته عند الله تعالى ، فافهم هذا واحذر الوقوع فيه ، وأدِمْ مسألةَ ربك عز وجل يتغشاك برحمته ؛ فإنه قريب مجيب .

* * *

فصل

وهذه الشهوات والملاذ إنما تستولي على الأنفس الضعيفة ، وتعتاص عنها الأنفس القوية ؛ لأن ذا العقل الرصين إذا رأى هذه اللذات إنما تحصل بذهاب شي من دينه أو مروءته أو ماله ، وأنَّ غُنْمَها لا يفي بغُرْمِها . . رَغِبَ عنها وربح الحرية ، وخلص من استعباد الشهوة له ، وكُفِيَ مؤناً كثيرة كانت تلزمه في نيل تلك الشهوة المحتقرة عند ذوي الحصافةِ .

واعلَمْ : أن الأقوياء من الرجال لا يرون نيل هذه الملاذ المُفْرِطَة التي تخلب النفوس ، وإنْ قَدَروا عليها ، وكانت ممكنة مباحة ؛ لأن اللذَّات المفْرِطة تحرّك نارية النفوس ، ويصير للنفوس بها نوع غرام ، ويصير صاحبها كالولهان ، فالعقلاء ينزِّهون أنفسهم عن هذه النقيصة التي هي شأن النسوان والصبيان ، فأقوياء الرجال تكون شهواتهم طوعهم ، وأهل الضعف والعجز هم طوع شهواتهم كما قيل :

ولا يدرأُ النفسَ الجموحَ عن الهوى   من النّاسِ إلاّ وافرُ العقلِ كاملُه

قال علي كرم الله وجهه : العاقلُ عدوُّ لذته ، والجاهلُ عبد شهوته .

ولا مثل هؤلاء المساكين أرقاء الشحِّ المبتلين بالجمع والمنع ، الذين قد استعبدتهم أنفسهم ، فترى أحد هؤلاء المساكين لا يستطيع أن يُصَبِّر نفسه عن أحقر شيء من ملاذ هذه الدنيا ، فترى أحدَهم يكون ذا سِنٍّ ومنظرٍ وأبهة ، وتراه مع ذلك كالطفل الصغير الذي لا تمييز له يردعه عن قبيح ما يأتيه مما تغلبه عليه نفسه الصغيرة ، فغرائز الأنفس في نسبتها إلى

الحق والباطل تختلف اختلافاً بيِّناً ، فأصحاب الأنفس القوية الحصيفة شيمتهم الميل إلى الحق ، والالتذاذ بالأمور الصحيحة ، فترى أنفُسَ هذا القسم من الناس تتألم من الباطل ، وتأباه ويتصعب عليها الدخول في شيء منه إذا أُلجِئَتْ إليه ؛ لكون الباطل منافياً لِجِبلاَّتهم .

وأصحاب الأنفس السخيفة الضعيفة شيمتهم الميل إلى الأباطيل والأشياء التي لا حاصل لها ، وليس لهم همة في طلب شي له حقيقة ، وربما صدرت عن أهل هذا القسم الأمور المستقبحة غلبةً ، ثم يَنْدَمون عليها وينقادون إليها بزمام جبِلاَّتهم ، كالكذب مثلاً ، فإنه قد يصدر من أقوام عادة وغلبة ، فأصحاب هذه الجبلاَّت يلتذون بإلقاء ما في أنفسهم حسناً كان ذلك أو قبيحاً ؛ لكون طباعهم تقودهم إلى ذلك ، إذ حكم الطبع ملزم للإنسان حاكم يحكم عليه . . فيعتريه شبه النشوة عند ميل طبعه ، ويُسْلَب تمييزه لينفذ فيه الأمر الذي يراد منه ، فلا يشعر بنفسه حتى يقع فيه ، وما أحسن ما قيل في هذا المعنى :

قالت وأبثثتُها وجدي فبحتُ به   قد كنتَ عندي تحب السترَ فاستترِ

ألستَ تُبصر مَن حولي فقلتُ لها   غَطَّىٰ هواكِ وما ألقىٰ على بصري

وهذا كله من موت القلوب وظلمتها ، وضعف النفوس وسخافتها ، لأن التجربة قضت أن هؤلاء القساة القلوب هم الضعفاء الأنفس ، الذين تغلبهم أنفسهم ، فيُصبحون أُسَرَاء أنفِسهم وشهواتها الدنيئة وإن كان القوم أقوياء القلوب ، وإن أصحاب رقة القلوب ولينها هم الأقوياء الذين تصغر الدنيا في أعينهم ، وتشرُف أنفسهم عنها ، وهذا مِثْلُ ما تقدم لنا من القول أنَّ أصحاب قوّة الحس يضرُّ ذلك بعقولهم ، وأن أصحاب العقول التامة ينقص ذلك من إحساسهم في أغلب الأحوال ؛ لتتعادل الأشياء ، ولتتقابل المخلوقات ؛ لأن الكمال في هذا العالم مستبعد جداً قليل الوجود .

* * *

فصل

كلما انجلى الرين عن القلب ، وصَحَتِ النفس من سُكرِ الهوى . . تمكن الإنسان حينئذ من تلمُّح معايبِ نفسه ، ومنه قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : رحم الله امرأً أهدىٰ إليَّ عيوبي .

والعاقل لا يزال يطلب الإصلاح لنفسه ، ويجتهد في تقليل عيوبه ؛ لأن الإنسان لا بدّ فيه من نقائص ومعايب ، فالعاقل يعرف ذلك من نفسه ؛ والجاهل عاجز عن رؤية ذلك من نفسه ؛ لكون نفسه غارقة في بحر الهوى والتخليط الغالب على سرّه ، فهو عند نفسه أكمل الناس ، ولعلّ نقصه يَظهَرُ لمن عنده أيسر تمييز .

مثاله : أن الإنسان ذا الهمة إذا عَرَف من نفسه صفةَ الكِبْر والميل إلى الترفع على الناس . . كَرِهَ ذلك من نفسه ؛ لِعلمِه أن هذا خُلُق ذميم مُبعِدٌ عن الله تعالى ، لأنه من صفات الربوبية ، وينافي حال العبودية ، وهو يُمقِتُ العبدَ عند الناس ، وإذا عَرَف العاقل ما يلزم من هذا الخلُق الرديء من الضرر . . جَهِدَ في إزالته عنه بمعاشرة ذوي المسكنة والخمول ، وخفَضَ من نفسه فقارب الفقراء في أحوالهم .

فإذا رأى العاقلُ ما يلزم من هذا الخلُق من الضرر ، وأنْ لا حاصل له سوى زهو النفس والبذخ على الناس . . أشفق مِن تعلُّق هذا الخلق به ، واهتمّ بإزالته عنه ، وربما خَيَّلَ الشيطان للإنسان أنَّ الترفُّعَ على الناس يحفظ على الإنسان منزلته ووجاهته ، فيكون ذلك سبباً لدوام معيشته وصلاح حاله ، وليس كما خيل إليه . . بل الأمر بالضد ؛ لأن الكبرَ يُمقِتُهُ

عند الناس ، ويضع منه فتنفر النفوس عن نفعه ، والمتواضع يصلح حاله لمحبة الناس له ، كما ترى الناس يرفعون المتواضع ، ويضعون المترفع ، فالجاهل أفرح الناس بحاله ، وأكملهم في نفسه! ولو فَطِنَ المسكينُ لما فيه من النقص . . لَبكى على نفسه كما قيل : الناقص مستور عنه نقصه ، ولولا ذلك لتقطعت نفسه حسرات .

فمن خصائص العقل أن العاقل قد يكون كثير الفضائل ، يغبطه الناس على ما فيه من الصفات الحسنة ، وهو مستصغِرٌ لحالِهِ ، ذامٌّ لنفسِه ، لا يزال متألماً حزيناً ؛ لنَظَرِهِ في العواقب ، وخوفِهِ من مفاجأة الخطوب وصدماتها ، فشيمة زماننا هذا أن يُتعِبَ الأفاضلَ ، وأن يَسُرَّ الأراذلَ كما قيل :

أرى زمن النوكاه[1] أسعدَ أهلَه ... ولكنما يَشْقىٰ به كلُّ عاقلِ
مشت فوقَه رجلاه والرأسُ تحته ... فكَبَّ الأعالي بارتفاع الأسافلِ
فنقَّصَ حظَّ الأكرمينَ انقلابُه ... وأعلى رجالاً من شرار القبائل

فالذي يُقْدِرُ الإنسانَ على النظر الصحيح . . هو التوفيق منه تعالى بسبب حسن المعاملة ، ألا ترى إلى قول الفضيل بن عياض رحمه الله : مَنْ عامل الله بالصدق . . وَرَّثه الحكمة ، وإلى قول العارف الآخر في ضد المعنى : من خان الله في السرِّ . . هتك الله ستره في العلانية ، معناه أن الإنسان إذا أكثر التمرّد على الله تعالى . . عُجِّلَ له من العقوبة ما يفضحه بين الناس ، يأتي القبيحَ وهو لا يدري ؛ لكونه قد رين على قلبه ، يشهد لهذا قوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .

---

(١) النوكىٰ : الحمقىٰ .

فأعمال الخليقة لا شك تولِّدُ عليهم أحوالاً في قلوبهم ، إن خيراً . . فخيراً ، وإن شراً . . فشراً . فالإنسان إذا صحح أعماله ، وخلَّصها من الرياء والشوائب المفسدة لها . . فإن الله تعالى يَهدي قلبَه فيزول عن قلبه الزيغ ، ويذهب الغِشاء من بصيرته ، وينفذ تلمُّحهُ في الأشياء ، فيميِّز بين الأمور الصحيحة وبين الأمور الباطلة بما منحه الله تعالى من صحة النظر ، فيصح إدراكه للأشياء ، ويَنْعَم باطنه ، ويصير قلبه موضع تنزهه ومحل راحته ؛ لما يشاهد فيه من العجائب وأسرار الملكوت .

فإن قَوِيَ توفيق هذا العبد شيء آخر ، فترقى إلى المرتبة العليا . . فهي أعلى مراتب رجال الحق تعالى ، وهو أن يصير هذا العبد ـ الذي قد استشعر باطنُه الصحةَ ، وتلمَّح الأشياء ببصيرة ثاقبة سالمة عن الأهواء المخبِّطة للقلوب ، وقوَّم الاعتدال زيغَ قلبه ـ حاضرَ القلب بين يدي الربّ تعالى ، لا يزال قلبه مراقباً لجلال الربوبية ، مديماً للذكر ، مراعياً لقلبه من الخواطر السيئة المدنِّسة له ، فهذا شأن الخُلَّص من الرجال فاعلم .

وأما الأعمال السيئة . . فإنها تولِّدُ على الإنسان ضد ما تقدّم ذكره ، فقد يكون عند الإنسان نوع خير ، فيغفل المسكين عن نفسه ، فربما سامح نفسه في شيء من الذنوب وإن قلّ ؛ فيدرِّبُه ذلك إلى ما هو أكبر منه ؛ لأن هذه الشرور تتلازم ، ويجرّ بعضها بعضاً ، فتتطرق صغار تلك الذنوب إلى كبارها ، فَيَرِدُ على قلب هذا الإنسان الذي قد فتح على نفسه باب المعاصي الرين وعمى القلب ، فتُظلِم بصيرته ، ويتخبط في أمره ، فربما قصد الحق . . فيجنح به الحال إلى الباطل ، وربما آثر الطاعات . . فيقصر عنه التوفيق فيقوده الهوى إلى أمور يظنها طاعات وهي ذنوب خفية وهو لا يشعر ؛ لما قد غَشِيَ بصيرته من الغِشاء والظُّلْمة بسبب تمرُّده على مولاه تعالىٰ .

هذا حال العباد مع مولاهم فاعلم ، إن أطاعوه وأخلصوا له الأعمال . . نوّر بصائرهم ، وهدى قلوبهم ، وإن تمردوا عليه ، وجاهروه بالمعاصي . . سلّط عليهم الأهواء ، فأعمت قلوبَهم ، وأفسدت أحوالهم ، فاحذر أيُّها الأخُ هذه الأمور المخوفة ، وتقرّب إلى مولاك بالصدق لينجيك من هذه الأمور والبليات .

* * *

فصل

أيها الأخُ العبدُ الضعيفُ اعلم : أنك مبتلىً بهذه النفس التي بين جنبيك بلوىً ، إن فطنت لشرّها وكنت طالبَ حقٍّ . . فأنت تعرف نقص جبلّتها ، وتدأب في إصلاحها ، وإن تركتها وأمراضها . . ألقتك في الهلاك ، فمن نَقْصِها أنها تنفر من أشياء لا ضرر فيها ، كما ترى الإنسان العاقل ينفر من كلمة ليس لها وقع ولا حقيقة ، وربما كانت من صبيٍّ لا تمييز له ، أو جاهل لا يُعتَبَرُ بكلامه . . فتثور نفس الإنسان من ذلك ، وهو يعلم بعقله أن ذلك الشيءَ لا حاصل له ولا ضرر منه ، وهذا من ضُعف النفس ، ونقص جِبلّتها في أصل الخلقة .

وكذا ترى الإنسان يُذيبُ نفسَه ، ويُهلِكُ دينَه في طلب أمر لا حاجة به إليه ، كما ترى هؤلاء السلاطين يقتحمون الأخطار ويتحملون الأوزار في أخذ البلاد وحصار المدن من غير حاجة بهم إلى ذلك ، بل بمجرد زهو النفس الأمّارة بالسوء ، ولو فكر هذا المسكين ، وكان عنده علم بمعالجة النفس وكفِّها عن أهوائها الفاسدة . . لكان يداري ثَوَران النفس ، ويشغلها عن هذا الغرض المتلف ، واقتحام هذه الأمور العظيمة التي تُذهِبُ الدين ؛ لما فيها من الإضرار بالخليقة ، والفساد في الأرض ؛ لأن شمول الغفلة ، وسُكر الهوى يمنعان العقلَ أن يعترِضَ على النفس ، فإذْ ذاك تتمكن النفس من غلوائها ، ويتسلط الشيطان على العبد ، فيزول عنه التوفيق ، ويصير منقاداً بزِمام الهوى لا يكاد يخلص منه ، فكأنه يقول بلسان حاله اللائمة :

فكيف يَصنعُ مَن أقصاهُ مالكُهُ   فليس يَنفعُهُ طبُّ الأطباءِ

فهذا المعنى : هو الذي يدأب الصالحون في علاجه ، ومداواة أنفسهم منه ، فمتى أحسوا بتغير شيء من أخلاقهم . . سارعوا إلى علاجه بما يناسب إصلاح ذلك الداخل عليهم .

الا ترى إلى ما ذكرنا لك من ذي المنصب العالي ، والجِبلّة الفاضلة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد رآه عروةُ بن الزبير يحمل القربة على ظهره فقال له : يا أمير المؤمنين لا يصلح لك هذا ، فقال : بلى ، أتاني وفود العرب سامعين مطيعين ، فداخَلَتْ نفسي نخوة فأحببتُ كسْرَها ، فذهب بها حتى صبها في بيت امرأة أرملة .

فانظر إلى قوة هذا الرجل الكامل الذي تستحيل مقاربة شيء من أخلاقه ، كيف خاف دخول الخلل عليه مع قوّته وعلوّ شأنه ، فما ظنك بنا ونحن جيل ضعيف وزمانُنا زمانُ نقصٍ؟! فافطنْ أيُّها الأخُ لهذه الأسرار ، وجاهد نفسك مجاهدةً إن كنت طالبَ حقٍّ . . فقد نبَّهتُك في هذا الفصل على شيء من أخلاق النفس ونقصها ، فانتبه وَاسْمُ بنفسك إلى أخلاق رجال الحق جلَّ جلاله ، ولا يَغلِبنَّك العُرفُ الفاسد والنفس الحرون ، واقتفِ مسالكَ الرجال أبطالِ الطريق الذين أُمِدُّوا بالتوفيق ، وهُدوا إلى سواء الطريق .

* * *

فصل

حُسْنُ الخلقِ صفةٌ حسنة ، وهي من صفات الرجال ، وذلك لطيب أنفسهم بما منحهم مولاهم تعالى من العطايا السنية والمواهب الجليلة ، فبذلك تحسن أخلاقهم ، وتنشرح صدورهم ، ولا كذلك أرباب الدنيا ؛ فإنهم يستولي عليهم الضجر والملال والهموم لِتَشَبُّثِهِم بالأمور المتعبة التي تُعجزُهم ، فمن شرد على مولاه . . خَرِب قلبُه وتخبَّط باطنه ، فإذا التفتَ هذا الإنسان إلى باطنه فرآه خراباً مخبَّطاً مظلماً . . حَزِن لذلك ، وساءَهُ أمرُ نفسه ، فيضجر ويضيق بأمره ذرعاً ، فيطلب الإنسان الاستراحة بما يُغفِلهُ عن الفكر في حال نفسه ، كالجلوس في الطرق مع البطالين ، والاستروواح إلى العبث بالكلام الفارغ .

كل ذلك يفعله الإنسان استقالةً من الفكر في أحوال نفسه ، ولا كذلك رجالُ الحق تعالى ؛ فإن بواطنهم منوَّرة ، وأفكارهم حسنة ، فيستأنسون ببواطنهم ، ويرتاحون بمطالعة أسرارهم .

واعْلَمْ : أنَّ حُسْنَ الخلق الممدوح ليس ما يظهر على الوجه الرضي من البشاشة التي لا أصل لها ؛ فقد تظهر على الإنسان البشاشة ، وتكون أفعاله سيئة ، إنما حُسن الخلُق طلاقة الوجه الرضي التي يمدّها صلاح القلب ، فتظهر منه الأفعال الجميلة ، فهذا هو حُسن الخلُق فافهمه ، وكذا قد صار أهل العُرف يطلقون العقل على من يكون ساكن الظاهر ، خامد النفس ، متثاقل الحركات ، كثير الصمت ، وهذا قد يكون في أقوام ضعيفةِ عقولهم ، وكذا العقول قد تكون في أقوامٍ حِدَادٍ ، قال

النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « خيار أمتي أحِدّاؤها »(١) ، إنما العقل ما قدمنا لك القول فيه ، وهو حُسن النظر ، وصحة الرأي ، سواء كان صاحب ذلك حديداً أو ثَبْتاً .

وأوضح دليل على عقل الإنسان اختياره ، لا سيما إذا عزفت نفسه عن هذه الدنيا الدنيئة ، فهو أدلُّ دليل على صحة عقله ، ولا يغرّنك ما ترى في أقوام من ذرابة لَسْنٍ ، أو ترصيف كلام ؛ فإن ذلك قد يكون صناعة يتعلمها الإنسان ، والعقل غريزة ممدوحة قد يكون في أقوام يغلب عليهم العيّ والحياء ، وذلك لا يضرهم ولا يقدح في صحة نظرهم وجَوْدَة تمييزهم .

* * *

(١) الحِدّة : والمراد بها هنهنا : هو المضاء في الدين والصلابة والقصد في الخير . « النهاية » لابن الأثير (ج ١ / ٣٥٢) .

فصل

نزيد في هذا الفصل على الوصاة المتقدمة لأهل العلم فنقول :

أيُّها الأخُ المحاوِلُ للعلم ؛ ينبغي أن تكون حافظاً لوقتك ، مشفقاً على عمرك أن يَضِيع في غير فائدة ، فلا تحاول من العلوم إلاَّ ما أكسبَك خُلُقاً حميداً ، أو أرشدك إلى عمل صالح ، وما عداها من العلوم فإنه ضياع وقت ، واشتغال بما لا يُجدِي ، وربما ضَرَّ ، لأنه قد ورد : العلمُ إن لم ينفعْك ضَرَّك .

فانظر لنفسك أيُّها الأخُ ولا تغترَّنَّ بما ترى في أيدي بعض أهل الوقت من العلوم التي لا جدوى لها ، فجانبها واحذر أهلها ؛ فإنهم مفتونون قد دخل عليهم الشيطان ، فاجهدْ أن تأخذ من العلوم ولا تأخذ منك ، واحفظ عليك حرمتَك وأخلاقك .

واعلم : أن من شأن العلوم أن تحرِّك نارية النفوس ، وكذا المال والجاه ، فانتبه لنفسك ، وقدّم الحَذَر في أمورك ، ولا تهمل وإلاَّ تعلقت بك المذامُّ ، وصرت منقوصاً بين إخوانك ، فاحفظ عليك مروءَتك ، ولا تقل لا أبالي بمن قال ، فقد قيل للأحنف : بم نلتَ المروءة؟ قال : لو عاب قومي الماءَ البارد ما شربتُهُ!

واعلم : أن رفعة الدنيا كالعلم والمال والجاه إذا صادفَتْ نفساً ضئيلة صغيرة . . أكسبَتْها طيشاً ورعونة ، وصار صاحبُها أحدوثةً بين الناس ، وإذا صادفَتْ نفساً شريفة قوية . . أكسبَتْها فضيلةً وجلالة ، كالرياح الشديدة إذا صادفت ريشاً . . طارت به إلى كل واد ، وإلى كل ناحية ،

ولا تؤثر في الجبال الرواسي ، فكذلك حال النفوس إذا وردت عليها الملاذ والشهوات ، كالصور الحسان مثلا ، فإذا وردت على الإنسان الثابت . . فإنه يُضَعْضِع منه شيئاً يسيراً ، ثم يثوب إليه عقله ، فيثبت لها وقاراً ورصانة ، وأما الخفيف العقل . . فتُتعِبه ويطيش عقله منه ، فيصير كالسكران الذي قد غَلَب على عقله السُّكر ، فهو كالغريق في سكرته ، وأنشدوا :

على قدر عقل المرءِ في حال صَحْوِهِ ... تؤثر فيه الخمرُ في حال سُكْرِهِ
فتأخـذُ مـن عقـلٍ كثيـرٍ أقلَّـهُ ... وتأتي على العقلِ القليلِ بأسْرِهِ

فالعاقل الذي يحفظ وقته ، ويُحكِمُ أموره بالفكرة الصالحة ، ويقدِّرُ الأمرَ قبل وقوعه فيه ، ولا يهمل النظر في عاقبته .

واعلم : أن كثيراً من العلوم التي قد أُحدِثَتْ في زماننا هذا لا يحصل لأربابها منها لا خلُق حميد ولا عملٌ صالح ، إنما يحصل للإنسان منها الأخلاق الذميمة من الاستطالة على الناس ، وخُبث الأنفس بما يتخيل للإنسان في نفسه أن أحداً لا يصل إلى ما وصل إليه ، وهؤلاء الناس جهّالٌ عوامٌّ ، لا يفهمون الدقائق والغوامض ، فيستولي على الواحد منهم الشيطان ، ويضيِّع عليه زمانه في أهواس وتخاييل لا يحصل منها إلاَّ على سوء الأخلاق ، وتضييع الزمان فافهم هذا ، واعمل عليه ، فقد محضتك النصيحة ، فإذا وجدتَ في نفسك نَزْغاً من الشيطان . . فاستغِث بمولاك يغثك . . فليس يخلِّصُك إلاَّ الالْتجاء إليه عز وجل ؛ إنه سميع قريب مجيب .

* * *

فصل

أيُها الأخُ لا يكن زهدُك عجزاً وبطالة ، ولا خيرُك تجابناً وركاكة ، ولا عملُك عُجْباً واستطالة ، ولا حُبك هوىً وشغفاً ، ولا سعيُك كدحاً وتهالكاً ، ولا إقدامُك رعونة وتهوُّراً ، ولا كرُمك تبذيراً وإسرافاً ، ولا كرهُك بغضاً ومَقتاً ، ولا أكلُك نَهَماً وجشعاً ، ولا تعززُك كِبْراً واستطالة ، ولا تواضعُك ضِعَةً ومهانة ، بل اقتصد في أمورك ، وجانب الإفراط في أفعالك ، فكل شيء إذا اقتصد فيه . . وقع الموقع الحسن ، وإذا أَفْرَط فيه أو قصر الإنسانُ عما يستحقه . . صار إلى حد النقص ، حتى في الأخلاق والأعمال ينبغي للإنسان أن يقتصد فيها ولا يُفْرِطَ .

مثالُه : أَنَّ البشاشةَ حسنة ، فإذا أفرط فيها . . صارت إلى حدّ السخافة ، وكذا القول الجميل ، وحسن التودّد الذي يلقى الإنسان به الناس إذا أفرَط فيه . . صار إلى حد المَلَق .

وكذا ينبغي الاقتصاد في سائر أنواع الخيرات ، وأعمال البر بأن يجانب صاحبُها الإفراط ؛ فإن الخيرات إذا أُفرِطَ فيها . . انقلبت إلى ضدّ حالها كما قيل : الشيءُ إذا زِيدَ في حده انقلب إلى ضده .

فالسِّرُّ في النهي عن الإفراط في الأشياء كلها ـ أعمالاً كانت أو أخلاقاً أو غيرها ـ خفيٌّ ، وهو أن الإنسان إذا تكلَّفَ أمراً من هذه الأمور المفرطة . . اعترَى النفسَ نوعُ عُجْبٍ ، فيرى الإنسانُ حينئذ نفسَه بعين العلو على الناس ، والاستصغار لأحوالهم ؛ حيث قد أتى بما يَعجَزُ عنه غيره ، كمن أدام قيام الليل ولم ينم ، أو صام فلم يفطر .

والعُجْبُ رديءٌ مفسدٌ للأعمال ، فلأنْ يعملَ الإنسانُ عملاً متوسطاً من أعمال الخير خيرٌ له من أن يُفرِطَ في عمل ، وهو به معْجَب فاعلم ، وقد قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « بُعِثْتُ بالحنيفيةِ السهلة السمحة » ، فالطريقة الوسطى شأنُ العقلاء ذوي الفهم ؛ لأن طريقَ ذوي المعرفة مجانبةُ الهوَىٰ ، فالإفراطات كلها مرجعُها إلى الهوى ، والتقصير عما يستحقه عجز ، فكن بين ذلك قواماً .

والمَثَلُ [الذي] يناسب ما نحن فيه : لا تكن مُرّاً فتُعاف ، ولا حُلْواً فتُستَرَط ، وأصل هذا قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ .

وقد جاء عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم النهي عن البُغضة وقال : « هي الحالقةُ ، لا أقول تحلق الشعَرَ لكن تحلق الدين » ، والبغضة الحالقة هي الإفراط في الكُرْهِ ، فالكُرْه إذا أُفرِط فيه .. صار بغضاً ، والبغض إذا أُفْرِطَ فيه .. صار مَقتاً ، وكذا الحب إذا أُفرِطَ فيه .. صار هوىً ، ويدخل الداخل على الإنسان في الهوى كيفما تَصَرَّف ؛ لأنه يلزم منه الشغف والطيش ، وتعتري الإنسانَ منه حالةٌ عجيبة تشبه السُّكر ، فتمنعه التمييزَ وصحةَ الرأي .

* * *

اعلم : أن هذه النفس التي بين جنبيك لا بدّ لها من شيء تشتغل به ، فأنت إن كنت تحسن أن تشغلها بالخيرات . . قَنِعَتْ بها وانقادَتْ لها ، وإلاَّ . . مالت إلى الأباطيل والشهوات كما قيل : النفسُ إذا تَفَرَّغَتْ نازعت إلى الفُحشِ ، لأنها لا بدّ لها من شيء تشتغل به إن كان خيراً ، وإلاَّ . . فشراً ؛ لأن النفس تشبه النار ، لا بدّ لها من حطب وإلاَّ . . خمدت ، فمتى قدر الإنسان على تسييسها وتدريبها على الخير ، وإلاَّ . . شردت عليه ، وألزمته الدخول في الشرور ، ويتصعب على الإنسان حينئذ الخلاصُ منها ؛ لأن بين الشرور وبين النفوس مناسبة أكيدة ، فهي إذا تشبثت بالشرور . . صَعُب خلاصُها منها ، لكون الشرور مناسِبة لخُلُقِها .

ولهذا المعنى ينبغي للإنسان إذا أراد إدخال النفس في طريق الخيرات . . أن يرفق بها ، ويداريها ولا يعنِّفَ بها ؛ لأنها غريبة في مسالك الخيرات وليست من جِبِلَّتِها ، فإن لم يُحسِن المداراةَ لها والرفقَ بها . . نفرت منه ، وشردت عليه ، والطريق إلى ذلك أن لا يضيق علَيها بالكلية ، بل يسامحها أحياناً في نيل شيءٍ من الراحات المباحة ؛ فإن ذلك يُعِينُها على احتمال أفعال العبادات ، لأن النفس كالمطية إن لم يراع الإنسان عَلَفَها وسَقْيَها ، وإلا . . قطعت به أحوج ما يكون إليها ، وأصل هذا كلِّهِ من قول النبيِّ صلى الله عليه وسلم : « إن هذا الدين متين فأوغِلوا فيه بالرفق » ، فهذا يُعَرِّفُك أيُّها الأخُ الصالح السالك كيف تسلك . . فافهم واعمَلْ وفقك الله تعالى .

* * *

اعلم أيُّها الأخُ : أن الذكرَ عبادةٌ جليلة مأمور بها ، وهي شعار الصالحين ، وعمدة المتسلكين ، وله آداب وشرائط .

فمن أدابِهِ : أن يكون على الإنسان الوقار والسكينة حالة الذِّكْر .

ومن شرطه أيضاً : حضور القلب ومواطأة القلبِ اللسانَ .

وسِرُّ الذِّكْرِ هذه الحالة التي أذكرها لك ، وهو أن الإنسان كلما تلفظ بكلمة من الذكر . . يجب أن يتصوّرها ، ويعرف القلبُ معناها ، فكما يتصف اللسان باللفظ . . يتصف القلب بمعنى ذلك اللفظ .

والذاكر ينبغي له أن يراعيَ أموراً ثلاثة :

أحدُها : حُسْن اللفظ والنطق به بثباتٍ وتؤدة واعتبار .

والثاني : أن يتصوّر القلبُ معنى ذلك الكلام مواطأة بين القلب واللسان .

المعنى الثالث ـ وهو الأصل ـ : أن تكون كلية نظر العبد حالة الذِّكر إلى المذكور جلت عظمته ، ولا تكن كليةُ همِّهِ مقصورةً على الذِّكْرِ فقط ، فيغفل عن المذكور .

مثال ذلك : أن العبد إذا قال سبحان الله . . فينبغي أن يتلفظ بهذه الكلمة العزيزة بثباتٍ ويقين من غير عجلة ، وأن يَشعُرَ القلبُ بمعناها ، وهو التنزيه لله تعالىٰ ، ثم ليكن جُلُّ نظره متعلقاً بالمذكور سبحانه وتعالى أكثر من تعلقه بالذِّكْرِ ، فأعلىٰ أحوال الذكر أن تستغرق الذاكرَ هيبةُ

المذكور تعالىٰ ، فيغفل الذاكر عن وجود نفسه ، ويصير قلبه متعلقاً بالمذكور تعالىٰ جملة فلا يلتفت إلى شيء سواه ، هذا هو سِرُّ الذِّكْرِ فافهمه واعمل به تُصِبْ بعون الله تعالىٰ ومشيئته .

* * *

فصل ٥٩

اعلم : أن العبدَ إذا قاربت حالهُ التمامَ . . مال إلى الخمول ، وآثر العزلة استئناساً بسِرِّهِ ، وابتهاجاً بما مُنِحَ من عمارة قلبه ، وطلباً للسلامة من الفتن والإعانة على الخيرات ، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : خذوا بحَظِّكم من العُزلةِ .

وليس للعبد المتخصص في وقتنا هذا مثل الخمول ؛ فإنه وقت صعب قد فسدت فيه المودّات ، وقلّت فيه الخيرات ، فحسْبُ الإنسان اليوم العزلة والخمول ؛ ليسلَمَ له دينُه ، وليَعِفَّ عن قرناء السوء ، فالعارف يستطيب الخمول ، ويغتبط به أكثر مما يستطيبُ غيرُهُ الشهرة والرياسة على الناس ، وما أحسن ما قيل في هذا المعنى :

أَلاَ حبَّذا عيشَ الخمولِ وحبَّذا ... مَقِيلِيَ في أكنافِه ورقادي
خمولٌ ولين طاب مثوايَ فيهما ... فقد جَهِلَ الحسادُ طِيبَ مِهادي

ولقد أحسن أحنف العكبري أيضا في هذا المعنى حيث قال :

مَن أراد المُلْكَ والرا ... حةَ من هَمٍّ طويلْ
فليكُنْ فرداً من النا ... سِ ويرضَى بالقليلْ
ويرى أن قليلاً ... نافعاً غيرُ قليلْ
يترك الكبر لأهْلِيه ... ويرضَى بالخميلْ
ويداوي مرضَ الوَحدة ... بالصبر الجميلْ
لا يماري أحداً ما ... عاشَ في قالٍ وقيلْ

ثـم مَـعْ ذلـك لا يعـ رِفُ سَمْحـاً مـن بخيـلْ

فـإذا أكمـل هــذا كــانَ فــي مُلْـكٍ جليـلْ

أُفٍّ مِـن معـرفـةِ النـا س علـىٰ كُـلٍّ سبيـلْ

ولعمري! لقد أجاد هذا الشاعر ، وشعرُه هذا عينُ السلوك فاعلم .

* * *

فَصْل

اعلم : أن ذوي المعرفةِ يعرفون الرجال بالحق ، والجهّالَ يعرفون الحق بالرجال ، ومعنى هذا : أن العاقل ذا المعرفة لصحة رأيه إنما يثبت الفضيلة للإنسان إذا رآه مائلاً إلى الحق ، فلمعرفته بالحق يعرف أصحابه ، والجاهل لا يعرف الحق ، فكل من كثرت جموعه وأصحابه واشتهر في الناس . . قال : هذا على الحق ، وكل ما يفعله صواب ؛ لقلةِ علمِهِ بالحق .

ومعنى معرفة الحق بالرجال : أن يقول هذا الرجل القليل العلم : هذا الأمر حق ؛ لأن فلاناً قاله أو فعله ، وقد دخل من هذا الأمر داخِل عظيم على العامة المساكين ، واتبعوا أقواماً أراذلَ جُهَّالاً ، أضلوهم وهم يحسبون أنهم مهتدون .

فهذه الجموع الكثيرة من أصحاب المذاهب المختلفة لا يمكن أن يكونوا جميعاً على جِبلَّةٍ واحدة في سوء التمييز وفساد التصوُّر ؛ إذ الخليقة الوافرة لا تتفق على جبلَّة واحدة ، فقد يكون في هذه الجموع من له عقل وتمييز ؛ ولكن ينقهر عقله وينغلب تمييزه لتكاثر الجمع على مخالفته فيتهم العاقل إذ ذاك عقلَه ، ويستصعب مخالفة طائفته ، ويستَرْوِحُ إلى متابعتهم ، ويَعْجَز عن الشذوذ عن جملتهم ، فتصير موافقته لهم عادة ، فيترك تمييزه ويتبع الجمع ، لأن مخالفة الإنسان للطائفة التي هو واحد منها داعيةٌ إلى فسادِ حالهِ وعيشتِهِ ، فالقَوِيُّ العقل ربما خالف بصحة نظره الجموع الضالة باطناً ويوافقهم ظاهراً مداراة ، فإن كان الإنسان تامّ

العقل.. ثبت على هذه الحالة ، وإن كان متوسط العقل يَعجَزُ عن النظر والتمييز ، واتَّهَمَ عقلَه في مخالفة أهل مذهبه فتابعهم وانخرط في سلكهم ، وألقىٰ إليهم مقادتَه ، فغلَبَ على هذا الإنسان حينئذ العصبية وسوء الرأي .

* * *

فصل

اعلم : أنَّ الشكرَ من الطاعات المأمور بها ، وهو عادة حسنة تُؤذِنُ لصاحبها بالمزيد ، قال الله تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ .

فمعنى الشكر : الاعترافُ لله تعالى بالنعمة ، وحمدُهُ تعالى عليها ، وهذا نوع من التوحيد يَحْسُن موقعه من العبد ، كما أن تناسيه ، ودوام الغفلة عنه نوع من الكفران .

واعلم : أن للنِّعَمِ أثماناً ، وعليها حقوق واجبة ، ومطالبات لازمة لا ينبغي للعبد أن يهملها ، بل يهتم بها ليقوم بشكرها ، فمن أهمل شكرَ نعمتِهِ.. كُتِبَتْ عليه خطيئة ، قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ ، وقيل : الشكرُ ثمنُ النعمة وإنْ جَلَّتْ .

واعلم : أنَّ الشكر يختلف باختلاف أحوال العباد ، فشكرُ ذوي اليسار مساعدةُ المستضعَفين ، وإقراضُ المحتاجين ، وشكرُ الفقراء : الإكثار من قول الحمد لله ، وشكر أصحاب العبادة : إدامة الخضوع ، وسجود الشكر لله تعالى على توفيقهم لتلك العبادة .

واعلم : أنَّ العبدَ إذا تواترت عليه النعماء.. فسبيله الإكثار من الشكر ، وإذا أَلَمَّت به البأساء.. فطريقه الصبر ، وكيف يليق بك أيُّها العبدُ الضعيفُ أن تغفُلَ عن الشكر لمن قد عَمَّتك رأفتُه ، وسَبَغت عليك نعمتُه في أمور كثيرة قد تَفْطَنُ لها وقد لا تَفْطَنُ ، فأدم شكر المحسن إليك ، الرؤوف بك ، الحكيم في صنعه لك ، المتقن لِمَا تَطَوَّلَ به عليك ، الذي خَلَقَ لك القِثّاء والخيار والدباء ونحوها في فصل الصيف ،

وخلق لك الشلجم[1] والفجل والجزر في فصل الشتاء ، تعديلاً لحرارة الصيف ببرودة هذه الخضرة ، ولبرودة الشتاء بحرارة هذه الأشياء .

وكذا خلق لك سبحانه وتعالى التفاح والإجاص ، وغير ذلك من الفواكه الحامضة في فصل الصيف ، لَمَّا كان هذا الفصل حاراً يابساً مثيراً لِلْمِرَّةِ الصفراء ، فهذه الأشياء تبرِّد وترطِّب وتُصلح ما يحدثه الحر في الأبدان من الحرارة واليبوسة حكمةً منه تعالى ولطفاً!! فافطن لذلك واشكر عليه .

وكذا جَعَل تعالى قُوتَكَ الحنطة ، وفضَّلها على الشعير ، فكما فَضَّلك فَضَّل قُوتَك ، ثم انظر كيف خلق سبحانه السنبلة ذات ساق طويل القصبة ، يكون حبها قوتاً لك ، وقَصبتها تبناً للحيوان المسخَّر لك ، وكذا خلق الحنطة حباً صغاراً بحيث يمكن طحنها ، فلو خلق حب الحنطة قدر الرُّطَبَة أو التفاحة . . لما أمكن طحنها ، وكان يصعب الانتفاع بها ، فتبارك الله الذي أتقن صنعَهُ رحمةً منه بخلقه .

واشكر لمن قد خلق لك الحيوان وسخَّره لك ؛ لتنتفع به ، فخلق الغنم للأكل لا تصلح لشيء غيره ، فانظر إلى رأفته بك كيف خلقها لإدامك وإصلاحاً لطعامك! ثم خلق الخيل للركوب ، وأَهَّلَها للحروب ، وأَقدَرها على الكرّ والفر ، وخلق فيها السرعة ، وأعطاها النخوة ؛ ليحصل منها المراد الذي خُلِقَتْ له ، ولا كذلك الإبل ؛ فإنه تعالى جعل أخلاقها وطية ، وحركاتها بطية . . قليلة النفار ؛ ليتمكن أربابها من شدّ الرحال عليها ، ووضع الأحمال الثقيلة على ظُهورها ، فلو أعطاها نخوة الخيل ، وعزة أنفسها . . لتعذر على أربابها مداراتها ، ولوجدوا عناء في الانتفاع بها .

---

(١) الشلجم : نبت معروف ، وأصله بالشين المعجمة ، وتقول له العرب : سلجم .

ثم إنه تعالى جعلها عالية بقدر ما أعطاها من القوّة ، ولو خلقها كعلوّ الخيل مع عظم أحمالها ، وجفاء أعدالها . . كانت أحمالها تصيب المياه في المخاضات ، وتحاكُّ الحزون عند صعود العقبات ، ومطالع الجبال . . فجعلها عالية لذلك .

ثم إنه تعالى لما أعلى خلق الإبل . . جعلها تَبرُكُ بأيسر إشارة ، ولو لم تبرُك . . لَتعذَّر الانتفاع بها ؛ لعلو قدودها ، ثم جعل تعالى رقابها مُعوَجَّة مقوسة ؛ لتُعين راكبها على الركوب ، ولولا ذلك . . لتعذر ركوبها ، إلى غير ذلك من النعم والحِكَمِ التي يطول شرحها . . فهذه كلهامرافق لك أيها الإنسانُ ، ونِعمٌ أَنعَمَ بها عليك مولاك ، تقتضيك الشكر إن تنبهتَ لها .

ثم إنه تعالى أعدم هذا الحيوان المنتفع به العقول حكمة منه وإتقاناً لصُنعِهِ ، كي لا يميز ماتكلفه من الأحمال الثقال ومتاعب الأسفار . . فكانت تنازع أربابها ، وتمتنع عليهم .

ثم إنه تعالى عوَّضها عن العقول بالأحساس الجيدة التي ربما أربت على أحساس البشر ؛ فجعل ما أعطاها من الإحساس كافياً في المصالح التي تُراد منها ؛ إحكاماً منه تعالى لصنعته ، وإتقاناً لأمر خليقته .

فانظر أيُّها العبدُ إلى هذه النعم والحكم التي تشهد لبارئها بعزة الوحدانية ، وعظم الربوبية ، وهذا حُكمُ كلِّ شيء في الوجود من مصنوعاته تعالى موضوعاً على الحِكَمِ ، مرتباً على الإتقان ، لا يخلو شيء من حِكمةٍ ، فتبارك الله أحسنُ الخالقين ، ولكن قد يخفى ؛ لأن هذه العقول لا تفي بإدراك الكل ، فقس ما يخفىٰ عنك بما اتضح لك تسترح .

واعلم : أن العارفين بما منحهم الله تعالى من الفهوم يرتبون الأعمال

ترتيباً بحسب الأحوال والأزمان ، كما أنبأتك في الفصل المتقدم ، ولكن هٰهنا زيادة معنىً نذكره فنقول :

كما أن لكل حال عبادةً ، فكذا لكل زمان معاملةٌ .

مثاله : أن الأزمان الصعبة التي تظهر فيها مسكنة الناس ، وتضيق فيها أرزاقهم ، فهناك ينبغي أن تكون معاملةُ العبدِ تَفَقُّدَ المساكين ، والنظرَ في أحوال المستضعفين ، كمن أراد أنْ يبني بناءً في نحو هذه الأزمان الصعبة . . يبتغي به القربة إلى الله تعالى ؛ فإن تلك الغرامة التي أعدّها لذلك البناء إذا صرفها إلى المحاويج المستورين . . كان ذلك أفضل له إن كان يبتغي التقرّب إلى الله تعالى ، ولم يكن قصده الرياء والسمعة .

وينبغي للإنسان أن يتلَمَّح الأزمانَ التي يستولي فيها الظلم على الناس ، ويتحكم فيها الأقوياء على الضعفاء ، ويكون الإنسان ذا قدرة ومكنة ، فمعاملة الإنسان في تلك الأزمان ينبغي أن تكون السعي للناس والاجتهاد معهم ، وتخليصهم من أيدي الظالمين ، ولا ينبغي للإنسان أن يقول : ماذا عليّ ؟وانقطاعي إلى عبادتي أولى بي ، فهذا غلط من الإنسان ، وتلبيس عليه ، ألا ترى ما جاء في الحديث عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم : « أن الله تعالى أمر بعبدٍ أن يُعذَّبَ في قبره ، فسأل العبدُ الملائكة ما ذنبي؟ قالوا : إنك صليت صلاة بغير طهور ، واجتزت على مظلوم فلم تنصره » .

فطائفة من العمال في وقتنا هذا يخلِّطون في الأعمال تخليطات ، فيصعِّبون فيما سبيله التسهيل ، ثم يتساهلون فيما ينبغي لهم أن يحتاطوا فيه ؛ فيغيِّرون ترتيب الأعمال ، لا جرم أنهم قد جُوزُوا بإضعاف البصائر ، ولا يجدون طعم المعاملات ، ولا تتنوّر قلوبهم مع الإكثار من

العبادة ، ولو أحسنوا في الطاعات . . لانشرحت صدورهم ، وانفتحت بصائرهم ، لكن خَلَّطوا فخُلِّط عليهم كما جاء في الكتب السالفة : مَن صَفَا . . صُفِيَ له ، ومَن خَلَّط . . خُلِّط عليه .

فافهم هذه الأمور ، واعمل بأسرارها تصب بعون الله ومشيئته .

* * *

فَصْلٌ

ينبغي لك أيُّها الأخُ أنْ تصونَ سرَّك ، وتحفظ قلبك عن الخطرات السيئة والأفكار الباطلة ، فقلبُ السالك بيتُ ماله ، وعمدةُ حاله ، فمتى خطر بقلبك شيء من الخواطر السيئة . . فبادر إلى إزالته ومحوه ، فالخواطر الواردة على القلب مختلفة جداً ، فمتى لم يُعاجَلِ الخاطِر بإزالته . . ثبت واستحكم ، وتولدت منه أمور ضارة ، كالغضب والشهوة .

وكذا ينبغي لك أيُّها الأخُ السالكُ أنْ تنزهَ قلبَك عن الخاطر الذي لا فائدة فيه ، كهذه السوانح التي تمر بالقلب ، ولا حاصل لها ، ولا انتفاع بها ، وكذا ينبغي لك أنْ تصونَ سرَّك عن تصوّر القبيح ، كما تصون نطقك عن اللفظ به ؛ فإن السرائر والظواهر من الله تعالى بمنزلة واحدة ، فليَحْذَرِ العبد أن يَطَّلِعَ الربُّ تعالى من قلبه على ما لا يليق ، كقبح ، أو فحش ، أو إضمار سوء ، أو عزم على أمر يكرهه منه مولاه ؛ فإنه يتعرض بذلك للعقوبة الخفية كما قال بعض العارفين : يا أصحاب الذنوب الخفية ؛ احذروا العقوبة الخفية ، لأن الأمور أكثر ما تقع معاوضة ومجازاة ، كما قد ورد في الكتب السالفة : ابن آدم ؛ كما تدينُ تُدانُ ، وكما تَزرع تَحصد .

وقد تقدّم لنا القول أن معوَّل العارفين على أعمال القلوب ، ومراعاة السرائر ، فيحفظ أحدُهم قلبَه ، كما يصون سواد عينيه ؛ لأنهم قد تيقنوه وقبلوه ، عِلماً أن أسرار القلوب هي أصول المعاملات ، وأساس الخيرات كما ذكرنا في الفصل المتقدم .

ويؤيد هذا الكلام قوله عليه الصلاة والسلام في حق الصدِّيق رضي الله عنه : « ما سبقكم أبو بكر بكثير صوم ولا صلاة ، ولكن بشيءٍ وقر في صدره » .

فحافظ أيُّها الأخُ السالكُ على مراعاة قلبك ، وطهِّرهُ من الخواطر التي تدنسه ، واحذر أن يطَّلع عليك الربُّ جلَّ جلاله وقلبك فاسد ، فيعرض عنك ، لأنَّ للربِّ تعالى إلى القلوب نظراتٍ فاعلم .

* * *

فصل

اعلم أيها الأخُ : أنَّ من شأن الإنسان أنْ يستوحش من الانفراد ، ويُقصِّر في السلوك إذا كان من أهل البطالة ، فينبغي لكم معاشر الإخوان أن لا تعجزوا عن المعاملات ، ولا تضعف عزائمكم عن الخيرات إذا قلَّ أهلُها ؛ لأنَّ الإنسان الفَطِنَ لقوةِ فهمِه لا يتخالجه ريبٌ في أموره ، فَيُقْدِم على الخيرات وإن كان وحيداً ، ولا يرى الناس قد أحجموا عن الخير فتخذله النفس الحرون ، وتُسَوِّلُ إليه التشبه بهم ، هذا كثيراً ما يقع لبعض السالكين ؛ لضعف بصائرهم ، وقلة علمهم ، فالإنسان العارف إذا عرف سرَّ الله تعالى في خليقته من أن أهل الخير قليل ، وأن باب التوفيق ضيق قليل أهله ، وقد أجرى الله تعالى عادته بذلك في بَرِيَّتِه هكذا . . لم تمنعه قلة الخيرات من حسن المعاملة ، فافهم هذا واحذره ، وكن هامًّا ذا عزمة ، وكن في طلب الآخرة الجليلة ؛ كما قال بعضهم في طلب الدنيا الدنيئة :

إذا هـمَّ ألقى بين عينيه عـزمَـهُ ... ونَكَّبَ عن وَقْعِ الحوادثِ جانبا

ولم يَسْتَشِرْ في أمرِه غيرَ نفسه ... ولم يرضَ إلاَّ قائمَ السيفِ صاحبا

* * *

فصل

أيُّها العبدُ المبتلىٰ بكثرة الأموال ، ووفور الأعراض ؛ انتبه لما أقول لك : إذا أردت أن تنجَح مساعيك ، وتحسُن عواقبك ، وتمشي أمورك . . فصانع ربك مصانعة في أموالك وأحوالك ، فعاملهُ باليسير ليُبْقي عليك الكثير ، لا سيما إذا ورد عليك أمر تخاف عاقبته ، ولا تدري كيف المخرج ، فأكثر المعاملة للرب تعالى حينئذ ، وعليك باسترضائه بالتقرب إلى قلوب خواصّه من خلقه ، وهم الصالحون والزهاد والعباد ، جبراً لقلوبهم ، وتفريحاً لصغارهم ، وهم هؤلاء الأخيارُ الأبرارُ الأتقياءُ الأخفياءُ ، الرثةُ أحوالهم ، الشَعِثة هيئاتهم ، ذوو النحول والخمول ، فهؤلاء هم خواصُّ المَلِك الذين بأيديهم راية الله تعالى ، رؤساء عباده وأنصاره وبطانته ، وصدور مواكبه ، فعليهم سلام الله ورحمته وبركاته .

وبقية الناس وإن حسُنت ظواهرهم ، وعظمت في الدنيا أقدارهم ، فهم أتباع وحاشية ، ومجالسهم في الأطراف ، لا يمكّنون في الوصول إلى المَلِك .

فبطريق هؤلاء العُبَّاد تَوَصَّل ، وبحرمتهم تَوَسَّل ، ومِن عندِهم تعرَّف إلى الرب تعالى ، واحذر أن يكون لك منهم خصم ، فتخاطر بنفسك ؛ لأن الله تعالى هو المنتصر لهم ، فهؤلاء الخواصُّ المُكْرَمون ، والأبرار المقربون هم المرادون بقول الشاعر :

هم القومُ لا تلهيهمُ عن مليكهمْ ... تعـاليـلُ دنيا بـالغُـرور تـدورُ

يضيء ظلامَ الليل حسنُ وجوهِهم ... فهُم في الليالي المظلماتِ بدورُ

رُوِيَ أن موسى عليه السلام قال : يا رب أين أجدك إذا طلبتك؟ فقال له الرب تعالى : تجدني عند المنكسرة قلوبهم من أجلي .

وكذا رُوِيَ أن الرب تعالى قال : بعيني ما يتحمله المتحملون من أجلي .

فاعلم أيُّها العبدُ المبتلىٰ بالجمع والمنع أنك إذا أهملتَ مراضي الله تعالى ، وتماديتَ في غيّك . . فما تخلو عن أحد أمرين :

إما أن تكونَ عبداً قريبَ الحالِ من الخير ، تتعلق بك عناية من ربك تبارك وتعالى ، فحينئذٍ يؤدّبك ربُك بشيء من البلوىٰ ، فربما انعكست عليك أمورك حتى لا يكاد يفوتك شيء من ذلك إن كانت حالك مع ربك كما قلنا .

وإن كنت عبداً بعيداً من ربك ، غريباً من الأنس به ؛ فإنَّ حالكَ غيرُ حال الأول ، فربما سَلِمَت لك أمورك ، وقد لا ينعكس عليك شيء من أحوالك ؛ لأن عادة الله تعالى مع أهل القرب منه غير عادته مع البعداء عنه ، فأصحابه إذا أهملوا جانبه . . أيقظهم وأدّبهم بِعَكْسِ شيءٍ من أحوالهم ، ولا كذلك أهلُ البعد عنه ؛ لأن العناية عنهم مُقصَرة ، والعقوبة لهم متأجلة ؛ لأنه قد ورد : أن الله تعالى إذا أحب عبداً . . أدّبه ، وإذا كرهه . . تركه بعماه .

فكم قد أُوقِعَ في محنة وبلية بسبب تقصيرٍ في حق فقير مضرور ، والتفات عن ذي مسكنة محروم .

رُوِيَ أنَّ الربَّ تعالى أوحى إلى يعقوب عليه السلام : يا يعقوب أتدري لِمَ فرقتُ بينك وبين ولدك يوسف؟ قال : لا يا رب أنت أعلم ، فقال له الربّ تعالى : إنكم شويتم شاةً ، ثم اجتمعت أنت وأولادك فوقف على بابكم رجل مريض مؤمن مسكين ، فشمَّ رائحةَ طعامكم ، فسألكم فلم

تعطوه ، فذهب وقد انقرح قلبه ، فقلت : وعزتي وجلالي يا يعقوب لأفرحنّ قلبك ، وأفرّق بينك وبين ابنك يوسف ، فقد آن لك أن تجتمع به ، فاصنع طعاماً ، وادع إليه الضعفاء من خلقي ، فإن الضعفاء من خلقي أحبُّ خلقي إليَّ .

فصنع يعقوب عليه السلام طعاماً كثيراً ، ودعا إليه الضعفاء والمساكين ، فقام يخدمهم بنفسه ، فجمع الله تعالى بينه وبين يوسف .

واعلم أيها السالكُ : أن هذا المعنى هو أقرب الأشياء التي يُستَرضَىٰ بها الرب تعالى ، وأنجعها في استدفاع البليات ، هذا شيء مجرّب لا شك فيه ، وقد أُهمل في وقتنا هذا ، لا جرم أن البركات قد قلت عن العباد ، بسبب إهمالهم لمحابِّ الرب تعالى ؛ لأن الله تعالى بكرمه يتحنُّ على هذا النوع من الخليقة ، لأنه قد ابتلاهم وابْتَلَى بهم ، فإذا أُهملوا أو طُمِعَ في جانبهم ، وأَضرت بهم الأحوال . . غضِبَ الربُّ تعالى ، فمحق بركات الأرض ، وأحلّ العقوبات بالعباد في القلوب والمعايش والأحوال .

رُوِيَ أن بني إسرائيل أصابتهم عقوبة وشدّة ، فشكوا إلى نبيٍّ لهم فقالوا : وَدِدْنا أنْ نعلمَ ما الذي يُرضي ربنا حتى نفعله ، فأوحى الله تعالى إلى ذلك النبيِّ : أنْ قل لعبادي : إذا أرادوا رضائي ، وطلبوا التقرّب إليّ . . فليُرضوا المساكين ؛ فإنهم إذا رَضوا . . رضيتُ ، وإذا سَخِطوا . . سخطتُ .

ولو فَطِنَ أهل الدنيا المساكين لأسرار الله تعالى في خلقه . . لعاملوه بالأموال ، ولبذلوا سنيّ الأحوال ، والتمسوا الأرباح والمكاسب من معاملته بتفقد أحوال المساكين المستضعفين ؛ فإن الله لا يخسَرُ عليه معاملُه ، ولا يَخِيبُ لديه مؤملهُ ، وهو يعطي بكرمه على اليسير العطاء الجزيل في العاجل والآجل ، وهو الذي يذكر عبده في الشدّة إذا كان

العبد ذاكراً له في الرخاء ، وهو الذي يغيث عبده في الضراء إذا كان العبد مستغيثاً به في السراء .

فقد رُوِيَ أن مَلِكاً من ملوك بني إسرائيل كان اسمه (أسآء) وكان عبداً صالحاً عادلاً في رعيته ، قصدَهُ بعض الملوك ، وحصَرَهُ في مدينته ، فخاف (أسآء) فدخل مصلاه ، واستغاث بربه تعالى ، وأكثر التضرع بين يدي الله تعالى ثم نام ، فأتاه آتٍ في منامه من ربه تعالى فقال له : يا (أسآء) إن الله تعالى يقول لك : لا تخف فإن الحبيب لا يُسْلِمُ حبيبَه ، فأنا قد ألقيت عليك محبتي ، وأيدتك بنصري ، فأنا أكفيك عدوَّك ، فإنه لا يهون من توكَّل عليّ ، ولا يضعف مَن تقوّى بي ، قد كنتَ تذكرني في الرخاء أفتراني أنساك في الشدّة؟ وقد كنتَ تدعوني آمناً أفتراني أُسْلِمُك خائفاً؟ فأنا الله القويّ ، فوعزتي! لو كادتك السمٰواتُ والأرضُ ومن فيهن . . جعلتُ لك من جميع ذلك مخرجاً وفرجاً عاجلاً .

فأمور الخليقة واقعة على هذا الترتيب ، وفساد الأحوال من سوء الأعمال ، وسوء الأعمال من عَمى القلب ، وعَمى القلب من ارتفاع عناية الرب تعالى عن العبد ، فالناس يُهَوِّنون في هذه الأمور ، وهي مهمة لا ينبغي أن تُهمل .

ورُوِيَ أن الربَّ تعالىٰ أوحىٰ إلى داوود عليه السلام : يا داوود ، ذنب عظيم تبكي منه حملة عرشي ، ومن أجله أمحق الأموال وأُفقر العَقِبَ : فقيرٌ شَمَّ رائحةَ قِدْرِ غنيٍّ فلم يطعمه .

فاسمع أيها الأخُ واعمل . . تجد الأمور كما قلت لك بعون الله ومشيئته .

* * *

فصل

التعب كل التعب حتى يتمكن الإنسان من القيام بين يدي الله تعالى مقام صريح العبودية ، ولا ينازع شيئاً من صفات الربوبية كالتجبر ، والتكبر ، والتعاظم ؛ فإن ذلك خاصٌّ بالربوبية .

وأما نحن ـ معاشر العباد ـ فحقيقةُ حالِنا الذُّلُّ والمسكنة ، وأبداننا ضعيفة معرَّضة للأسقام والآلام ، ونحن في صحتنا وسلامتنا محاويج ، ذَوُو فاقة لاتنقضي ، وعاقبتُنا بعد قليلِ الموت .

هذا حقيقة حالنا ، فمن أين لنا التكبر والتجبر والتعاظم؟!

وهل ذاك منا إلاَّ رعونة تعتري النفس ، وتستخف العقول الضعيفة؟!

فينبغي للإنسان أن ينفي هذه الأخلاق عن نفسه ؛ لأنه إن نازع شيئاً منها . . كان كالغاصب ما ليس له .

وكذا ينبغي للإنسان أن يجانب أخلاقَ الشياطين كالإضرار بالناس ، والخُبث ، وأذية الضعيف .

وكذا ينبغي له أن يجانبَ أخلاقَ البهائمِ من التهالك في نيل الشهوات الدنيئة كالمطاعم ونحوها ، بل ينبغي له أن يصون نفسه ، ويراعي مروءته ، ويجهد في تكميل إنسانيته على الحقيقة ؛ فيكون عبداً خيِّراً متواضعاً قانعاً صبوراً محتملاً ، هذه الصفات هي حقيقة الإنسان ، فافهم واجهَدْ . . تُصِبْ إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

فصل

نذكر فيه جماع أمر الاستقامة وإن كنا قد ذكرنا في بعض فصول هذا الكتاب شيئاً مما قد اشتمل عليه هذا الفصل ، ولكن قد احتجنا إلى إعادة شيء منه إما لزيادة إيضاح ، أو لكون بعض الكلام يستلزم إعادة شيء مذكور ، فهذا هو العذر في إعادة كلمات قد ذُكِرَتْ .

فالاستقامة هي مطلوب القوم ، وهي الغاية القصوى التي مَن نالها . . فقد حصل على الفوز العظيم .

فاعلم أيُّها الأخُ ـ وفقنا الله تعالى وإياك لطاعته ، وعرَّفَنا قدر أنفسنا ـ : أن الاستقامة أن يعتني العبدُ بإصلاح باطنه ، فيعدله عن الزيغ ، ويطهِّره من الأخلاق المذمومة ، وينقِّيه من دنس الأهواء ، ثم ليصنه عن الخطرات والوساوس الباطلة ، وهي هذه السوانح التي قد تترادف على القلوب ولا حاصل لها ، ثم ليعدِّل العبدُ أخلاقه تعديلاً ، فلا يترك شيئاً منها يخرج عن نَمَط الاعتدال ، وليضع كُلاً منها في موضعه ، وليُعْطِ كُلاً منها ما يستحقه بالنظر الصحيح والبصيرة الثاقبة ، فهذا هو التوطئة لكمال الاستقامة . وسيجيء تبيين إتمامها إن شاء الله تعالى ، وإنما وقفنا هٰهنا لنبين لك كيف ينبغي للإنسان أن يعدِّل أخلاقه ؛ فإن إصلاح الأخلاق أصل السلوك .

واعلم يا أخي ـ وفقنا الله وإياك لمرضاته ـ : أنه لا يصلح للحق تعالى إلاّ طاهرُ الباطن ، زكيُّ الأخلاق ، كريم السجايا ، فينبغي للإنسان إذا أراد الإقبال على الله تعالىٰ أنْ يُطهِّرَ قلبه من نجس الرداءة والحسد

والخبث وجميع الأخلاق السيئة كما يطهر ثيابه من سائر الأنجاس ، نجاسة الظاهر تزول بيسير من الماء ، وأما هذه الأخلاق الرديئة التي تنجِّس الباطن . . فيحتاج الإنسان أنْ يتعبَ في إصلاحها ، وربما اعتاص عليه شيء منها ، فيعجز عن إصلاحها .

فينبغي للسالك أن يتوجه بكليته باطناً وظاهراً إلى الله تعالى كما يتوجه بوجهه إلى القِبْلة ، فكما لا ينبغي أن يحيد عن القِبْلة يمنة ولا يسرة ، فكذا لا يعدل بوجهة قلبه عن ربه تعالى ، ولا يميل إلى سواه .

فهذه الأخلاق السرِّية تحتاج إلى تلمُّح وتعب لإصلاحها ؛ لأن الجيِّد من الأخلاق قليل ، فينبغي للعبد أن لا يزال يتلمَّح نفسه ، فما كان منها صالحاً . . حمد الله تعالى عليه ، وما كان منها مائلاً عن الاعتدال . . جَهِد في تقويمه وإصلاحه ، فإن هذه الأخلاق الكريمة هي التي تقرب إلى الله تعالى ، والسيِّىء منها هو المُبعِد عن الله تعالى ، فإن الإنسان إذا اتصف بشيء من هذه الأخلاق السيئة وإن كان كامناً في باطنه كمون النار في الزناد . . فهو نقص في طريقته ، وإن لم يعمل به الإنسان ، ولم يظهر منه ما ينقص في حاله عند ربه تعالى بحسب ما بطن وانطوى عليه من هذه الأخلاق الرديئة ، وإن لم تظهر منه ؛ لأن الله تعالى يستعرض البواطن . . كما أن علمه محيط بالظواهر ، فالظواهر والبواطن عنده بمنزلة واحدة .

فهذه البواطن لها أسرار عجيبة ، وهو أن الكامل منها يظهر أثره على سجية الإنسان ، فيستنير الوجه إذا كانت الطوية صالحة ، ويظهر أثر الخير من أسارير وجه الإنسان في كلامه ولفظه ولحظه ، وإذا خبثت الطوية . . سرى الخبث إلى الوجه ، فاكتسى الوجهُ قتمةً وظلمة ، وصار لحظ الإنسان يشهد عليه بمضمون طويته ، وتُلْمَحُ من مواقع لحظ الإنسان ومقاصده حينئذٍ الريبة والوحشة ، فلا شك أن الوجوه تستمد من القلوب ، فما في القلوب يُسْتَشَفُ من الوجوه ، فكأن ما في القلوب

يُشاهَدُ من بشرة وجه الإنسان من وراء ستر رقيق .

فالإنسان إذا انقطع في مسجد أو زاوية وفي نفسه صفة الكِبْر والحسَد مثلاً ، أو كان باطنه رديئاً قد عُدِمَ الرِّقة وليس من شِيمته الاتصاف بالرحمة . . فهذا العبد وإن كان صاحب عبادة ، فهو عبد نجس الباطن ، فينبغي له أن يدأب في تطهير باطنه من الأخلاق المذمومة المبعدة عن الرب تعالى ، ثم بعد ذلك يُقبل على العبادة .

هذا هو الطريق ، ومن هنا رجعنا إلى الكلام في إتمام تبيين الاستقامة ، ومعنى قولنا أن يضع كل شيء من أخلاقه في موضعه ؛ ليقف به عند حده .

مثال ذلك : أن الإنسان إذا كان لينا رحيماً . . فلا يُفْرِط في ذلك ، فيؤدي به الأمر إلى حد السخافة والضعف ، فيصير شبه النسوان ، بل يكون مع لينه ورحمته ثبتاً صبوراً قائماً بالحق في ما لَهُ وعليه ، وإلاَّ . . ضيَّع الحدود ، وأبطل الحقوق .

وكذا إذا كان الإنسان قوياً في أموره ، ذا نخوة وشهامة . . فهذه صفة حسنة ، ولكن لا يُفْرِطُ الإنسان فيها ، فيخرج إلى حد القسوة والتجبر ، وينقلب به الحال من حال المَحْمَدة إلى حال المذمَّة .

وكذا إذا كان الإنسان سخياً جواداً . . فليحذر أن يميل به الحال إلى الإسراف والتبذير ، فيضع الأشياء في غير موضعها ، فيخرج عن حد الاستقامة .

وكذا سائر الأخلاق ، الاعتدال منها هو المحمود ، والإفراط والتفريط حالتا نقيصة ، وما أحسن ما وُصِفَ به عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أنه القوي من غير عنف ، اللّيِّن من غير ضعف ، ما كان أكمله من رجل! كانت أخلاقه في الغاية رضي الله عنه وأرضاه .

فإذا وُفِّق العبد لإصلاح باطنه كما ذكرنا . . سهلت الطريق بين يديه ، واستنار باطنه ، وصار قلبه إذْ ذاك قابلاً للخيرات قبول المشكاة للنور التي يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، فإذا ترقى العبد طبقة أخرى ، وأحسن التبتل للرب سبحانه وتعالى بهذا الباطن الذي قد تعب في تنقيته وتطهيره . . فهو إذن نورٌ على نور ، يهدي الله لنوره من يشاء .

فَلْيُقْبِلْ هذا العبد إذن على مولاه تعالى ، ولْيُدِمِ المراقبةَ له ، ثم ليصرف همَّهُ جملةً إلىٰ ربه تعالى ، ويجتهد العبد أن لاَ يغفل عن ربه طرفة عين ، وليكن شأنه إدامة الذِّكْر تقديساً وتحميداً وشكراً وثناءً على الرب تعالى ، فقد آن له وقت العبادة ؛ حيث قد صح له تطهير باطنه ، وتعديل أخلاقه ، وذلك عزيز قلّ من يقدر عليه .

ثم ليدرب هذا العبد نفسه على التفكر وإعمال القلب تنزهاً في عجائب الملكوت ، وليُدِمِ التفكر في آلاء الله تعالى ، وليعتبر بما يشاهد من باطنه من حسن مصنوعات الرب تعالى ، ولطائف حِكَمه ، وليكن معوَّله على باطنه ، فليجعل جُلَّ علمه بقلبه اعتباراً وتفكراً .

ولا ينبغي للعبد أن يجعل أفكاره مهملة ، ويضيعها في غير فائدة ؛ فتعود أفكاره حينئذٍ عليه لا له ، كما نُقل عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال : الفكر في غير حكمة هوَس .

هذا هو حال أصحاب الحق تعالى ، فاعلم .

ثم ليُكثِرِ العبد الذي قد استقام باطنه من الأعمال الظاهرة حينئذ صلاةً وصياماً وقراءةً وذكْراً ، ولتكن أعماله كلها منوطة بقلبه ؛ لأن الأعمال الظاهرة كالفروع ، ما لم تكن مرتبطة بأصولها . . ذوَت ؛ لانقطاع مَدَدِها من الأصول ، لأن الفروع لا تثبت إلا باتصالها بالأصول ، كذا أعمال

العبادة ، ما لم تكن مُمَدَّة من القلوب . . تراها كالغصن اليابس لا نضارة فيه ، ولا رونق عليه .

فانتبه لهذه الأمور الغامضة ، وحسِّن أعمالك بما قد بيَّنا لك من هذه العلوم ، والله تعالى الموفق ، ومنه المعونة .

وكل تخبيط يقع للناس في سلوكهم من جهة إهمالهم لهذا الترتيب ، فكيف يُقْبَلُ العبد إذا أقبلَ على ربه تعالى بباطن دَنِسٍ مملوءٍ من الأخلاق الرديئة؟! أفيطمع هذا العبد أن يترقى به الحال؟ هذا مستبعد جداً ، بل هذا العبد إلى الانحطاط أقرب وإن دأب في العمل ، وإذا رتب أعماله كما ذكرنا . . رأى الزيادة ، وانفتحت الطريق بين يديه .

فهذه الاستقامة قد بيناها لك فاعرفها ، وهي قد تكون لأقوام مخلوقة في جبلاَّتهم لشدّة عناية المولى تعالى بهم ، وتكون على قوم صعبة ، فيحتاجون يجاهدون ، ويتعبون ليصلوا إليها وليقاربوها .

فهؤلاء الذين تكون الاستقامة لهم جبلَّة هم الأخيار أصحاب الأخلاق الحسنة والخيرية الظاهرة ، فوجه أحدهم يشهد بما يُجِنُّهُ ضميره من الخير وحُسن الأخلاق ، فهؤلاء هم الذين قد اعتنىٰ بهم مولاهم حين خلقهم عناية خاصة ، فجعل جبلاَّتهم صالحةً ، فهم بخلقهم يميلون إلى الخيرات ، وينفرون من الشرور طبعاً طَبَعَهُم عليه مولاهم ، اعتناء بهم وسعادة لهم .

﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

فهؤلاء أهل سلامة الصدور ، وهم المعنيون بقوله صلى الله عليه وسلم : « لقد دخل الجنة أقوام بغير أعمال ، قيل : من هم؟ وبِمَ دخلوها؟ قال : بسخاوة الأنفس ، وسلامة الصدور » ، وكذا قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ .

وهؤلاء السعداءُ هم الذين تَوَفَّر قسمهم من النور الذي رشَّ الله تعالى على خلقه حين خلقهم ، قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « إن الله خَلَق الخلق في ظلمة ، ثم أخذ نوراً من نوره فرشَّ عليهم ، فمن أصابه من ذلك النور شيء . . اهتدىٰ ، ومن أخطأه . . ضلّ وغوىٰ » .

وضدّ هؤلاء من الخليقة قوم من الأشقياء ، قد مقتهم مولاهم حين خلقهم ، فوضع خَلْقهم على الميل إلى الشرور ، وقضى عليهم بالدخول فيما يُسخِطه من إضاعة أعمارهم في المعاصي وظلم الخليقة ، وقهرِ المستضعفين ، ونزع الرحمة من قلوبهم ، هؤلاء الأشقياء بالحقيقة ، ولو درىٰ هؤلاء المساكين ما المراد منهم ، وكيف حالهم في معادهم . . لناحوا على أنفسهم .

* * *

فصل

قد تقدم لنا من إيراد هذه العلوم ما ينبغي لك أيُّها الأخُ أن تقتفي معانيه ، وتتأدب بآدابه ، وأرجو أن تكون فيما أوردناه كفاية لمن وُفِّق وأُلهِمَ رشدَه ، فالمَحْ بثاقب بصيرتك ما شرحناه من أسرار الحق تعالى في الخلق ، وفكِّر في غوامضه ، واسْمُ بنفسك إلى معاملة الرب تعالى بمحاسن ما أوردناه ؛ فإنه محض طريق الصالحين ، ومسالك العارفين .

وتنبه لما حذّرناك من الأمور المبطلة للأعمال ، فحسِّن أعمالك تحسيناً ، وزينها تزييناً ـ كما بينا لك في هذا الكتاب ـ تَرِدْ عليك الفتوح من كل جانب ، وتشاهِدْ أسرارَ الملكوت مشاهدة ، ويفرَّ منك الشيطان لما يُشرِقُ عليكَ من أنوار الحق تعالى ؛ لأن صحة المعاملة توجب لك ذلك .

ثم إذا تمت أعمالك ، وصحت أحوالك ، واستقمت على سَنن الهداية . . فعند ذلك سل ربك التثبيت ، ودوام الهداية ، ولا تأمن سوء العواقب ، وزلل الأقدام ، فكم رأينا إنساناً على نهج الاستقامة ثم اختلسه الشيطان ، فرجع القهقرى بعد حسن الحال ، فلازِمِ الخوفَ ، وقدِّمِ الحذر ، وسَلْ ربَّك حُسنَ الخاتمة ، واستعذ به من مضلات الفتن ، ولا تغترنَّ بشيء من أعمالك وأحوالك إن لم يُمِدَّك التوفيق ، وتَدُمْ لك المعونة منه تعالى ، فإن العبد معرّض للمحن والبليات ، نسأل الله تعالى دوام الهداية ، ونعوذ به من سوء الخاتمة .

* * *

فصل

والآن نشير إلى شيء من أعمال وأذكار ينبغي لك أيُّها الأخُ السالكُ أنْ تهتمَّ بها ، وتحافظ عليها ؛ فإن الأعمال منوطة بالهمم ، وما بعد العلم إلا العمل .

فعليك أيُّها الأخُ بالإكثار من الأعمال الصالحة ، وراعها بالعلم الذي بيَّنتُ لك في هذا الكتاب ، فإن كنت غنياً ذا مالٍ وجاه في الدنيا . . فطريقك التقرّب إلى الله تعالى باصطناع المعروف إطعاماً لذوي الأكباد الجائعة ، وتفقُّداً لأحوال الضعفاء ، والتوصل بفضلك وجاهك للمظلومين المقهورين ، ليكُن ذلك أهمَّ أعمالِك عندك ، ثم بعد ذلك التفت إلى نوافل العبادات .

ينبغي لك أن ترتب أعمالك ، فاحذر أن تترك هذا النوع من العبادات ، فتقدِّم عليه غيرَهُ من سائر أنواع العبادات ؛ فإنك إذْ ذاك تخلِّطُ في أعمالك تخليطاً ، لأن هذا العمل له ترتيب ونظام ينبغي أن تراعي الترتيب ولا تهمله ؛ لأن الأعمال إذا أُجِيد ترتيبُها وروعي تحسينُها . . صارت كالبناء إحكاماً وتناسباً .

قال بشر بن الحارث رحمة الله عليه في المعنى : مثل الغنيّ المتعبد كالروضة على المزبلة ، ومثل الفقير المتعبد كعقد الجوهر في جيد الحسناء .

قال العارفون : شأن العقلاء وضع الأشياء في مواضعها ، والجهّال بضد ذلك ، فالحق جلّ جلاله لِكَرَمِه ورحمته له رأفة تامة ، ورحمة عميمة بضعفاء خلقه وأغنيائهم .

رُوِيَ أنَّ الربَّ تعالى جلّ جلاله أنزل في بعض الكتب : ارحم في عزك ذُلَّ المقهور ، واذكرْ عند شبعك كبَد الجائع ، واذكر في أمنك حَيْرَةَ اللهفان .

فانظر أيُّها الأخُ إلى وصايا ربنا الرؤوف بنا ، ما ألطفها وأحسن موقعها ، فتأملها وعامله بها ، فمن مكنون كلامه العزيز تبين لك شفقته ورحمته لضعفاء خلقه ، وإن كنت أيُّها الأخُ فقيراً لا مكنة لك في الدنيا . . فطريقك التبتل إليه تعالى بأنواع العبادة صلاةً وقراءةً وتسبيحاً وصياماً ، إلى غير ذلك من الأعمال التي تتقرب بها إليه تعالى كما قد عرَّفتُك في فصول هذا الكتاب من حسن الآداب في المعاملة ، وحضور القلب والخشوع والثبات ، لا تهمل شيئاً من ذلك ، فإنك إذا أحسنت العمل . . أذاقك مولاك لذة المعاملة ، وفتح بين يديك أبواب الخيرات ، وإن خلَّطتَ . . خُلِّطَ عليك كما تقدّم .

فأوّل ما تستقبل به نهارك بعد ما تتوضأ وتؤدي فريضة الصبح : أن تقرأ من الكتاب العزيز ما تيسر ، وأقل ما ينبغي من ذلك سورة (يسٓ) و(الواقعة) و(تبارك المُلْك) ، واستكثر من تلاوة القرآن العزيز مهما استطعت في هذا الوقت وفي غيره من ليل أو نهار ؛ فإنه النور المبين ، وحبل الله المتين ، من أجلّ معاملات العارفين الإكثار من تلاوته ، وهو ملجأ المحبين ، فأَكْثِر تلمُّحَه واعتبار معانيه ، وتأدب بآدابه ، ولا تُهمِل أيُّها الأخُ التقربَ به إلى الله تعالى ؛ فهو من أفضل الأعمال ، لا تَبْلىٰ جِدَّتُه ، ولا تنقضي عجائبه .

قيل إن الله تعالى يتجلى لعباده في القرآن ، ولكن لا يبصرون .

ثم ليكثر العبد من هذه الأذكار المعروفة تسبيحاً وتحميداً وتهليلاً وتكبيراً ، وهي الكلمات العزيزات الباقيات الصالحات ، فإنها ذكر عظيم

مأمور بها ، وقد وردت فيها الأخبار الصحاح ، وذُكِرَ في التفسير أنها الباقيات الصالحات في قوله تعالى : ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ .

وورد في الحديث عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم : « إن الله اصطفى من الكلام : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، الخيرُ كلُّه فيهن » .

وورد في حديث آخر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لأن أقول سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر . . أحبُّ إليَّ مما طلعت عليه الشمس » ، أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

ورُوِيَ عن سعيد بن المسيب قال : كنا عند سعد فسكت سكتة ثم قال : قد قلت في سكتتي هذه خيراً مما يَسقي النيلُ والفراتُ ، قيل له ، وما قلتَ؟ قال قلتُ : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلاّ الله ، والله أكبر .

ثم ليقل بعدها : لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، يحيي ويميت ، وهو على كل شيء قدير ؛ فإن هذا ذكر عزيز وردت فيه أحاديث صحاح .

قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « من قال لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير في اليوم مئة مرة . . كانت له عدْلَ عَشْرِ رقاب ، وكُتبت له مئة حسنة ، ومُحيت عنه مئة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي . . . » الحديث .

فليُكثِرِ العبد من هذا الذكر العزيز ، ثم ليقل بعده : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم ؛ فقد وردت في فضيلة هاتين الكلمتين

أحاديث صحاح ، قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » أخرجه البخاري ومسلم رحمهما الله عن أبي هريرة .

فليُكثِر العبد من هذا الذكر العزيز أيضاً مهما أمكنه ، ثم ليقل أيضاً : ما شاء الله لا قوّة إلاّ بالله ؛ فإن هاتين الكلمتين عزيزتان ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ ، وإذا تأملت سرَّها . . وجدتها مشتملة على محض التوحيد ؛ لأن العبد حينئذٍ يبرأ من الحول والقوة ، ويَكِلُ أمره إلى ربه تعالى ، وهذا محض التوحيد ، وقد وردت فيها أخبار تدل على عِظَمِ شأنها .

رُوِيَ أن موسى على نبينا وعليه السلام سأل من الله حاجة ، فأَرْكِدَت عليه ، ولم ير نجاحاً ، فقال : ما شاء الله لا قوّة إلاّ بالله ، فإذا حاجته بين يديه ، فقال : يا رب أطلب حاجتي منذ كذا وكذا ولم أرها إلاّ الآن؟ قال : يا موسى ؛ أما علمت أن أنجح ما طُلِبَتْ به الحوائج قولك : (ما شاء الله لا قوّة إلاّ بالله) . وقد قِيل : إن الكلمة التي تزجر بها الملائكة الشياطين عند استراق السمع هي : ما شاء الله .

ورُوِيَ أن الربَّ تعالى أوحى إلى عيسى على نبينا وعليه السلام : يا عيسى ؛ تزعم أنك لا تسألني شيئاً وأنت إذا قلت : ما شاء الله ، فقد سألتني كل شيء .

ثم ليقل العبد : (حسبُنا الله ونعم الوكيل) يقولها (سبع مرات) بحضور قلب ، وحسن نية ؛ فهي كلمة عظيمة ، ذُكِرَ أنها الكلمة التي قالها الخليل على نبينا وعليه السلام حين أُلقِيَ في كفة المنجنيق ، فجعل الله تلك النار عليه برداً وسلاماً .

ثم عليك أيُّها الأخ بصلاة الضُّحى في كل يوم ، حافظ عليها ، ولا تهملها ، وهي ثمانِ ركعات في كل يوم ، وأقلها ركعتان ، وأفضل أوقاتها إذا تعالى النهار ؛ لأنه وقت غفلة الناس .

وللمتسلكين عادة حسنة ، وهو أنهم يدعون عقب صلاة الضحى في كل يوم بدعاء الاستخارة ، يستخيرون الله تعالى في كل أمر يرومون فعله ، ويسألون الله تعالى خير ذلك اليوم ، ويستعيذون به من شره .

ودعاء الاستخارة أصل عظيم ، وهو في الحديث الصحيح عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم ينبغي للعبد أن لا يغفلَ عنه ، بل يجعله نُصْبَ عينيه في مهماته وشؤونه ، يقدِّم العبد أمامه ركعتين ، ثم يأتي بالدعاء بعد ذلك ، وهو أن يقول : « اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ؛ فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت عَلاّم الغيوب .

اللهم إن كنتَ تعلم أن هذا الأمر ـ ويسميه ـ خيراً لي في ديني ودنياي ، ومعادي ومعاشي ، وعاقبة أمري ، وعاجله وآجله . . فاقدره لي ويسره لي ، ثم بارك لي فيه ، وإن كنتَ تعلم أن في ذلك الأمر شرّاً لي في ديني ودنياي ، ومعادي ومعاشي ، وعاقبة أمري وعاجله وآجله فاصرفني عنه ، واصرفه عني ، واقدُر لي الخير حيث كان برحمتك يا أرحم الراحمين .

اللهم رضني بقضائك ، وعافني من بلائك ، وأوزعني شكر نعمائك ، واجعل اللهم رغبتي فيما لديك ، وراحتي عند لقائك » .

فإذا أراد العبد أن يستخير بدعاء الاستخارة في كل يوم في أمور قد تعرض له ولا يعلم . . فليقل عند قوله : اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر يقول بدل ذلك : اللهم كل أمر عزمت عليه ونويت فعله من سائر الأشياء والأمور في هذا اليوم ، اللهم إن كنت تعلم أن في ذلك خيراً لي في ديني

ودنياي ، ومعادي ومعاشي ، وعاقبة أمري . . . ثم يُتِم الدعاء كما تقدّم .

وعليك أيُّها الأخ بالصلاة بين العشاءين ؛ فإنه وقت عزيز ينبغي أن تحافظ عليه ، وتلزم المسجد فيه ، والصلاة والقراءة والذكر .

وعليك أيُّها الأخُ بصلاة الليل ؛ فإنها مباركة مجربة النفع ، وهي دأب الصالحين لا ينبغي للعبد أن يتكاسل عنها ، فيذهب عمرُه ضَياعاً ، فليصلِّ العبد ولو ركعتين ؛ كيلا تستولي عليه الغفلة ، فإن اليسير من الخير له موقع لا ينبغي أن يُهمَل ، لا سيما إذا ديم عليه .

وأفضل صلاة الليل بعد النصف الأخير ؛ لاستيلاء النوم على الناس في هذا الوقت ، لا سيما وقت السحر ، فقد وردت فيه الأخبار ، فليقم العبد في هذا الوقت العزيز بكليته إلى الله تعالى ، وليغتنِم الدعاء فإنه وقت الإجابة .

فإن لم يوفق لقيام شيء من الليل . . فأقلّ الأحوال أن ينتبه من طلوع الفجر الأوّل ، وإلاّ . . فالثاني ، ثم ليشتغل في هذا الوقت العزيز اليسير بالتسبيح ، والتحميد ، والتهليل ، والتكبير ، والقراءة ، يديم ذلك إلى طلوع الشمس بعد أن يصلي الصبح في أوّل الوقت ؛ فإن أهلَ العلم بالله تعالى لا يُهمِلون الحال في هذا الوقت ، فإن أهمل العبد هذا الوقت اليسير أيضاً . . فليعلم أنه عبد مُبعَدٌ عن ربه تعالى ، فلينتبه لنفسه ، وإلاّ . . استولت عليه الغفلة ، فيُكتَبَ من الغافلين .

وكذا ينبغي لك أيُّها الأخُ أن تختم نهارك بذكر الله تعالى تسبيحاً وتقديساً واستغفاراً . . تستغفر الله تعالى ، وتتوب إليه عند انقضاء النهار من كل ما فَرَطَ منك في ذلك اليوم ، لا ينبغي للعبد أن يُهمِلَ ذلك ، فليحافظ العبد على هذه الأذكار ، فإن لها تأثيراً في إصلاح حاله ديناً ودنيا .

وينبغي لك أيُّها الأخُ الصالحُ أنْ تقولَ في صباح كل يوم : بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهو السميع العليم (ثلاث مرات) ؛ فقد ورد في الحديث عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم : أنها تَصرِف الأمراض عن قائلها ، فليكن هذا الذكرُ أيضاً من الإنسان على ذِكْرٍ ، فإنه أصل عظيم لا ينبغي أن يفوته صبيحة كل يوم .

وينبغي لك إذا أردتَ أن تأكل طعاماً أن تقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، بسم الله خير الأسماء ، بسم الله رب الأرض والسماء ، بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء ؛ فقد رُوِيَ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قال ذلك على طعام لم يضره ذلك الطعام » . وهذه الكلمات هي التي قالها خالد بن الوليد رضي الله عنه ثم فتح فمه ، وقمح السم فلم يضرَّهُ بإذن الله تعالى ، وقصته مشهورة .

وينبغي لك أيُّها الأخُ أن تدعوَ بهذا الدعاء في صبيحة كل يوم ، وهو الدعاء الذي دعا به قوم يونس . . وقد كاد العذاب أن ينزل عليهم ، فصرفه الله عنهم ، والدعاء هو : « اللهم يا حيُّ يا قيوم ؛ يا حيُّ حين لا حيَّ ، يا حيُّ محيي الموتى ، يا حيُّ لا إله إلا أنت » .

ثم تدعو بالدعاء الذي دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب : « اللهم إني أعوذ بك ، وبنور قدسك ، وعظمة طهارتك ، وبركة جلالك من كل آفة وعاهة ، وطارق الليل والنهار ، وطارق الجن والإنس إلاّ طارقاً يطرق منك بخير يا رحمٰن .

اللهم أنت غياثي . . فبك أستغيث ، وأنت عياذي فبك أعوذ ، وأنت ملاذي فبك ألوذ .

يا من ذلت له رقاب الجبابرة ، وخضعت له أعناق الفراعنة ؛ أعوذ

بجلال وجهك ، وكرم جلالك من خزيك ، وكشف سترك ، ونسيان ذكرك ، والإضراب عن شكرك ، أنا في حرزك وكنفك وكلاءتك في ليلي ونهاري ، ونومي وقراري ، وظعني وأسفاري ، وحياتي ومماتي ، ذِكْرُكَ شِعاري ، وثناؤك دِثاري ، لا إله إلا أنت سبحانك ، وبحمدك ، تشريفاً لعظمتك ، وتكريماً لسُبُحات وجهك ، أجرني من خزيك ومن شر عبادك ، واضرب عليّ سرادقات حفظك ، وأدخلني في حفظ عنايتك ، وجُدْ عليّ منك بخير يا أرحم الراحمين » .

وينبغي لك أيُّها الأخُ أن تستدفع شر مَن تخاف شرَّه بالكلمات التي وصَّى الله تعالى بها موسى على نبينا وعليه السلام أن يقولهنّ عند دخوله على فرعون ، وهي : لا إله إلاَّ الله الحليم الكريم ، سبحان الله ربِّ السمٰوات السبع ، وربِّ العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين ، اللهم إني أدرأ بك في نحره ، وأعوذ بك من شرِّه ، وأستعينك عليه ، فاكفنيه بما شئت .

فقالها موسى عليه السلام عند دخوله على فرعون . . فنقل الله الرعبَ من قلب موسى إلى قلب فرعون ، وبدّله أمناً .

فإن أراد الإنسان أن يستعيذ من مطلق الشرِّ من غير أن يكون مخصوصاً من أحد بعينه . . فليقل في صبيحة كل يوم في جملة الأذكار التي تقدّم ذكرها : لا إله إلاّ الله الحكيم الكريم ، سبحان الله رب السمٰوات السبع ، ورب العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين ، اللهم إني أعوذ بك من شرِّ كلِّ ذي شر ، وأدرأ بك في نحره ، وأستعينك عليه ، فاكفني شرَّ كلِّ ذي شر بما شئتَ ، وكيف شئتَ ، وأنّىٰ شئتَ يا أرحم الراحمين .

ففي الخبر الصحيح عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم : أن من قال هذه الكلمات دفَعَ قضاءَ السوءِ .

وينبغي لك أيُّها الأخُ الصالح أن تختم أذكارك التي قد تقدّم ذكرها بالأسماء العزيزة التسعة والتسعين اسماً ، وهي هذه :

هو : الله الذي لا إله إلا هو ، الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارىء ، المصوّر ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العليّ ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القويّ ، المتين ، الوليّ ، الحميد ، المحصي ، المبدىء ، المعيد ، المحيي ، المميت ، الحيّ ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدّم ، المؤخر ، الأوّل ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالي ، المتعالي ، البرّ ، التوّاب ، المنتقم ، العفوّ ، الرؤوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغني ، المغني ، المانع ، الضارّ ، النافع ، النور ، الهادي ، البديع ، الباقي ، الوارث ، الرشيد ، الصبور .

الذي ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير ، نعم المولى ونعم النصير ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

فصل

هذه أخبار وآثار منتقاة جمعناها لسالكي طريق الحق ، فليتدبرْها الواقف عليها ، وليتأدب بآدابها ؛ فإنها كلمات عزيزة نفيسة .

فمِنْ ذلك ما رَوَىٰ أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا أجر لمن لا خشية له ، ولا عمل لمن لا نية له » .

وعن أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بَشِّرْ هذه الأمة بالسَّناء والنصر والتمكين ، فمَن عَمِل منهم عملَ الآخرة للدنيا . . لم يكن له في الآخرة مِن نصيب » .

وعن حبيب بن صهيب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما تقرَّب العبد إلى الله تعالى بشيء أفضل من سجودٍ خفيٍّ » .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : إنكم لتغفلون عن أفضل العبادة : التواضع .

وعن الحجاج بن شداد أنه سمع عبد الله بن أبي جعفر ـ وكان أحد الحكماء ـ يقول في بعض قوله : إذا كان المرء يحدِّث في مجلس فأعجبه الحديث . . فليسكت ، وإن كان ساكتاً فأعجبه السكوت . . فليتحدث .

أيها الأخُ السالكُ ؛ هذا يعلِّمُك كيف تَنْفي العُجْبَ عنك ، فإنه خلُق ذميم ، فيصير الإنسان مقيتاً ، وقد دأب في العلم والعمل فاحذره في جميع أمورك الدينية والدنيوية .

وعن أبي ذرّ رضي الله عنه قال : « أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم : إذا صنعتَ مرقةً فأكثر ماءها ، ثم انظر أهل بيت من جيرانك فأصبهم منه بمعروف » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة ليُضْحِكَ بها جلساءَه يهوي بها أبعد من الثريا » .

وعن مالك بن دينار رحمه الله أنه قال : مرّ عيسى ابن مريم على نبينا وعليه السلام ومعه الحواريون على جيفة كلب ، فقال الحواريون : ما أنتن هذا الريح! قال عيسى : ما أشدَّ بياض أسنانه! يعظهم وينهاهم عن الغيبة .

وعن أبي ضمرة قال : خطب أبو بكر رضي الله عنه الناسَ ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إنه ستفتح لكم الشام ، فتأتون أرضاً رفيعة ، تشبعون فيها من الخبز والزيت ، وسَتُبنَىٰ لكم فيها مساجد ، فإياكم أن يعلم الله أنكم إنما تأتونها تباهِياً ، إنما بُنِيَتْ للذكرِ .

قال معروف الكرخي رحمة الله عليه : احفظ لسانك من المدح كما تحفظه من الذم .

وعن الحسن قال : كانوا يقولون : لسان الحكيم وراء قلبه ، إذا أراد أن يقول . . رجع إلى قلبه ، فإن كان له . . قال ، وإن لم يكن له . . أمسك .

وكانوا يقولون : إن قلب الجاهل في طرف لسانه لا يرجع إلى قلبه ، ما أتى على لسانه تكلم به .

وكانوا يقولون : مفتاح الملامة ترك المشورة ، ومفتاح الوقوع في

الهلاك ترك العمل بالعلم ، ومفتاح الراحة ترك الفُضول ، ومفتاح السلامة كظم الغيظ ، ومفتاح البلاء ترك الدعاء .

رُوِيَ أن موسى بنَ عمران على نبينا وعليه السلام قال في خطابه للرب تعالى : رب اجعل بيني وبينك علامة أعرفها من رضاك عني ، فقال له الرب تبارك وتعالى : إذا ألهمتُك ذكري .. فذاك علامة على رضائي ، وإذا أَنْسَيْتُكَ ذكري ، وخَلَّيتُ بينك وبين عدوك .. فذاك حين نسيتك .

قال الفضيل بن عياض رحمة الله عليه : المؤمن قليل الكلام ، كثير العمل ، والمنافق كثير الكلام ، قليل العمل .

قال عمران بن سليمان : بلغنا أن في آخر ما تكلم به أيوب على نبينا وعليه السلام حين شُفِيَ : إلهي قد علمتَ أن قلبي لم يتبع بصري ، وأن لساني لم يخالف قلبي ، وأنّ ما ملكت يميني لم يكن يهابُني أن يكلمني ، وإني لم أبت ليلة قط شبعان وجاري طاوٍ إلى جنبي ، ولم يكن لي قميصان ولا رداءان ، فقيل له : مَن فعل هذا بك يا أيوب؟ فأخذ قبضة من تراب فوضعها على رأسه ، ثم خر ساجداً لله تعالى ، ثم قال : أنت يا إلهي .

رُوِيَ أن الرب سبحانه وتعالى أوحى إلى عيسى على نبينا وعليه السلام : « أنْ قل لبني إسرائيل : لا تدخلوا بيتاً من بيوتي إلا بقلوب طاهرة ، وأبصار خاشعة ، وأيد نقية ، وأَخْبِرْهم أني لا أقبل منهم دعوة ولأحد من خلقي قِبَلَهُم مَظلمة ظلموها » .

وقال بعض السلف : إن إبليس لَيَخَافُ من القلب الذي فيه ذِكْرُ الله تعالى ، كما يخاف العصفور من الحجر .

قال إبراهيم الخوّاص : مَن شرِب بكأس الرياسة .. خرج من إخلاص العبودية .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يستكمل العبدُ الإيمانَ حتى يحسِّن خُلُقَهُ ، ولا يَشفي غيظَه ، وأن يَوَدَّ للناسِ ما يَوَدُّ لنفسه ، لقد دخل الجنةَ رجال بغير أعمال ، قيل : فَبِمَ دخلوها يا رسول الله؟ قال : بالنصيحة لأهل الإسلام وسلامة الصدور » .

عن معاوية بن صالح قال : قال داوود عليه السلام : يا رب كيف لي حتى يُحِبَّني البرُّ والفاجر؟ قال : يا داوود ، إن كنتَ تُحِبُّ ذلك .. فخالق الناس بأخلاقهم ، وزايلهم بعملك ، ولا تحلم عند السفهاء ، ولا تسْفَهْ عند الحكماء ، فإذا أنتَ فعلتَ ذلك .. أَحَبَّك البرُّ والفاجر .

قال عريف اليماني : مِن إعراض الله عن العبد أن يشغلَهُ بما لا ينفعه .

قال مالك بن دينار : إن الشيطان ليلعب بالقُرّاءِ كما يلعب الصبيان بالجوز .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : أوحى الله تعالى إلى عيسى على نبينا وعليه السلام : تزعم أنك لا تسألني ، فإذا قلت ما شاء الله ، فقد سألتني كل شيء .

قال الفضيل بن عياض رحمه الله : إن الله تعالى يحبُّ العالِمَ المتواضعَ ، ويبغضُ العالِمَ الجبارَ ، ومَن تواضع لله .. ورَّثه الله الحكمة .

وقال إبراهيم بن أدهم رحمة الله عليه : كثرة النظر إلى الباطل تُذهِبُ معرفة الحق من قلبك .

قال مَعْمَرُ بنُ سليمان : ما اجتمع قوم قط ، فلم يُنصِتْ بعضهم لبعض إلا رفعت بركة ذلك المجلس .

قال أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل رضي الله عنه : القعودُ عند المريض بقَدْرِ ما يجلسُ الإمامُ بين الخطبتين .

قال حكيم لبنيه : اغلبوا الناس بالخير ، ولا تغلبوهم بالشرِّ .

قال شُرَحْبِيل بن مسلم : كان يقال : مَن أدرك منكم آخر الزمان .. فعليه بِذِكْرٍ خامل .

عن سهل بن عبد الله قال : أوحى الله إلى موسى على نبينا وعليه السلام : ما خلقتُ خلقاً ينازعني في ملكي غير النفس ، فإن أردتَ رضائي .. فخالِفْها ؛ فإن النفسَ كالظل ، إنْ أنتَ رجعتَ عن هواها .. تبعتك ، كما أنك إذا رجعت عن ظلك .. تبعك .

قيل : أوحى الله تعالى إلى موسى على نبينا وعليه السلام : إذا رأيت الفقراء .. فسائلهم كما تسائل الأغنياء ، فإن لم تفعلْ .. فاجعل كلَّ شيء عَلَّمتُك تحت التراب .

عن الحسن رحمه الله قال : وُضِعَ دينُ الله دونَ الغلوِّ وفوق التقصير .

عن أسماء بنت عُمَيْسٍ رضي الله عنها قالت : (علَّمني رسول الله صلى الله عليه وسلم كلماتٍ أقولهنّ عند الكرب : الله الله ، الله ربي لا أشرك به شيئاً) .

عن سفيان رحمه الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَن كَذَب عَلَيَّ متعمداً .. فليتبوّأ مقعدَه من النار » .

قال أبو حازم : إن الرجلَ ليعمل الحسنة ما عمل حسنة قط أضرّ عليه منها .

عن الحسن : أن أبا الدرداء كان يقول : أكثروا من الدعاء ؛ فإنه مَن يُكْثِرْ قرع الباب .. يوشك أن يُفتَحَ له .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : لا تديموا أكلَ اللحم ؛ فإن له ضراوة كضراوة الخمر .

عن داوود قال : قال إياس بن معاوية : مَن لم يعرفْ عيبَ نفسه .. فهو أحمق ، قيل له : ما عيبك يا أبا واثلة؟ قال : كثرة الكلام .

عن سفيان عن شيخ من الأنصار قال : إذا أحببتُ رجلاً في الله عز وجلَّ ، ثم أحدَثَ فلم أُبغِضْهُ .. فلم أكن أحببتُه في الله عز وجل .

عن سفيان أن الحسن كان يقول : إن قوماً شمَّروا ثيابهم ، ووضعوا الكِبْرَ في قلوبهم ، فتَلْقىٰ أحدَهم في كسائه أشدَّ فخراً من صاحب المِطْرَف في مِطرفه .

وعن ميمون بن مهران قال : كان المهاجرون إذا رأوا الرجل راكباً يمشي معه الرجال .. قالوا : قاتله اللهُ جباراً ، وإن أولَ مَن مشىٰ معه الرجال وهو راكب الأشعث بن قيس .

هذه آداب وحكم قد أودعناها هذا الكتاب ، هديناك سبيلها ، وكشفنا لك مكنونها ، فكن ذا همة في العمل بها ، وعليك بالصدق والنصيحة ، وتقرّب إلى مولاك بمحاسن مراضيه .. تُفْتَحْ لك أبواب الخير ، وتذق لذة المعاملة ، ويتولى تقويمك وتسديدك ، إنه وليُّ عباده الصالحين ، وأوليائه المقرَّبين ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد النبيِّ الأميّ وعلى آله وصحبه أجمعين ، وسلَّم تسليماً كثيراً طيباً مباركاً إلى يوم الدين .

* * *

الفهرس

* * *